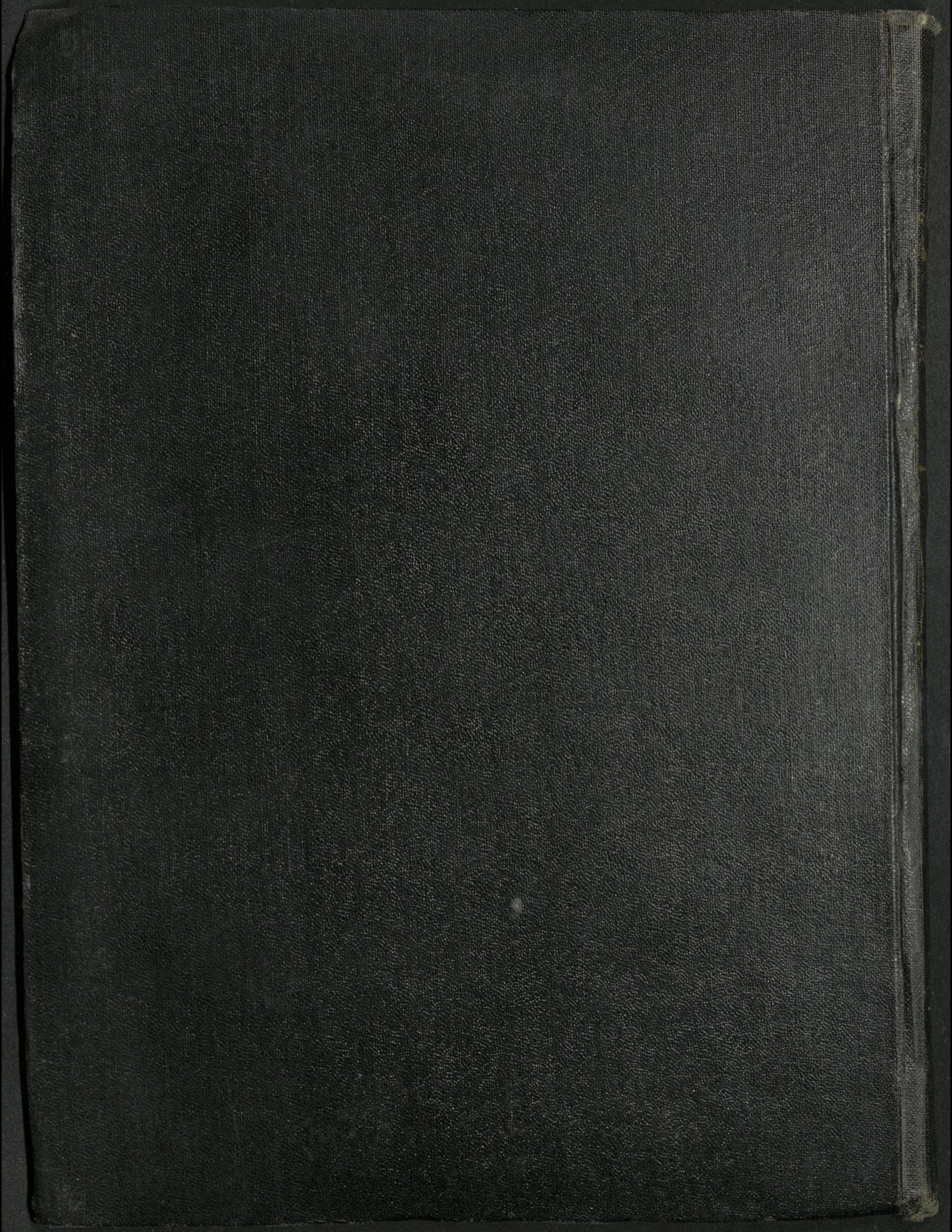




كتاب

الايمان

تأليف

شيخ الاسلام تقى الدين أبى العباس أحمد بن تيمية
الحرانى المتوفى سنة ٧٢٨ نور الله ضريحه

عنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي

﴿ الطبعة الأولى ﴾

(سنة ١٣٢٥ هجريه)

(على نفقة أحمد ناجي الجمالى ومحمد أمين الخانجى وأخيه بمصر)



(طبع بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر لصاحبها محمد اسماعيل)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستغفره ٠ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيآت أعمالنا من٠ يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادى له ٠ ونشهد أن لا إله الا الله وحده لاشريك له٠ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما ٠٠ اعلم أن الايمان والاسلام يجتمع فيهما الدين كله وقد كثر كلام الناس فى حقيقة الايمان والاسلام ونزاعهم واضطرابهم وقد صُنفت فى ذلك مجلدات والنزاع في ذلك من حين خرجت الخوارج بين عامة الطوائف ونحن نذكر مايستفاد من كلام النبي صلى الله عليه وسلم مع كلام الله تعالى فيصل المؤمن الي ذلك من نفس كلام الله ورسوله فان هذا هو المقصود فلا نذكر اختلاف الناس ابتداء بل نذكر من ذلك فى ضمن بيان مايستفاد من كلام الله ورسوله مايبين أن رد موارد النزاع الي الله والى الرسول خير وأحسن تأويلا وأحسن عاقبة في الدنيا والآخرة

فنقول قد فرق النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل عليه السلام بين مسمى الاسلام ومسمي الايمان ومسمى الاحسان فقال الاسلام أن تشهد أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا ٠٠ وقال الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره والفرق مذكور فى حديث عمر الذى انفرد به مسلم وفي حديث أبي هريرة الذى اتفق البخاري ومسلم عليه وكلاهما فيه ان جبرائيل جاءه فى صورة انسان اعرابي فسأله وفي حديث عمر أنه جاء في صورة اعرابي وكذلك فسر الاسلام في حديث ابن عمر المشهور قال بني الاسلام على خمس شهادة أن لا إله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان وحديث جبريل يبين أن الاسلام المبنىَ على خمس هو الاسلام نفسه ليس المبنى غير المبنى عليه بل جعل النبى صلى الله عليه وسلم الدين ثلاث درجات أعلاها الاحسان وأوسطها الايمان ويليه الاسلام فكل محسن مؤمن وكل مؤمن مسلم وليس كل مؤمن محسنا ولا كل مسلم مؤمنا كما سيأتي بيانه ان شاء الله في سائر الاحاديث كالحديث الذى رواه حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة عن رجل من أهل الشام عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال له اسلم تسلم قال وما الاسلام قال أن تسلم قلبك لله وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك قال فأي الاسلام أفضل قال الايمان قال وما الايمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت قال فأي الايمان أفضل قال الهجرة قال وما الهجرة قال أن تهجر السوء قال فأى الهجرة أفضل قال الجهاد قال وما الجهاد قال أن تجاهد أو تقاتل الكفار اذا لقيتهم ولا تغلل ولا تجبن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عملان هما أفضل الاعمال الامن

عمل بمثلهما قالها ثلاثا حجة مبرورة أو عمرة رواه أحمد ومحمد بن نصر المروزى .. ولهذا نذكر هذه المراتب الاربعة فنقول المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم والمهاجر من هجر السيآت والمجاهد من جاهد نفسه لله وهذا مروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عبد الله بن عمرو وفضالة بن عبيد وغيرهما باسناد جيد وهو فى السنن وبعضه في الصحيحين وقد ثبت عنه من غير وجه المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم .. ومعلوم ان من كان مأمونا على الدماء والاموال كان المسلمون يسلمون من لسانه ويده ولولا سلامتهم منه لما ائتمنوه وكذلك فى حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة وفي حديث عبد الله بن عبيد بن عمير أيضاً عن أبيه عن جده انه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما الاسلام قال اطعام الطعام وطيب الكلام قيل فما الايمان قال السماحة والصبر قيل فمن أفضل المسلمين اسلاما قال من سلم المسلمون من لسانه ويده قيل فمن أفضل المؤمنين ايمانا قال أحسنهم خلقا قيل فما أفضل الهجرة قال من هجر ماحرم الله عليه قال أى الصلاة أفضل قال طول القنوت قال أى الصدقة أفضل قال جهد مقل قال أي الجهاد أفضل قال أن تجاهد بمالك ونفسك فيعقر جوادك ويراق دمك قال أى الساعات أفضل قال جوف الليل الغابر .. ومعلوم ان هذا كله مراتب بعضها فوق بعض والا فالمهاجر لابد أن يكون مؤمنا وكذلك المجاهد ولهذا قال الايمان السماحة والصبر وقال في الاسلام اطعام الطعام وطيب الكلام والاول مستلزم للثاني فان من كان خلقه السماحة فعل هذا بخلاف الاول فان الانسان قد يفعل ذلك تخلقا ولا يكون فى خلقه سماحة وصبر وكذلك قال أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده وقال أفضل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا .. ومعلوم ان هذا يتضمن الاول فمن كان حسن الخلق فعل ذلك .. قيل للحسن البصرى ماحسن الخلق قال بذل الندى وكف الاذى وطلاقة الوجه فكف الاذى جزء من حسن الخلق وستأتي الاحاديث الصحيحة بأنه جعل الاعمال الظاهرة من الايمان كقوله الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله الا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق وقوله لوفد عبد القيس آمركم بالايمان بالله وحده أتدرون ما الايمان بالله شهادة أن لا إله الا الله وحده لاشريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا خمس ماغنمتم .. ومعلوم انه لم يرد أن هذه الاعمال تكون ايمانا بالله بدون ايمان القلب لما قد أخبر فى غير موضع انه لابد من ايمان القلب فعلم ان هذه مع ايمان القلب هو الايمان وفي المسند عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الاسلام علانية والايمان فى القلب وقال صلى الله عليه وسلم ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب فمن صلح قلبه صلح جسده قطعاً بخلاف العكس وقال سفيان بن عيينة كان العلماء فيما مضى يكتب بعضهم الى بعض بهؤلاء الكلمات من أصلح سريرته أصلح الله علانيته ومن أصلح مابينه وبين الله أصلح الله مابينه وبين الناس ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه رواه ابن أبى الدنيا في كتاب الاخلاص .. فعلم ان القلب اذا صلح بالايمان صلح الجسد بالاسلام وهو من الايمان يدل على ذلك انه قال فى حديث جبريل هذا

جبريل جاءكم يعلمكم دينكم فجعل الدين هو الاسلام والايمان والاحسان فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة لكن هو درجات ثلاث مسلم ثم مؤمن ثم محسن كما قال تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) والمقتصد والسابق كلاهما يدخلان الجنة بلا عقوبة بخلاف الظالم لنفسه وهكذا من أتى بالاسلام الظاهر مع تصديق القلب لكن لم يقم بما يجب عليه من الايمان الباطن فانه معرض للوعيد كما سيأتى بيانه ان شاء الله .. وأما الاحسان فهو أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أصحابه من الايمان والايمان اعم من جهة نفسه وأخص من جهة أصحابه من الاسلام فالاحسان يدخل فيه الايمان والايمان يدخل فيه الاسلام والمحسنون أخص من المؤمنين والمؤمنون أخص من المسلمين وهذا كما يقال فى الرسالة والنبوة فالنبوة داخلة في الرسالة والرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا فالانبياء أعم والنبوة نفسها جزء من الرسالة فالرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف النبوة فانها لاتتناول الرسالة .. والنبي صلى الله عليه وسلم فسر الاسلام والايمان بما أجاب به كما يجاب عن المحدود بالحد اذا قيل ما كذا قيل كذا وكذا كما فى الحديث الصحيح لما قيل ما الغيبة قال ذكرك أخاك بما يكره وفى الحديث الآخر الكبر بطر الحق وغمط الناس وبطر الحق جحده ودفعه وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم وسنذكر ان شاء الله تعالى سبب تنوع أجوبته وانها كلها حق ولكن المقصود ان قوله بني الاسلام على خمس كقوله الاسلام هو الخمس كما ذكر في حديث جبريل فان الامر مركب من أجزاء تكون الهيئة الاجتماعية فيه مبنية على تلك الاجزاء ومركبة منها فالاسلام مبنى على هذه الاركان وسنبين ان شاء الله اختصاص هذه الخمس بكونها هي الاسلام وعليها بني الاسلام ولم خصت بذلك دون غيرها من الواجبات وقد فسر الايمان في فى حديث وفد عبد القيس بما فسر به الاسلام هنا لكنه لم يذكر فيه الحج وهو متفق عليه فقال آمركم بالايمان بالله وحده هل تدرون ما الايمان بالله وحده قالوا الله ورسوله أعلم قال شهادة أن لااله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تؤدوا خُمسَ ماغنمتم أو خُمساً من المغنم وقد روى في بعض طرقه الايمان بالله وشهادة أن لااله الا الله لكن الاول أشهر وفي رواية أبي سعيد آمركم باربع وأنهاكم عن أربع اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وقد فسر فى حديث شعب الايمان الايمان بهذا وبغيره فقال الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله الا الله وأدناها إماطة الاذي عن الطريق والحياء شعبة من الايمان وثبت عنه من وجوه متعددة أنه قال الحياء شعبة من الايمان من حديث ابن عمر وابن مسعود وعمران بن حصين وقال أيضاً لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين وقال لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه وقال والله لايؤمن والله لايؤمن والله لايؤمن قيل من يارسول الله قال الذى لايأمن جاره بوائقه وقال من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان وقال مابعث الله من نبي الا كان في أمته قوم يهتدون بهديه ويستنون بسنته ثم انه يخلف من بعدهم خلوف

يقولون مالايفعلون ويفعلون مالايؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل وهذا من افراد مسلم وكذلك فى افراد مسلم قوله والذى نفسى بيده لاتدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا ادلكم على شىء اذا فعلتموه تحاببتم افشوا السلام بينكم وقال فى الحديث المتفق عليه من رواية أبي هريرة ورواه البخاري من حديث ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم لايزني الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا ينتهب النهبة يرفع الناس اليه فيها أبصارهم وهو مؤمن .. فيقال اسم الايمان تارة يذكر مفردا غير مقرون باسم الاسلام ولا باسم العمل الصالح ولا غيرهما وتارة يذكر مقرونا إما بالاسلام كقوله فى حديث جبريل ما الاسلام وما الايمان وكقوله تعالى (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) وقوله عز وجل (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) وقوله تعالي (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) وكذلك ذكر الايمان مع العمل الصالح وذلك فى مواضع من القرآن كقوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وإما مقرونا بالذين أوتوا العلم كقوله تعالى (والذين أوتوا العلم والايمان) وقوله (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وحيث ذكر الذين آمنوا فقد دخل فيهم الذين أوتوا العلم فانهم خيارهم قال تعالى (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) وقال (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما انزل من قبلك) . ويذكر أيضاً لفظ المؤمنين مقرونا بالذين هادوا والنصارى والصابئين ثم يقول من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم فالمؤمنون في ابتداء الخطاب غير الثلاثة والايمان الآخر عمهم كما عمهم فى قوله (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) وسنبسط هذا ان شاء الله .. فالمقصود هنا العموم والخصوص بالنسبة الى مافى الباطن والظاهر من الايمان وأما العموم بالنسبة الي الملل فتلك مسئلة أخرى فلما ذكر الايمان مع الاسلام جعل الاسلام هو الاعمال الظاهرة الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج وجعل الايمان ما فى القلب من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهكذا فى الحديث الذى رواه أحمد عن أنس عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال الاسلام علانية والايمان فى القلب .. واذا ذكر اسم الايمان مجردا دخل فيه الاسلام والاعمال الصالحة كقوله فى حديث الشعب الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لااله الا الله وأدناها اماطة الاذي عن الطريق وكذلك سائر الاحاديث التي يجعل فيها أعمال البر من الايمان .. ثم ان نفى الايمان عند عدمها دل على انها واجبة وان ذكر فضل ايمان صاحبها ولم ينف ايمانه دل على انها مستحبة فان الله ورسوله لاينفى اسم مسمى أمر أمر الله به ورسوله الا اذا ترك بعض واجباته كقوله لاصلاة إلا بام القرآن وقوله لاايمان لمن لاأمانة له ولا دين لمن لاعهد له ونحو ذلك .. فأما اذا كان الفعل مستحبا فى العبادة لم ينفها لانتفاء المستحب فان هذا لو جاز لجاز أن ينفى عن جمهور المؤمنين اسم الايمان والصلاة والزكاة والحج لانه مامن عمل الا وغيره أفضل منه وليس

أحد يفعل أفعال البر مثل مافعلها النبي صلى الله عليه وسلم بل ولا أبو بكر ولا عمر فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه لجاز أن ينفى عن جمهور المسلمين من الاولين والآخرين وهـذا لايقوله عاقل فمن قال ان المنفى هو الكمال فان أراد انه نفى الكمال الذي يذم تاركه ويتعرض للعقوبة فقد صدق وان أراد انه نفى الكمال المستحب فهذا لم يقع قط فى كلام الله ورسوله ولايجوز أن يقع فان من فعل الواجب كما وجب عليه ولم ينتقص من واجبه شيئاً لم يجز أن يقال مافعلته لاحقيقة ولا مجازاً فاذا قال للاعرابى المسىء فى صلاته ارجع فصل فانك لم تصل وقال لمن صلى خلف الصف وقد أمره بالاعادة لاصلاة لفذ خلف الصف كان لترك واجب وكذلك قوله تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) بين أن الجهاد واجب وترك الارتياب واجب والجهاد وان كان فرضا على الكفاية فجميع المؤمنين يخاطبون به ابتداء فعليهم كلهم اعتقاد وجوبه والعزم على فعله اذا تعين ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة نفاق رواه مسلم فاخبر انه من لم يهم به كان على شعبة نفاق . وأيضا فالجهاد جنس تحته أنواع متعددة ولابد أن يجب على المؤمن نوع من أنواعه وكذلك قوله (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا) هذا كله واجب فان التوكل على الله واجب من أعظم الواجبات كما أن الاخلاص لله واجب وحب الله ورسوله واجب وقد أمر الله بالتوكل فى غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة ونهى عن التوكل على غير الله قال تعالى (فاعبده وتوكل عليه) وقال تعالى (الله لااله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقال تعالى (ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقال تعالى (وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) وأما قوله (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا) . فيقال من أحوال القلب وأعماله ما يكون من لوازم الايمان الثابتة فيه بحيث اذا كان الانسان مؤمنا لزم ذلك بغير قصد منه ولا تعمد له واذا لم يوجد دل على أن الايمان الواجب لم يحصل في القلب وهذا كقوله تعالي (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه) فاخبر انك لاتجد مؤمنا يواد المحادين لله ورسوله فان نفس الايمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدّين للآخر فاذا وجد الايمان انتفى ضده وهو موالاة أعداء الله فاذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلا على أن قلبه ليس فيه الايمان الواجب ومثله قوله تعالى فى الآية الاخري (تري كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون) فذكر جملة شرطية تقتضى انه اذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف لو التى تقتضى مع الشرط انتفاء المشروط فقال (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه

ما اتخذوهم أولياء) فدل على أن الايمان المذكور ينفى اتخاذهم أولياء ويضاده ولا يجتمع الايمان واتخاذهم أولياء في القلب ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء مافعل الايمان الواجب من الايمان بالله والنبي وما أنزل اليه ومثله قوله تعالى (لا تتخذوا اليهود والنصاري أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم) فانه أخبر فى تلك الآيات ان متوليهم لا يكون مؤمنا وأخبر هنا أن متوليهم هو منهم فالقرآن يصدق بعضه بعضاً قال الله تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) الآية وكذلك قوله (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معـه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) دليل على أن الذهاب المذكور بدون استئذانه لايجوز وانه يجب أن لايذهب حتى يستأذن فمن ذهب ولم يستأذن كان قد ترك بعض مايجب من الايمان فلهذا نفى عنه الايمان فان حرف انما تدل على اثبات المذكور ونفى غيره ومن الاصوليين من يقول إن إن للاثبات وما للنفى فاذا جمع بينهما دلت على النفى والاثبات وليس كذلك عند أهل العربية ومن يتكلم فى ذلك يعلم فان ماهذه هى الكافة التى تدخل على إن وأخواتها فتكفها عن العمل لانها انما تعمل اذا اختصت بالجمل الاسمية فلما كفت بطل اختصاصها فصار يليها الجمل الفعلية والاسمية فتغير معناها وعملها جميعا بانضمام ما اليها وكذلك كانما وغيرها وكذلك قوله تعالى (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وان يكن لهم الحق يأتوا اليـه مذعنين أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) •• فان قيل اذا كان المؤمن حقا هو الفاعل للواجبات التارك للمحرمات فقد قال أولئك هم المؤمنون حقا ولم يذكر الا خمسة أشياء وكذلك قال فى الآية الاخري (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) وكذلك قوله (ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) قيل عن هـذا جوابان أحدهما أن يكون ماذكر مستلزما لما ترك فانه ذكر وجل قلوبهم اذا ذكر الله وزيادة ايمانهم اذا تليت آياته مع التوكل عليه وإقام الصلاة على الوجه المأمور به باطنا وظاهرا وكذلك الانفاق من المال والمنافع فكان هـذا مستلزما للباقي فان وجل القلب عنـد ذكر الله يقتضى خشيته والخوف منـه وقد فسروا وجلَتْ بفرقت وفى قراءة ابن مسعود اذا ذكر الله فرقت قلوبهم وهذا صحيح فان الوجَل فى اللغة هو الخوف يقال حمرة الخجل وصفرة الوجل ومنه قوله تعـالى (والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون) قالت عائشـة يارسول الله هو الرجـل يزنى ويسرق ويخاف أن يعاقب قال لا يابنت الصـديق هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لايقبل منه وقال السدى في قوله تعالى (اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فينزع عنه وهذا كقوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهي النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوي) وقوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قال مجاهد وغيره من المفسرين هو الرجل يهم بالمعصية

فيذكر مقامه بين يدى الله فيتركها خوفا من الله واذا كان وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته ومخافته فذلك يدعو صاحبه الى فعل المأمور وترك المحظور قال سهل بن عبد الله ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوي ولا طريق اليه أقرب من الافتقار وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله ويدل على ذلك قوله تعالى (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الالواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) فاخبر أن الهدى والرحمة للذين يرهبون الله قال مجاهد وابراهيم هو الرجل يريد أن يذنب الذنب فيذكر مقام الله فيدع الذنب رواه ابن أبى الدنيا عن ابن الجعد عن شعبة عن منصور عنهما فى قوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وهؤلاء هم أهل الفلاح المذكورون فى قوله تعالى (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وهم المؤمنون وهم المتقون المذكورون فى قوله تعالى (الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) كما قال فى آية البر (أولئك الذين صدقوا فاولئك هم المتقون) وهؤلاء هم المتبعون للكتاب كما في قوله تعالي (فمن تبع هداى فلايضل ولايشقى) واذا لم يضل فهو متبع مهتد واذا لم يشق فهو مرحوم وهؤلاء هم أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين فان أهل الرحمة ليسوا مغضوبا عليهم وأهل الهدى ليسوا ضالين فتبين أن أهل رهبة الله يكونون متقين لله مستحقين لجنته بلا عذاب وهؤلاء هم الذين أتوا بالايمان الواجب .. ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) والمعنى انه لايخشاه الا عالم فقد أخبر الله أن كل من خشى الله فهو عالم كما قال في الآية الاخري (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون) والخشية أبدا متضمنة للرجاء ولولا ذلك لكانت قنوطا كما أن الرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمنا فاهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله وقد روي عن أبى حيان التيمي أنه قال العلماء ثلاثة فعالم بالله ليس عالما بأمر الله وعالم بأمر الله ليس عالما بالله وعالم بالله عالم بامر الله فالعالم بالله هو الذي يخافه والعالم بأمر الله هو الذى يعلم أمره ونهيه وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال والله انى لارجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده واذا كان أهل الخشية هم العلماء الممدوحون في الكتاب والسنة لم يكونوا مستحقين للذم وذلك لايكون الا مع فعل الواجبات ويدل عليه قوله تعالى (فأوحي اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) وقوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فوعد بنصر الدنيا وبثواب الآخرة لاهل الخوف وذلك انما يكون لانهم أدوا الواجب فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب ولهذا يقال للفاجر لايخاف الله ويدل على هذا المعنى قوله تعالى (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) قال أبو العالية سألت أصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لى كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب وكذلك قال سائر المفسرين قال مجاهد كل عاص فهو جاهل حين معصيته وقال الحسن وقتادة وعطاء والسدى وغيرهم انما سموا جهالا لمعاصيهم لانهم غير مميزين وقال الزجاج ليس معني

الآية انهم يجهلون انه سوء لان المسلم لو أتى ما يجهله كان كمن لم يواقع سوءا وانما يحتمل أمرين أحدهما انهم عملوه وهم يجهلون المكروه فيه والثاني انهم أقدموا على بصيرة وعلم بان عاقبته مكروهة وآثروا العاجل على الآجل فسموا جهالا لايثارهم القليل على الراحة الكثيرة والراحة الدائمة فقد جعل الزجاج الجهل اما عدم العلم بعاقبة الفعل واما فساد الارادة وقد يقال هما متلازمان وهذا مبسوط في الكلام مع الجهمية ٠٠ والمقصود هنا أن كل عاص لله فهو جاهل وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله وانما يكون جاهلا لنقص خوفه من الله اذ لو تم خوفه لم يعص ومنه قول ابن مسعود رضى الله عنه كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا وذلك لان تصور المخوف يوجب الهرب منه وتصور المحبوب يوجب طلبه فاذا لم يهرب من هذا ولم يطلب هذا دل على انه لم يتصوره تصوراً تاماً ولكن قد يتصور الخبر عنه وتصور الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غير تصور المخبر به وكذلك اذا لم يكن المتصور محبوباً له ولا مكروهاً فان الانسان يصدق بما هو مخوف على غيره ومحبوب لغيره ولا يورثه ذلك هرباً ولا طلباً وكذلك اذا أخبر بما هو محبوب له ومكروه ولم يكذب المخبر بل عرف صدقه لكن قلبه مشغول بأمور أخرى عن تصور ما أخبر به فهذا لا يحرك للهرب ولا للطلب وفى الكلام المعروف عن الحسن البصري ويروي مرسلا عن النبي صلى الله عليه وسلم العلم علمان فعلم في القلب وعلم على اللسان فعلم القلب هو العلم النافع وعلم اللسان حجة الله على عباده وقد أخرجا فى الصحيحين عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها وهذا المنافق الذي يقرأ القرآن يحفظه ويتصور معانيه وقد يصدق انه كلام الله وأن الرسول حق ولا يكون مؤمناً كما ان اليهود يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وليسوا مؤمنين وكذلك ابليس وفرعون وغيرهما لكن من كان كذلك لم يكن حصل له العلم التام والمعرفة التامة فان ذلك يستلزم العمل بموجبه لا محالة ولهذا صار يقال لمن لم يعمل بعلمه انه جاهل كما تقدم وكذلك لفظ العقل وان كان هو في الأصل مصدر عقل يعقل عقلا وكثير من النظار جعله من جنس العلوم فلا بد أن يعتبر مع ذلك انه علم يعمل بموجبه فلا يسمي عاقلا إلاّ من عرف الخير فطلبه والشر فتركه ولهذا قال أصحاب النار (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) وقال (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) ومن فعل ما يعلم انه يضره فمثل هذا ماله عقل فكما أن الخوف من الله يستلزم العلم به فالعلم به يستلزم خشيته وخشيته تستلزم طاعته فالخائف من الله ممتثل لاوامره مجتنب لنواهيه وهذا هو الذي قصدنا بيانه أولا ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى (فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى) فأخبر ان من يخشاه يتذكر والتذكر هنا مستلزم لعبادته قال تعالى (هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلاّ من ينيب) وقال (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) ولهذا قالوا فى قوله سيذكر من يخشى

سيتعظ بالقرآن من يخشى الله وفي قوله وما يتذكر إلاّ من ينيب انما يتعظ من يرجع الى الطاعة وهذا لان التذكر التام يستلزم العمل بما تذكره فان تذكر محبوباً طلبه وان تذكر مرهوباً هرب منه ومنه قوله تعالى (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) وقال سبحانه (انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب) فنفى الانذار عن غير هؤلاء مع قوله (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) فأثبت لهم الانذار من وجه ونفاه عنهم من وجه فان الانذار هو الاعلام بالخوف فالانذار مثل التعليم والتخويف فمن علمته فتعلم فقد تم تعليمه وآخر يقول علمته فلم يتعلم وكذلك من خوفته فخاف فهذا هو الذى تم تخويفه وأما من خوّف فما خاف فلم يتم تخويفه وكذلك من هديته فاهتدى تم هداه ومنه قوله تعالى (هدى للمتقين) ومن هديته فلم يهتد كما قال (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) فلم يتم هداه كما تقول قطعته فانقطع وقطعته فما انقطع فالمؤثر التام يستلزم أثره فمتى لم يحصل أثره لم يكن تاماً والفعل اذا صادف محلا قابلا تم وإلاّ لم يتم والعلم بالمحبوب يورث طلبه والعلم بالمكروه يورث تركه ولهذا يسمى هذا العلم الداعى ويقال الداعي مع القدرة يستلزم وجود المقدور وهو العلم بالمطلوب المستلزم لارادة المعلوم المراد وهذا كله مع صحة الفطرة وسلامتها وأما مع فسادها فقد يحس الانسان باللذيذ فلا يجد له لذة بل يؤلمه وكذلك يلتذ بالمؤلم لفساد الفطرة والفساد يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعاً كالممرور الذي يجد العسل مرّاً فانه فسد نفس احساسه حتى كان يحس به على خلاف ماهو عليه للمِرّة التى مازجته وكذلك من فسد باطنه قال تعالى (وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرّة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) وقال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقال تعالي (قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم) وقال في الآية الأُخري (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم) والغلف جمع أغلف وهو ذو الغلاف الذى فى غلاف مثل الأقلف كأنهم جعلوا المانع خلقة أي خلقت القلوب عليها أغطية فقال تعالى (بل لعنهم الله بكفرهم وطبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلا) وقال تعالى (ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أُوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) وكذلك قالوا (يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول) قال (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) أي لأفهمهم ما سمعوه ثم قال ولو أفهمهم مع هذه الحال التى هم عليها لتولوا وهم معرضون فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا ولو فهموا لم يعملوا فنفى عنهم صحة القوة العلمية وصحة القوة العملية وقال (أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم إلاّ كالأنعام بل هم أضل سبيلا) وقال (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وقال (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلاّ دعاء ونداء صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون) وقال عن المنافقين (صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون) ومن الناس من يقول لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر والنطق جعلوا صماً بكماً عمياً أو لما أعرضوا عن السمع والبصر صاروا كالصم العمي وليس كذلك

بل نفس قلوبهم عميت وصمت وبكمت كما قال الله تعالى (فانها لاتعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور) والقلب هو الملك والأعضاء جنوده واذا صلح صلح سائر الجسد واذا فسد فسد سائر الجسد فيبقى يسمع بالبدن الصوت كما تسمع البهائم والمعنى لا تفقهه وان فقه بعض الفقه لم يفقه فقهاً تاماً فان الفقه التام يستلزم تأثيره في القلب محبة المحبوب وبغض المكروه فمتى لم يحصل هذا لم يكن التصور التام حاصلا فجاز نفيه لان مالم يتم ينفي كقوله للذى أساء في صلاته صل" فانك لم تصل ونفى الايمان حيث نفى من هذا الباب ٠٠ وقد جمع الله بين وصفهم بوجل القلب اذا ذكر وبزيادة الايمان اذا سمعوا آياته قال الضحاك زادتهم يقيناً وقال الربيع بن أنس خشية وعن ابن عباس تصديقاً وهكذا قد ذكر الله هذين الأصلين فى مواضع قال تعالى (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) والخشوع يتضمن معنيين أحدهما التواضع والذل والثاني السكون والطمأنينة وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله وطمأنينته أيضاً ولهذا كان الخشوع في الصلاة يتضمن هذا وهذا التواضع والسكون وعن ابن عباس فى قوله (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) قال مخبتون أذلاء وعن الحسن وقتادة خائفون وعن مقاتل متواضعون وعن علي" الخشوع فى القلب وان يلين للمرء المسلم كنفك ولا تلتفت يميناً ولا شمالا وقال مجاهد غض البصر وخفض الجناح وكان الرجل من العلماء اذا قام الى الصلاة هاب الرحمن أن يشد بصره أو ان يحدث نفسه بشيء من أمر الدنيا وعن عمرو بن دينار ليس الخشوع الركوع والسجود ولكنه السكون وحسن الهيئة فى الصلاة وعن ابن سيرين وغيره كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ينظرون بأبصارهم في الصلاة الى السماء وينظرون يميناً وشمالا حتي نزلت هذه (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون) الآية فجعلوا بعد ذلك وجوههم حيث يسجدون وما رؤي أحد منهم بعد ذلك ينظر إلا" الى الأرض وعن عطاء هو أن لا تعبث بشيء من جسدك وأنت فى الصلاة وأبصر النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه ولفظ الخشوع ان شاء الله يبسط فى مواضع أخر ٠٠ وخشوع الجسد تبع لخشوع القلب اذا لم يكن الرجل مرائياً يظهر ماليس فى قلبه كما روى تعوذوا بالله من خشوع النفاق وهو أن يري الجسد خاشعاً والقلب خالياً لاهياً فهو سبحانه استبطأ المؤمنين بقوله (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) فدعاهم الى خشوع القلب لذكره وما نزل من كتابه ونهاهم أن يكونوا كالذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وهؤلاء هم الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وكذلك قال في الآية الأخرى (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) والذين يخشون ربهم هم الذين اذا ذكر الله تعالى وجلت قلوبهم ٠٠ فان قيل فخشوع القلب لذكر الله وما نزل من الحق واجب قيل نعم لكن الناس فيه على قسمين مقتصد وسابق فالسابقون يختصون بالمستحبات

والمقتصدون الأبرار هم عموم المؤمنين المستحقين للجنة ومن لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء فهو ظالم لنفسه وفى الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع وقد ذم الله قسوة القلوب المنافية للخشوع فى غير موضع فقال تعالى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة) قال الزجاج قست في اللغة غلظت ويبست وعست فقسوة القلب ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه والقاسى والعاسى الشديد الصلابة وقال ابن قتيبة قست وعست وعتت أي يبست وقوة القلب المحمودة غير قسوته المذمومة فانه ينبغي أن يكون قوياً من غير عنف ولينا من غير ضعف وفى الأثر القلوب آنية الله فى أرضه فاحبها الى الله أصلبها وأرقها وأصفاها وهذا كاليد فانها قوية لينة بخلاف مايجسو من العقب فانه يابس لالين فيه وان كان فيه قوة وهو سبحانه ذكر وجل القلب من ذكره ثم ذكر زيادة الايمان عند تلاوة كتابه علما وعملا ثم لابد من التوكل على الله فيما لايقدر عليه ومن طاعته فيما يقدر عليه وأصل ذلك الصلاة والزكاة فمن قام بهذه الخمس كما أمر لزم أن يأتى بسائر الواجبات بل الصلاة نفسها اذا فعلها كما أمر فهي تنهي عن الفحشاء والمنكر كما روى عن ابن مسعود وابن عباس ان في الصلاة منهي ومزجرا عن معاصى الله فمن لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بصلاته من الله الا بعدا وقوله لم يزدد الا بعدا اذا كان ماترك من الواجب منها أعظم مما فعله أبعده ترك الواجب الاكثر من الله أكثر مما قربه فعل الواجب الاقل وهذا كما في الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقر أربعاً لايذكر الله فيها الا قليلا وقد قال تعالى (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا) وفي السنن عن عمار عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له منها الا نصفها الا ثلثها حتى قال الا عشرها وعن ابن عباس قال ليس لك من صلاتك الا ماعقلت منها وهذا وان لم يؤمر باعادة الصلاة عند أكثر العلماء لكن يؤمر بأن يأتي من التطوعات بما يجبر نقص فرضه ومعلوم ان من حافظ على الصلوات بخشوعها الباطن وأعمالها الظاهرة وكان يخشي الله الخشية التى أمره بها فانه يأتي بالواجبات ولا يأتي كبيرة ومن أتى الكبائر مثل الزنا أوالسرقة أو شرب الخمر وغير ذلك فلا بد أن يذهب مافى قلبه من تلك الخشية والخشوع والنور وان بقى أصل التصديق فى قلبه وهذا من الايمان الذى ينزع منه عند فعل الكبيرة كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن فان المتقين كما وصفهم الله بقوله (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون) فاذا طاف بقلوبهم طيف من الشيطان تذكروا فيبصرون قال سعيد بن جبير هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله فيكظم الغيظ وقال ليث عن مجاهد هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه والشهوة والغضب مبدأ السيآت فاذا أبصر رجع ثم قال (واخوانهم يمدونهم فى الغي ثم لايقصرون) أي واخوان الشياطين تمدهم الشياطين فى الغي ثم لايقصرون

قال ابن عباس لا الانس تقصر عن السيآت ولا الشياطين تمسك عنهم فاذا لم يبصر بقى قلبه فى غمر والشيطان يمده من غيه وان كان التصديق في قلبه لم يكذب فذلك النور والابصار وتلك الخشية والخوف يخرج من قلبه وهذا كما ان الانسان يغمض عينيه فلا يري وان لم يكن أعمى فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لايبصر الحق وان لم يكن أعمى كعمي الكافر وهكذا جاء في الآثار قال أحمد بن حنبل فى كتاب الايمان حدثنا يحيي عن أشعث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ينزع منه الايمان فان تاب أعيد اليه وقال حدثنا يحيى عن عوف قال قال الحسن يجانبه الايمان مادام كذلك فان راجع راجعه الايمان وقال أحمد حدثنا معاوية عن أبي اسحاق عن الاوزاعي قال وقد قلت للزهري حين ذكر هذا الحديث لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن فانهم يقولون فان لم يكن مؤمنا فما هو قال فانكر ذلك وكره مسئلتي عنه وقال أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن ابراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال لغلمانه من أراد منكم الباءة زوجناه لايزنى منكم زان الا نزع الله منه نور الايمان فان شاء أن يرده رده وان شاء أن يمنعه منعه وقال أبو داود السجستاني حدثنا عبد الوهاب بن نجدة حدثنا بقية بن الوليد حدثنا صفوان بن عمرو عن عبدالله بن ربيعة الحضرمى انه أخبره عن أبي هريرة أنه كان يقول انما الايمان كثوب أحدكم يلبسه مرة ويقلعه أخرى وكذلك رواه باسناده عن عمرو روى عن الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا وفى حديث عن أبي هريرة مرفوع الى النبي صلى الله عليه وسلم اذا زنى الزاني خرج منه الايمان فكان كالظلة فاذا انقطع رجع اليه الايمان وهذا ان شاء الله يبسط فى موضع آخر

(فصل) وقد جاءت أحاديث تنازع الناس في صحتها مثل قوله لاصلاة الا بوضوء ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه فاما الاول فهو كقوله لاصلاة الا بطهور وهذا متفق عليه بين المسلمين فان الطهور واجب فى الصلاة فانما نفى الصلاة لانتفاء واجب فيها وأما ذكر اسم الله تعالى على الوضوء ففى وجوبه نزاع معروف وأكثر العلماء لايوجبونه وهو مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعي وهو احدي الروايتين عن أحمد اختارها الخرقى وأبو محمد وغيرهما والثاني يجب وهو قول طائفة من أهل العلم وهو الرواية الاخرى عن أحمد اختارها أبو بكر عبد العزيز والقاضي أبو يعلى وأصحابه وكذلك قوله لاصلاة لجار المسجد الا فى المسجد رواه الدارقطنى فمن الناس من يضعفه مرفوعا ويقول هو من كلام على رضي الله عنه ومنهم من يثبته كعبد الحق وكذلك قوله لاصيام لمن لم يبيت الصيام من الليل قد رواه أهل السنن وقيل ان رفعه لم يصح وانما يصح موقوفا على ابن عمر أو حفصة فليس لاحد أن يثبت لفظا عن الرسول مع أنه أريد به نفى الكمال المستحب فان صحت هذه الالفاظ دلت قطعاً على وجوب هذه الامور فان لم تصح فلا ينقض بها أصل مستقر من الكتاب والسنة وليس لاحد أن يحمل كلام الله ورسوله على وفق مذهبه ان لم يتبين من كلام الله ورسوله مايدل على مراد الله ورسوله والا فأقوال العلماء تابعة لقول الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ليس قول الله ورسوله تابعاً لاقوالهم فاذا كان فى وجوب شئ نزاع

بين العلماء ولفظ الشارع قد اطرد لم يجز أن ينقض الاصل المعروف من كلام الله ورسوله بقول فيه نزاع بين العلماء ولكن من الناس من لايعرف مذاهب أهل العلم وقد نشأ على قول لايعرف غيره فيظنه اجماعا كمن يظن انه اذا ترك الانسان الجماعة وصلى وحده برئت ذمته اجماعا وليس الامر كذلك بل للعلماء قولان معروفان في إجزاء هذه الصلاة وفى مذهب أحمد فيها قولان فطائفة من قدماء أصحابه حكاه عنهم القاضى أبو يعلى فى شرح المذهب ومن متأخريهم كابن عقيل وغيره يقولون من صلى المكتوبة وحده من غير عذر يسوغ له ذلك فهو كمن صلى الظهر يوم الجمعة فان أمكنه أن يؤديها فى جماعة بعد ذلك فعليه ذلك والاباء بإثمه كما يبوء تارك الجمعة بإثمه والتوبة معروضة وهذا قول غير واحد من أهل العلم وأكثر الآثار المروية عن السلف من الصحابة والتابعين تدل على هذا .. وقد احتجوا بما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من سمع النداء ثم لم يجب من غير عذر فلا صلاة له وأجابوا عن حديث الفضيل بأنه في المعذور الذي تباح له الصلاة وحده كما ثبت عنه انه قال صلاة الرجل قاعدا على النصف من صلاة القائم وصلاة المضطجع على النصف من صلاة القاعد والمراد به المعذور كما في الحديث انه خرج وقد أصابهم وعك وهم يصلون قعودا فقال ذلك ولم يجوز أحد من السلف صلاة التطوع مضطجعا من غير عذر ولا يعرف ان أحدا من السلف فعل ذلك وجوازه وجه فى مذهب الشافعي وأحمد لايعرف لصاحبه سلف صدق مع ان هذه المسألة مما تعم به البلوى فلو كان يجوز لكل مسلم أن يصلى التطوع على جنبه وهو صحيح لامرض به كما يجوز أن يصلى التطوع قاعدا وعلى الراحلة لكان هذا مما قد بينه الرسول صلى الله عليه وسلم لامته وكان الصحابة تعلم ذلك ثم مع قوة الداعى الى الخير لابد أن يفعل ذلك بعضهم فلما لم يفعله أحد منهم دل على أنه لم يكن مشروعا عندهم وهذا مبسوط فى موضعه .. والمقصود هنا انه ينبغى للمسلم أن يقدر قدر كلام الله ورسوله بل ليس لاحد أن يحمل كلام أحد من الناس الا على ماعرف انه أراده لاعلى مايحتمله ذلك اللفظ فى كلام كل أحد فان كثيراً من الناس يتأول النصوص المخالفة لقوله يسلك مسلك من يجعل التأويل كانه ذكر مايحتمله اللفظ وقصده به دفع ذلك المحتج عليه بذلك النص وهذا خطأ بل جميع ماقاله الله ورسوله يجب الايمان به فليس لنا أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض وليس الاعتناء بمراده فى أحد النصين دون الآخر بأولى من العكس فاذا كان النص الذى وافقه يعتقد انه اتبع فيه مراد الرسول فكذلك النص الآخر الذي تأوله فيكون أصل مقصوده معرفة ما أراده الرسول بكلامه وهذا هو المقصود بكل مايجوز من تفسير وتأويل عند من يكون اصطلاحه تغاير معناها وأما من يجعلهما بمعنى واحد كما هو الغالب على اصطلاح المفسرين فالتأويل عندهم هو التفسير وأما التأويل في كلام الله ورسوله فله معنى ثالث غير معناه فى اصطلاح المفسرين وغيرها فى اصطلاح متأخرى الفقهاء والاصوليين كما قد بسط في موضعه .. والمقصود هنا ان كل مانفاه الله ورسوله من مسمى أسماء الامور الواجبة كاسم الايمان والاسلام والدين والصلاة والصيام والطهارة والحج وغير ذلك فانما يكون لترك واجب في ذلك المسمي ومن هذا قوله تعالي (فلا وربك لايؤمنون حتي يحكموك فيماشجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجا

مما قضيت ويسلموا تسليما) فلما نفى الايمان حتى توجد هذه الغاية دل على أن هذه الغاية فرض على الناس فمن تركها كان من أهل الوعيد لم يكن قد أتى بالايمان الواجب الذى وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب فان الله انما وعد بذلك من فعل ما أمر به وأما من فعل بعض الواجبات وترك بعضها فهو معرض للوعيد ومعلوم باتفاق المسلمين أنه يجب تحكيم الرسول فى كل ماشجر بين الناس فى دينهم ودنياهم في أصول دينهم وفروعه وعليهم كلهم اذا حكم بشئ أن لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما حكم ويسلموا له تسليما قال تعالى (ألم تر الي الذين يزعمون انهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا واذا قيل لهم تعالوا الي ماأنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا) وقوله الى ماأنزل الله وقد أنزل الله الكتاب والحكمة وهي السنة قال تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به) وقال تعالي (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) والدعاء الى ماأنزل يستلزم الدعاء الي الرسول والدعاء الى الرسول يستلزم الدعاء الى ماأنزله الله وهذا مثل طاعة الله والرسول فانهما متلازمان فمن يطع الرسول فقد أطاع الله ومن أطاع الله فقد أطاع الرسول وكذلك قوله تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين) فانهما متلازمان فكل من شاق الرسول من بعد ماتبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين وكل من اتبع غير سبيل المؤمنين فقد شاق الرسول من بعد ماتبين له الهدى فان كان يظن انه متبع سبيل المؤمنين وهو مخطئ فهو بمنزلة من ظن انه متبع للرسول وهو مخطئ .. وهذه الآية تدل على أن اجماع المؤمنين حجة من جهة ان مخالفتهم مستلزمة لمخالفة الرسول وان كل ماأجمعوا عليه فلابد أن يكون فيه نص عن الرسول فكل مسئلة يقطع فيها بالاجماع وبانتفاء المنازع من المؤمنين فانها مما بين الله فيه الهدي ومخالف مثل هذا الاجماع يكفر كما يكفر مخالف النص البين وأما اذا كان يظن الاجماع ولا يقطع به فهنا قد لا يقطع أيضا بانها مما تبين فيه الهدي من جهة الرسول ومخالف مثل هذا الاجماع قد لا يكفر بل قد يكون ظن الاجماع خطأ والصواب فى خلاف هذا القول وهذا هو فصل الخطاب فيما يكفر به من مخالفة الاجماع ومالا يكفر .. والاجماع هل هو قطعي الدلاله أو ظنى الدلالة فان من الناس من يطلق الاثبات بهذا أو هذا ومنهم من يطلق النفى لهذا ولهذا والصواب التفصيل بين مايقطع به من الاجماع ويعلم يقينا أنه ليس فيه منازع من المؤمنين أصلا فهذا يجب القطع بانه حق وهذا لابد أن يكون مما بين فيه الرسول الهدى كما قد بسط هذا فى موضع آخر ومن جهة انه اذا وصف الواجب بصفات متلازمة دل على أن كل صفة من تلك الصفات متى ظهرت وجب اتباعها وهذا مثل الصراط المستقيم الذى أمرنا الله بسؤال هدايته فانه قد وصف بانه الاسلام ووصف بانه اتباع القرآن ووصف بانه طاعة الله ورسوله ووصف بانه طريق العبودية ومعلوم أن كل اسم من هذه الاسماء يجب اتباع مسماه ومسماها كلها واحد وان تنوعت صفاته فاى صفة ظهرت وجب اتباع مدلولها فانه مدلول الاخري وكذلك أسماء الله تعالى

وأسماء كتابه وأسماء رسوله هي مثل أسماء دينه وكذلك قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا) حبل الله هو دين الاسلام وقيل القرآن وقيل عهده وقيل طاعته وأمره وقيل الجماعة المسلمون وكل هذا حق وكذلك اذا قلنا الكتاب والسنة والاجماع فمدلول الثلاث واحد فان كل ما في الكتاب فالرسول موافق له والامة مجمعة عليه من حيث الجملة فليس فى المؤمنين الا من يوجب اتباع الكتاب وكذلك كل ماسنه الرسول صلى الله عليه وسلم فالقرآن يأمر باتباعه فيه والمؤمنون مجمعون على ذلك وكذلك كل ماأجمع عليه المسلمون فانه لايكون الا حقا موافقاً لما فى الكتاب والسنة لكن المسلمون يتلقون دينهم كله عن الرسول وأما الرسول فينزل عليه وحي هو القرآن ووحي آخر هو الحكمة كما قال صلى الله عليه وسلم الا أني أوتيت الكتاب ومثله معه وقال حسان بن عطية كان جبريل ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالسنة فيعلمه اياها كما يعلمه القرآن فليس كل ماجاءت به السنة يجب أن يكون مفسراً فى القرآن بخلاف مايقوله أهل الاجماع فانه لا بد أن يدل عليه الكتاب والسنة فان الرسول هو الواسطة بينهم وبين الله فى أمره ونهيه وتحليله وتحريمه والمقصود ذكر الايمان .. ومن هذا الباب قول النبي صلى الله عليه وسلم لايبغض الانصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر وقوله آية الايمان حب الانصار وآية النفاق بغض الانصار فان من علم ماقامت به الانصار من نصر الله ورسوله من أول الامر وكان محباً لله ولرسوله أحبهم قطعا فيكون حبه لهم علامة الايمان الذي فى قلبه ومن أبغضهم لم يكن فى قلبه الايمان الذي أوجبه الله عليه وكذلك من لم يكن فى قلبه بغض مايبغضه الله ورسوله من المنكر الذي حرمه من الكفر والفسوق والعصيان لم يكن فى قلبه الايمان الذى يوجبه الله عليه فان من لم يكن مبغضاً لشئ من المحرمات أصلا لم يكن معه ايمان أصلا كما سنبينه ان شاء الله تعالى وكذلك من لا يحب لاخيه المؤمن مايحبه لنفسه لم يكن معه ماأوجب الله عليه من الايمان فحيث نفى الله الايمان عن شخص فلا يكون الا لنقص مايجب عليه من الايمان ويكون من المعرضين للوعيد ليس من المستحقين للوعد المطلق وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا كله من هذا الباب لا يقوله الا لمن ترك ماأوجب الله عليه أو فعل ماحرمه الله ورسوله فيكون قد ترك من الايمان المفروض عليه ماينفي عنه الاسم لاجله فلا يكون من المؤمنين المستحقين للوعد السالمين من الوعيد وكذلك قوله تعالى (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) فهذا حكم اسم الايمان اذا أطلق فى كلام الله ورسوله فانه يتناول فعل الواجبات وترك المحرمات ومن نفى الله ورسوله عنه الايمان فلا بد أن يكون قد ترك واجباً أو فعل محرما فلا يدخل فى الاسم الذى يستحق أهله الوعد دون الوعيد بل يكون من أهل الوعيد وكذلك قوله تعالى (حَبَّبَ اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق

والعصيان أولئك هم الراشدون .. قال محمد بن نصر المروزي لما كانت المعاصي بعضها كفر وبعضها ليس بكفر فرق بينها فجعلها ثلاثة أنواع منها كفر ونوع منها فسوق وليس بكفر ونوع عصيان وليس بكفر ولا فسوق وأخبر انه كرهها كلها الى المؤمنين ولما كانت الطاعات كلها داخلة فى الايمان وليس فيها شيء خارج عنه لم يفرق بينها فيقول حبب اليكم الايمان والفرائض وسائر الطاعات بل أجمل ذلك فقال حبب اليكم الايمان فدخل فى ذلك جميع الطاعات لانه قد حبب الى المؤمنين الصلاة والزكاة وسائر الطاعات حب تدين لان الله أخبر انه حبب ذلك اليهم وزينه فى قلوبهم كقوله (حبب اليكم الايمان) ويكرهون جميع المعاصى الكفر منها والفسوق وسائر المعاصى كراهة تدين لان الله أخبر انه كره ذلك اليهم ومن ذلك قول رسول الله رسول الله صلى الله عليه وسلم من سرته حسنته وساءته سيئته فو مؤمن لان الله حبب الى المؤمنين الحسنات وكره اليهم السيئات .. قلت وتكريه جميع المعاصى اليهم يستلزم حب جميع الطاعات لان ترك الطاعات معصية ولانه لايترك المعاصي كلها ان لم يتلبس بضدها فيكون محبا لضدها وهو الطاعة اذ القلب لابدله من ارادة فاذا كان يكره الشر كله فلابد أن يريد الخير . والمباح بالنية الحسنة يكون خيرا وبالنية السيئة يكون شرا ولا يكون فعل اختيارى الا بارادة ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح أحب الاسماء الى الله عبد الله وعبد الرحمن وأصدق الاسماء الحارث وهمام وأقبحها حرب ومرة فاصدق الاسماء الحارث وهمام لان كل انسان همام حارث والحارث الكاسب العامل والهمام الكثير الهم وهو مبدأ الارادة وهو حيوان وكل حيوان حساس متحرك بالارادة فاذا فعل شيئاً من المباحات فلابد له من غاية ينتهي اليها قصده وكل مقصود اما أن يقصد لنفسه واما أن يقصد لغيره فان كان منتهى مقصوده ومراده عبادة الله وحده لاشريك له وهو الهه الذى يعبده لايعبد شيئاً سواه وهو أحب اليه من كل ماسواه فان ارادته تنتهى الى ارادته وجه الله فيثاب على مباحاته التى يقصد الاستعانة بها على الطاعة كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال نفقة الرجل على أهله يحتسبها صدقة وفى الصحيحين عنه انه قال لسعد بن أبى وقاص لما مرض بمكة وعاده قال انك ان تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة ترفعها الى فى امرأتك وقال معاذ بن جبل لابى موسى انى أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي وفى الاثر نوم العالم تسبيح وان كان أصل مقصوده عبادة غير الله لم تكن الطيبات مباحة له فان الله انما أباحها للمؤمنين من عباده بل الكفار وأهل الجرائم والذنوب وأهل الشهوات يحاسبون يوم القيامة على نعم الله التي تنعموا بها فلم يشكروه ولم يعبدوه بها ويقال لهم (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) وقال تعالى (ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم) أى عن شكره والكافر لم يشكر على النعم الذى أنعم الله عليه به فيعاقبه على ذلك والله انما أباحها للمؤمنين وأمرهم معها بالشكر كما قال تعالى (كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله) وفى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله ليرضى عن العبد أن يأكل الاكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها وفى سنن ابن ماجه وغيره الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر وكذلك قال للرسل

(كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وقال تعالى (أحلت لكم بهيمة الانعام الا مايتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم) وقال الخليل (وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) قال الله تعالى (ومن كفر فامتعه قليلا ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير) فالخليل انما دعا بالطيبات للمؤمنين خاصة والله انما أباح بهيمة الانعام لمن حرم ماحرمه الله من الصيد وهو محرم والمؤمنون أمرهم أن يأكلوا من الطيبات ويشكروه ولهذا ميز سبحانه وتعالى بين خطاب الناس مطلقا وخطاب المؤمنين فقال (يأيها الناس كلوا مما فى الارض حلالا طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين انما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) فانما أذن للناس أن يأكلوا مما فى الارض بشرطين أن يكون طيباً وأن يكون حلالا ثم قال (يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقنا كم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) فاذن للمؤمنين في الاكل من الطيبات ولم يشترط الحل وأخبر انه لم يحرم عليهم الا ماذكره فما سواه لم يكن محرما على المؤمنين ومع هذا فلم يكن أحله بخطابه بل كان عفواً كما فى الحديث عن سلمان موقوفا ومرفوعا الحلال ماأحله الله فى كتابه والحرام ماحرمه الله فى كتابه وما سكت عنه فهو مما عفى عنه وفى حديث أبي ثعلبة عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم حرمات فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها وكذلك قوله تعالى (قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة) نفى التحريم عن غير المذكور فيكون الباقى مسكوتا عن تحريمه عفوا والتحليل انما يكون بخطاب ولهذا قال فى سورة المائدة التى أنزلت بعد هذا (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين الى قوله اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم) ففى ذلك اليوم أحل لهم الطيبات وقبل هذا لم يكن محرماً عليهم الا ما استثناه وقد حرم النبي صلى الله عليه وسلم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير ولم يكن هذا نسخاً للكتاب لان الكتاب لم يحل ذلك ولكن سكت عن تحريمه فكان تحريمه ابتداء شرع ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المروي من طرق من حديث أبى رافع وأبي ثعلبة وأبى هريرة وغيرهم لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الامر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول بيننا وبينكم هذا القرآن فما وجدنا فيه من حلال أحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ألا وانى أوتيت الكتاب ومثله معه وفى لفظ الا وانه مثل القرآن أوأكثر الاوانى حرمت كل ذى ناب من السباع فبين انه أنزل عليه وحي آخر وهو الحكمة غير الكتاب وان الله حرم عليه فى هذا الوحي ماأخبر بتحريمه ولم يكن ذلك نسخاً للكتاب فان الكتاب لم يحل هذه قط انما أحل الطيبات وهذه ليست من الطيبات وقال (يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم) فلم تدخل هذه الآية في العموم لكنه لم يكن حرمها فكانت معفواً عن تحريمها لامأذونا في أكلها وأما الكفار فلم يأذن الله لهم فى كل شئ ولا أحل لهم شيئاً ولا

عفالهم عن شئ يأكلونه بل قال (يأيها الناس كلوا مما فى الارض حلالا طيباً) فشرط فيما يأكلونه أن يكون حلالا وهو المأذون فيه من جهة الله ورسوله والله لم يأذن فى الاكل الا للمؤمن به فلم يأذن لهم في أكل شئ الا اذا آمنوا ولهذا لم تكن أموالهم مملوكة لهم ملكا شرعياً لان الملك الشرعي هو القدرة على التصرف الذى أباحه الشارع صلى الله عليه وسلم والشارع لم يبح لهم تصرفا فى الاموال الابشرط الايمان فكانت أموالهم على الاباحة فاذا قهر طائفة منهم طائفة قهراً يستحلونه في دينهم وأخذوها منهم صار هؤلاء فيها كما كان أولئك والمسلمون اذا استولوا عليها فغنموها ملكوها شرعا لان الله أباح لهم الغنائم ولم يبحها لغيرهم ويجوز لهم أن يعاملوا الكفار فيما أخذه بعضهم من بعض بالقهر الذي يستحلونه فى دينهم ويجوز أن يشترى من بعضهم ماسباه من غيره لان هذا بمنزلة استيلائه على المباحات ولهذا سمي الله ماعاد من أموالهم الى المسلمين فيئالان الله أفاءه الى مستحقه أى رده الى المؤمنين به الذين يعبدونه ويستعينون برزقه على عبادته فانه انما خلق الخلق ليعبدوه وانما خلق الرزق لهم ليستعينوا به على عبادته ولفظ الفئ قد يتناول الغنيمة كقول النبى صلى الله عليه وسلم في غنائم حنين ليس لي مما أفاء الله عليكم الا الخمس والخمس مردود عليكم لكنه لما قال تعالى (ما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) صار لفظ الفئ اذا أطلق فى عرف الفقهاء فهو ماأخذ من مال الكفار بغير ايجاف خيل ولا ركاب والايجاف نوع من التحريك . وأما اذا فعل المؤمن ماأبيح له قاصدا للعدول عن الحرام الي الحلال لحاجته اليه فانه يثاب على ذلك كما قال النبى صلى الله عليه وسلم وفى بضع أحدكم صدقة قالوا يارسول الله يأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال أرأيتم ان وضعها في حرام كان عليه فيها وزر فكذلك اذا وضعها فى الحلال كان له أجر وهذا كقوله في حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته رواه أحمد وابن خزيمة في صحيحه وغيرهما فاخبر أن الله يحب اتيان رخصه كما يكره فعل معصيته وبعض الفقهاء يرويه كما يحب أن تؤتى عزائمه وليس هذا لفظ الحديث وذلك لان الرخص انما أباحها الله لحاجة العباد اليها والمؤمنون يستعينون بها على عبادته فهو يحب الاخذ بها لان الكريم يحب قبول احسانه كما قال في حديث القصر صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته ولانه بها تتم عبادته وطاعته وأما مالايحتاج اليه الانسان من قول وعمل بل يفعله عبثافهذا عليه لاله كما فى الحديث كل كلام ابن آدم عليه لاله الا أمرا بمعروف أو نهياً عن منكر وذكر الله وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أوليصمت فامر المؤمن بأحد امرين اما قول الخير أو الصمات ولهذا كان قول الخير خيرا من السكوت عنه والسكوت عن الشر خيرا من قوله ولهذا قال تعالى (مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد) .. وقد اختلف هل يكتب جميع أقواله فقال مجاهد وغيره يكتبان كل شئ حتى أنينه فى مرضه وقال عكرمة لايكتبان الا مايؤجر عليه أو يوزر والقرآن يدل على أنهما يكتبان الجميع فانه قال مايلفظ من قول نكرة في الشرط مؤكدة بحرف من فهذا يعم كل قوله وأيضاً فكونه يؤجر على قول معين أو يوزر يحتاج الى أن يعرف

الكاتب مأمور به ومانهى عنه فلابد فى اثبات معرفة الكاتب به الى نقل وأيضاً فهو مأمور إمابقول الخير واما بالصمات فاذا عدل عما أمر به من الصمات الى فضول القول الذي ليس بخير كان هذا عليه فانه يكون مكروها والمكروه ينقصه ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه فاذا خاض فيما لايعنيه نقص من حسن اسلامه فكان هذا عليه اذ ليس من شرط ماهو عليه أن يكون عذاب جهنم وغضب الله بل نقص قدره ودرجته عليه ولهذا قال تعالى (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فما يعمل أحد الا عليه وله فان كان مما أمر به كان له والا كان عليه ولو أنه ينقص قدره والنفس طبعها الحركة لاتسكن قط لكن قد عفا الله عما حدث به المؤمنون أنفسهم مالم يتكلموا به أو يعملوا به فاذا عملوا به دخل فى الامر والنهي فاذا كان الله قد كره الى المؤمنين جميع المعاصى وهو قد حبب اليهم الايمان الذى يقتضى جميع الطاعات اذا لم يعارضه ضد باتفاق الناس فان المرجئة لا تنازع فى ان الايمان الذى فى القلب يدعو الى فعل الطاعة ويقتضى ذلك والطاعة من ثمراته ونتائجه لكنها تنازع هل يستلزم الطاعة فانه وان كان يدعو الى الطاعة فله معارض من النفس والشيطان فاذا كان قد كره الى المؤمنين المعارض كان المقتضى للطاعة سالماً عن هذا المعارض وأيضاً فاذا كرهوا جميع السيئات لم يبق الا حسنات أو مباحات والمباحات لم تبح الا لاهل الايمان الذين يستعينون بها على الطاعات والا فالله لم يبح قط لاحد شيئاً ان يستعين به على كفر ولا فسوق ولا عصيان ولهذا لعن النبي صلى الله عليه وسلم عاصر الخمر ومعتصرها كما لعن شاربها والعاصر يعصر عنباً يصير عصيرا يمكن ان ينتفع به في المباح لكن لما علم ان قصد العاصر ان يجعلها خمراً لم يكن له ان يعينه بما جنسه مباح على معصية الله بل لعنه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك لان الله لم يبح اعانة العاصى على معصيته ولا أباح له ما يستعين به فى المعصية فلا يكون مباحا لهم الا اذا استعانوا بها على الطاعات فيلزم من انتفاء السيئات انهم لايفعلون الا الحسنات ولهذا كان من ترك المعاصى كلها فلا بد ان يشتغل بطاعة الله وفي الحديث الصحيح كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها فالمؤمن لا بد ان يحب الحسنات ولا بد ان يبغض السيئات ولا بد ان يسره فعل الحسنة ويسوءه فعل السيئة ومتى قدر انه فى بعض الامور ليس كذلك كان ناقص الايمان والمؤمن قد تصدر منه السيئة فيتوب منها أو يأتي بحسنات تمحوها أو يبتلي ببلاء يكفرها عنه ولكن لابد أن يكون كارها لها فان الله أخبرانه حبب الى المؤمنين الايمان وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان فمن لم يكره الثلاثة لم يكن منهم ولكن محمد بن نصر يقول الفاسق يكرهها تديناً فيقال ان أريد بذلك أنه يعتقد ان دينه حرمها وهو يحب دينه وهذه من جملته فهو يكرهها وان كان يحب دينه مجملا وليس فى قلبه كراهة لها كان قد عدم من الايمان بقدر ذلك كما في الحديث الصحيح من رأى منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان وفى الحديث الآخر الذى فى الصحيح أيضاً صحيح مسلم فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الايمان مثقال حبة خردل . . فعلم ان القلب اذا لم يكن فيه كراهة مايكرهه الله لم يكن فيه من الايمان الذى يستحق به الثواب وقوله من الايمان أى من هذا الايمان وهو الايمان المطلق أى ليس وراء هذه

الثلاث ماهو من الايمان ولا قدر حبة خردل والمعنى هذا آخر حدود الايمان مابقي بعد هذا من الايمان شيء ليس مراده انه من لم يفعل ذلك لم يبق معه من الايمان شيء بل لفظ الحديث انما يدل على المعنى الاول

(فصل ومن هذا الباب) لفظ الكفر والنفاق فالكفر اذا ذكر مفردا فى وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون كقوله (ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين) وقوله (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) وقوله (لا يصلاها الا الاشقى الذى كذب وتولى) وقوله (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شيء ان أنتم الا في ضلال كبير) وقوله (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) وقوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوي للكافرين) وقوله (ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) وقوله (ان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية) وأمثال هذه النصوص كثير فى القرآن فهذه كلها يدخل فيها المنافقون الذين هم فى الباطن كفار ليس معهم من الايمان شيء كما يدخل فيها الكفار المظهرون للكفر بل المنافقون فى الدرك الاسفل من النار كما أخبر الله بذلك فى كتابه ثم قد يقرن الكفر بالنفاق فى مواضع ففى أول البقرة ذكر أربع آيات في صفة المؤمنين وآيتين فى صفة الكافرين وبضع عشرة آية فى صفة المنافقين فقال تعالى (ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً) وقال (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) الى قوله (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير) وقال (يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) فى سورتين وقال (ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا) الآية وكذلك لفظ المشركين قد يقرن بأهل الكتاب فقط وقد يقرن بالملل الخمس كما فى قوله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شيء شهيد) والاول كقوله (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) وقوله (ان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية) وقوله تعالى (وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين ءأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ) وليس أحد بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم الا من الذين أوتوا الكتاب والاميين وكل أمة لم تكن من الذين أوتوا الكتاب فهم من الاميين كالاميين من العرب ومن الخزر والصقالبة والهند والسودان

وغيرهم من الامم الذين لا كتاب لهم فهؤلاء كلهم أميون والرسول مبعوث اليهم كما بعث الى الاميين من العرب وقوله وقل للذين أوتوا الكتاب وهو انما يخاطب الموجودين في زمانه بعد النسخ والتبديل فدل على ان من دان بدين اليهود والنصارى فهو من الذين أوتوا الكتاب لايختص هذا اللفظ بمن كانوا متمسكين به قبل النسخ والتبديل ولا فرق بين أولادهم وأولاد غيرهم فان أولادهم اذا كانوا بعد النسخ والتبديل ممن أوتوا الكتاب فكذلك غيرهم اذا كانوا كلهم كفارا وقد جعلهم الذين أوتوا الكتاب بقوله وقل للذين أوتوا الكتاب وهو لايخاطب بذلك الا من بلغته رسالته لامن مات فدل ذلك على أن قوله وطعام الذين أوتوا الكتاب يتناول هؤلاء كلهم كما هو مذهب الجمهور من السلف والخلف وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وهو المنصوص عن أحمد في عامة أجوبته لم يختلف كلامه الا في نصارى بني تغلب وآخر الروايتين عنه انهم تباح نساؤهم وذبائحهم كما هو قول جمهور الصحابة وقوله فى الرواية الاخرى لاتباح متابعة لعلى بن أبي طالب رضى الله عنه لم يكن لاجل النسب بل لكونهم لم يدخلوا في دين أهل الكتاب الا فيما يشتهونه من شرب الخمر ونحوه ولكن بعض التابعين ظن ان ذلك لاجل النسب كما نقل عن عطاء وقال به الشافعى ومن وافقه من أصحاب أحمد وفرعوا على ذلك فروعا كمن كان أحد أبويه كتابيا والآخر ليس بكتابى ونحو ذلك حتى لايوجد فى طائفة من كتب أصحاب أحمد الا هذا القول وهو خطأ على مذهبه مخالف لنصوصه لم يعلق الحكم بالنسب في مثل هذا البتة كما قد بسط فى موضعه ولفظ المشركين يذكر مفردا في مثل قوله (ولا تنكحوا المشركات حتي يؤمن) وهل يتناول أهل الكتاب فيه قولان مشهوران للسلف والخلف والذين قالوا بأنها تعم منهم من قال هي محكمة كابن عمر والجمهور الذين يبيحون نكاح الكتابيات كما ذكره الله في آية المائدة وهي متأخرة عن هذه ومنهم من يقول نسخ منها تحريم نكاح الكتابيات ومنهم من يقول بل هو مخصوص لم يرد باللفظ العام وقد أنزل الله تعالى بعد صلح الحديبية قوله (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) وهذا قد يقال انما نهي عن التمسك بالعصمة من كان متزوجا كافرة ولم يكونوا حينئذ متزوجين الا بمشركة وثنية فلم يدخل في ذلك الكتابيات

❊ فصل ❊ وكذلك لفظ الصالح والشهيد والصديق يذكر مفردا فيتناول النبيين قال تعالى في حق الخليل (وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين) وقال (وآتيناه فى الدنيا حسنة وانه فى الآخرة لمن الصالحين) وقال الخليل (رب هب لي حكما وألحقنى بالصالحين) وقال يوسف (توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) وقال سليمان (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى فى الحديث الصحيح المتفق على صحته لما كانوا يقولون في آخر صلاتهم السلام على الله قبل عباده السلام على فلان فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ان الله هو السلام فاذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فاذا قالها أصابت كل عبد صالح لله فى السماء والارض الحديث وقد يذكر الصالح مع غيره كقوله تعالي (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) قال

الزجاج وغيره الصالح القائم بحقوق الله وحقوق عباده ولفظ الصالح خلاف الفاسد فاذا أطلق فهو الذى صلح جميع أمره فلم يكن فيه شئ من الفساد فاستوت سريرته وعلانيته وأقواله وأعماله على مايرضى ربه وهذا يتناول النبيين ومن دونهم ولفظ الصديق قد جعل هنا معطوفا على النبيين وقد وصف به النبيين فى مثل قوله (واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبياً • واذكر فى الكتاب إدريس انه كان صديقاً نبياً) وكذلك الشهيد قد جعل هنا قرين الصديق والصالح وقد قال (وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق) ولماقيدت الشهادة على الناس وصفت به الامة كلها في قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) فهذه شهادة مقيدة بالشهادة علي الناس كالشهادة المذكورة فى قوله (لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء) وقوله (واستشهدوا شاهدين من رجالكم) وليست هذه الشهادة المطلقة فى الآيتين ذلك كقوله (ويتخذ منكم شهداء)

﴿ فصل ﴾ وكذلك لفظ المعصية والفسوق والكفر فاذا أطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيه الكفر والفسوق كقوله (ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبداً) وقال تعالى (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد) وأطلق معصيته للرسل بانهم عصوا هوداً معصية تكذيب لجنس الرسل فكانت المعصية لجنس الرسل كمعصية من قال فكذبنا وقلنا مانزل الله من شئ ومعصية من كذب وتولى قال تعالى (لا يصلاها الا الاشقى الذى كذب وتولى) أي كذب بالخبر وتولى عن طاعة الامر وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال فى فرعون فكذب وعصى وقال عن جنس الكافر (فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولي) فالتكذيب للخبر والتولي عن الامر وانما الايمان تصديق الرسل فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله (كما أرسلنا الي فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول)ولفظ التولي بمعنى التولي عن الطاعة مذكور في مواضع من القرآن كقوله (ستدعون الي قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما) وذمه فى غيرموضع من القرآن من تولي دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الامر المطلق يقتضى وجوب الطاعة وذم التولي عن الطاعة كما علق الذم بمطلق المعصية فى مثل قوله (فعصي فرعون الرسول) وقد قيل ان التأبيد لم يذكر فى القرآن الا فى وعيد الكفار ولهذا (قال ومن يقتل موءمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) وقال فيمن يجور فى المواريث (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) فهنا قيد المعصية بتعدي حدوده فلم يذكرها مطلقة وقال (وعصى آدم ربه فغوي) فهي معصية خاصة وقال تعالي (حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم من بعد ماأراكم ماتحبون) فأخبر عن معصية واقعة معينة وهي معصية الرماة للنبي صلى الله عليه وسلم حيث أمرهم بلزوم ثغرهم وان رأوا المسلمين قد انتصروا فعصى من عصى منهم هذا الامر وجعل أميرهم يأمرهم لما رأوا الكفار منهزمين وأقبل من أقبل منهم على المغانم وكذلك قوله (وكره

اليكم الكفر والفسوق والعصيان) جعل ذلك ثلاث مراتب وقد قال (ولا يعصينك فى معروف) فقيد المعصية ولهذا فسرت بالنياحة قال ابن عباس وروي ذلك مرفوعا وكذلك قال زيد بن أسلم لا تدعن ويلا ولا تخدشن وجهاً ولا تنشرن شعراً ولا تشققن ثوبا وقد قال بعضهم هو جميع ما يأمرهم به الرسول من شرائع الاسلام وأدلته كما قاله أبو سليمان الدمشقى ولفظ الآية عام انهن لا يعصينه فى معروف ومعصيته لا تكون الا فى معروف فانه لا يأمر بمنكر لكن هذا كما قيل فيه دلالة على أن طاعة ولي الامر انما تلزم في المعروف كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال انما الطاعة فى المعروف ونظير هذا قوله (استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) وهو لا يدعو الا الى ذلك والتقييد هنا لا مفهوم له فانه لا يقع دعاء لغير ذلك ولا أمر بغير معروف وهذا كقوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصناً) فانهن اذا لم يردن تحصنا امتنع الاكراه ولكن في هذا بيان الوصف المناسب للحكم ومنه قوله تعالي (ومن يدع مع الله الهاً آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون) وقوله (ويقتلون النبيين بغير الحق) فالتقييد فى جميع هذا للبيان والايضاح لا لاخراج وصف آخر ولهذا يقول من يقول من النحاة الصفات فى المعارف للتوضيح لا للتخصيص وفى النكرات للتخصيص يعنى فى المعارف التى لا تحتاج الى تخصيص كقوله (سبح اسم ربك الاعلى الذى خلق فسوي) وقوله (الذين يتبعون الرسول النبيّ الاميّ الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل (وقوله الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) والصفات في النكرات اذا تميزت تكون للتوضيح أيضاً ومع هذا فقد عطف المعصية على الكفر والفسوق في قوله (وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان) ومعلوم أن الفاسق عاص أيضاً

﴿ فصل ﴾ ومن هذا الباب ظلم النفس فانه اذا أطلق تناول جميع الذنوب فانها ظلم العبد نفسه قال تعالى (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شئ لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب) وقال تعالى (واذ قال موسى لقومه ياقوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الي بارئكم) وقال فى قتل النفس (رب انى ظلمت نفسى فاغفرلي) وقالت بلقيس (رب اني ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) وقال آدم عليه السلام (ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) ثم قد يقرن ببعض الذنوب كقوله تعالى (والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم) وقوله (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) وأما لفظ الظلم المطلق فيدخل فيه الكفر وسائر الذنوب قال تعالى (أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم وقفوهم انهم مسؤلون) قال عمر بن الخطاب ونظراءهم وهذا ثابت عن عمر وروي ذلك عنه مرفوعا وكذلك قال ابن عباس وأشباههم وكذلك قال قتادة والكلبى كل من عمل بمثل عملهم فاهل الخمر مع أهل الخمر وأهل الزنا مع أهل الزنا وعن الضحاك ومقاتل قرناءهم من الشياطين كل كافر معه

شيطانه فى سلسلة وهذا كقوله (واذا النفوس زوجت) قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الفاجر مع الفاجر والصالح مع الصالح قال ابن عباس وذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة وقال الحسن وقتادة إلحق كل امرئ بشيعته اليهودى مع اليهود والنصرانى مع النصاري وقال الربيع بن خيثم يحشر المرء مع صاحب عمله وهذا كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم لما قيل له الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم قال المرء مع من أحب وقال الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وقال المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وزوج الشئ نظيره وسمى النصف زوجا لتشابه أفراده كقوله (أنبتنا فيها من كل زوج كريم) وقال (ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) قال غير واحد من المفسرين صنفين ونوعين مختلفين السماء والارض والشمس والقمر والليل والنهار والبر والبحر والسهل والجبل والشتاء والصيف والجن والانس والكفر والايمان والسعادة والشقاوة والحق والباطل والذكر والانثي والنور والظلمة والحلو والمر وأشباه ذلك لعلكم تذكرون فتعلمون أن خالق الازواج واحد وليس المراد انه يحشر معهم زوجاتهم مطلقاً فان المرأة الصالحة قد يكون زوجها فاجراً بل كافراً كامرأة فرعون وكذلك الرجل الصالح قد تكون امرأته فاجرة بل كافرة كامرأة نوح ولوط لكن ان كانت المرأة على دين زوجها دخلت فى عموم الازواج ولهذا قال الحسن البصرى وأزواجهم المشركات فلا ريب أن هذه الآية تناولت الكفار كما دل عليه سياق الآية وقد تقدم كلام المفسرين انه يدخل فيها الزناة مع الزناة وأهل الخمر مع أهل الخمر وكذلك الأثر المروى اذا كان يوم القيامة قيل أين الظلمة وأعوانهم أو قال أشباههم فيجمعون فى توابيت من نار ثم يقذف بهم في النار وقد قال غير واحد من السلف أعوان الظلمة من أعانهم ولو أنه لاق لهم دواة أو برى لهم قلماً ومنهم من كان يقول بل من يغسل ثيابهم من أعوانهم وأعوانهم هم من أزواجهم المذكورين فى الآية فان المعين على البر والتقوى من أهل ذلك والمعين على الاثم والعدوان من أهل ذاك قال تعالي (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها) والشافع الذي يعين غيره فيصير معه شفعا بعد ان كان وتراً ولهذا فسرت الشفاعة الحسنة باعانة المؤمنين على الجهاد والشفاعة السيئة باعانة الكفار على قتال المؤمنين كما ذكر ذلك ابن جرير وأبو سليمان وفسرت الشفاعة الحسنة بشفاعة الانسان للانسان ليجتلب له نفعاً أو يخلصه من بلاء كما قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد فالشفاعة الحسنة أعانته على خير يحبه الله ورسوله مع نفع من يستحق النفع ودفع الضر عمن يستحق دفع الضرر عنه والشفاعة السيئة إعانته على ما يكرهه الله ورسوله كالشفاعة التى فيها ظلم الانسان أو منع الاحسان الذى يستحقه وفسرت الشفاعة الحسنة بالدعاء للمؤمنين والسيئة بالدعاء عليهم وفسرت الشفاعة الحسنة بالاصلاح بين اثنين وكل هذا صحيح فالشافع زوج المشفوع له اذ المشفوع عنده من الخلق اما أن يعينه على بر وتقوى واما أن يعينه على إثم وعدوان وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا أتاه طالب حاجة قال لاصحابه اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ماشاء وتمام الكلام يبين أن الآية وان تناولت الظالم الذى ظلم بكفره فهي أيضاً متناولة مادون ذلك وان قيل فيها وما يعبدون فقد ثبت

في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش وثبت عنه في الصحيح أنه قال ما من صاحب كنز الا جعل له كنزه يوم القيامة شجاعا أقرع يأخذ بلهزمته أنا مالك أنا كنزك وفي لفظ الا مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع يفر منه وهو يتبعه حتى يطوقه في عنقه وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة) وفي حديث آخر مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع يتبع صاحبه حيث ماذهب وهو يفر منه هذا مالك الذى كنت تبخل به فاذا رأى أنه لابد له منه أدخل يده في فيه فيقضمها كما يقضم الفحل وفي رواية فلا يزال يتبعه فيلقمه يده فيقضمها ثم يلقمه سائر جسده وقد قال تعالي في الآية الاخرى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمي عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هـذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) وقد ثبت في الصحيح وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مامن صاحب كنز لايؤدي زكاته الا أحمى عليها في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوي بها جبينه وجنباه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ثم يري سبيله إما الي الجنة وإما الي النار في حديث أبي ذر بشر الكانزين برضف يحمى عليها في نار جهنم فتوضع على حلمة ثدى أحدهم حتى يخرج من نغض كتفيه ويوضع على نغض كتفيه حتي يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل وتكوي الجباه والجنوب والظهور حتى يلتقى الحر في أجوافهم وهـذا كما في القرآن ويدل على أنه بعد دخول النار فيكون هـذا لمن دخل النار ممن فعل به ذلك اولا في الموقف فهذا الظالم لما منع الزكوة يحشر مع اشباهه وماله الذى صار عبدالله من دون الله فيعذب به وان لم يكن هذا من اهل الشرك الاكبر الذين يخلدون في النار ولهذا قال في آخر الحديث ثم يرى سبيله اما الى الجنة وإما الى النار فهذا بعد تعذيبه خمسين الف سنه مما تعدون ثم يدخل الجنة .. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم الشرك في هذه الامة اخفى من دبيب النمل قال ابن عباس واصحابه كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق وكذلك قال اهل السنة كاحمد ابن حنبل وغيره كما سنذكره انشاء الله وقد قال الله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون) وفي حديث عدى بن حاتم وهو حديث حسن طويل رواه احمد والترمذى وغيرهما وكان قد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وهو نصراني فسمعه يقرأ هذه الآية قال فقلت له انا لسنا نعبدهم قال اليس يحرمون ما احل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه قال فقلت بلى قال فتلك عبادتهم وكذلك قال ابو البختري اما انهم لم يصلوا لهم ولو امروهم ان يعبدوهم من دون الله ما اطاعوهم ولكن امروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله فاطاعوهم فكانت تلك الربوبية وقال الربيع بن انس قلت لابي العالية كيف كانت تلك الربوبية في بني اسرائيل قال كانت الربوبية انهم وجدوا في كتاب الله ما امروا به ونهوا عنه فقالوا لن نسبق احبارنا بشيء فما امرونا به ائتمرنا وما نهونا عنه انتهينا لقولهم فاستنصحوا الرجال ونبذوا

كتاب الله وراء ظهورهم فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ان عبادتهم اياهم كانت فى تحليل الحرام وتحريم الحلال لا انهم صلوا لهم وصاموا لهم ودعوهم من دون الله فهذه عبادة للرجال وتلك عبادة للاموال قد بينها النبي صلى الله عليه وسلم وقد ذكر الله تعالى ان ذلك شرك بقوله (لا اله الا هو سبحانه عما يشركون) فهذا من الظلم الذي يدخل في قوله (احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله) فان هؤلاء الذين امروهم بهذا هم جميعاً معذبون وقال (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون) وانما يخرج من هذا من عبد مع كراهته لأن يعبد ويطاع فى معصية الله فهم الذين سبقت لهم الحسنى كالمسيح والعزير وغيرهما فاولئك مبعدون . . واما من رضى بان يعبد ويطاع فى معصية الله فهو مستحق للوعيد ولو لم يأمر بذلك فكيف اذا امر وكذلك من امر غيره بان يعبد غير الله وهذا من أزواجهم فان أزواجهم قد يكونون رؤساء لهم وقد يكونون اتباعاً لهم أزواج وأشباه لتشابههم في الدين وسياق الآية يدل على ذلك فانه سبحانه قال (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم) قال ابن عباس دلوهم وقال الضحاك مثله وقال ابن كيسان قدموهم والمعنى قودوهم كما يقود الهادي لمن يهديه ولهذا تسمي الاعناق الهوادى لانها تقود سائر البدن ويسمى أوائل الوحش الهوادي (وقفوهم انهم مسئولون مالكم لاتناصرون) أى كما كنتم تتناصرون في الدنيا على الباطل (بل هم اليوم مستسلمون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وماكان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين فحق علينا قول ربنا انا لذائقون فأغويناكم انا كنا غاوين فانهم يومئذ فى العذاب مشتركون انا كذلك نفعل بالمجرمين انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ويقولون أءنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) وقال تعالي (قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى اذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لاولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون)وقال تعالى (واذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد) وقال تعالى (ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لو لا أنتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدي بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا ان نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون) وقوله فى سياق الآية (انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون) ولا ريب انها تتناول المشركين الأصغر والاكبر وتتناول أيضاً من استكبر عما أمره الله به من طاعته فان ذلك من تحقيق قول لااله الا الله فان الاله هو المستحق للعبادة فكل مايعبد به الله فهو من تمام تأله العباد له فمن استكبر عن بعض عبادته

سامعاً مطيعاً فى ذلك لغـيره لم يحقق قول لا اله الا الله فى هـذا المقام وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم فى تحليل ماحرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين أحـدهما أن يعلموا انهـم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل فيعتقدون تحليل ماحرم الله وتحريم ماأحل الله اتباعا لرؤسائهم مع علمهم انهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر وقد جعله الله ورسوله شركا وان لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهـم فكان من اتبع غيره فى خلاف الدين مع علمه انه خـلاف الدين واعتقد ماقاله ذلك دون ماقاله الله ورسوله مشركا مثـل هؤلاء الثانى أن يكون اعتقادهم وايمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسـلم مايفعله من المعاصى التى يعتقد انها معاص فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب كما قد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسـلم أنه قال انمـا الطاعة فى المعروف وقال على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره مالم يؤمر بمعصية وقال لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق وقال ومن أمركم بمعصـية الله فلا تطيعوه ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام ان كان مجتهداً قصده اتباع الرسول لكن خفى عليـه الحق فى نفس الامر وقد اتقى الله ماستطاع فهذا لايؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه ولكن من علم أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطأه وعدل عن قول الرسول فهذا له نصيب من هـذا الشرك الذى ذمه الله لاسيما ان تبع فى ذلك هواه ونصره باللسان واليد مع علمه بانه مخالف للرسول فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه ولهذا اتفق العلماء على انه اذا عرف الحق لايجوز تقليد أحد في خلافه وانما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاسـتدلال وان كان عاجزاً عن اظهار الحق الذى يعلمه فهذا يكون كمن عرف أن دين الاسـلام حق وهو بين النصاري فاذا فعل مايقدر عليه من الحق لايؤاخذ بما عجز عنـه وهؤلاء كالنجاشى وغـيره وقد أنزل الله فى هؤلاء آيات من كتابه كقوله تعالي (وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم) وقوله (ومن قوم موسى أمة يهدون الى الحق وبه يعدلون) وقوله (واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ممـا عرفوا من الحق) وأما ان كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل مايقدر عليـه مثله من الاجتهاد فى التقليد فهذا لايؤاخذ ان أخطأ كما في القبـلة وأما ان قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق فهذا من أهل الجاهلية وان كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً وان كان متبوعه مخطئاً كان آثماً كمن قال فى القرآن برأيه فان أصاب فقد أخطأ وان أخطأ فليتبوأ مقعده من النار وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة فان ذلك لما أحب المال حباً منعه عن عبادة الله وطاعته صار عبداً له وكذلك هؤلاء فيكون فيه شرك أصغر ولهم من الوعيد بحسب ذلك وفى الحديث أن يسير الرياء شرك وهذا مبسوط عند النصوص التي فيها اطلاق الكفر والشرك علي كثير من الذنوب .. والمقصود هنا أن الظلم المطلق يتناول الكفر لايختص بالكفر بل يتناول مادونه أيضاً وكل بحسبه كلفظ الذنب والخطيئة والمعصية فان هـذا يتناول

الكفر والفسوق والعصيان كما في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قلت يارسول الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك قلت ثم أي قال ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أي قال ثم ان تزني بحليلة جارك فانزل الله تعالى ﴿ والذين لايدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا الا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً • ومن تاب وعمل صالحاً فانه يتوب الى الله متابا ﴾ فهذا الوعيد بتمامه على الثلاثة ولكل عمل قسط منه فلو أشرك ولم يقتل ولم يزن كان عذابه دون ذلك ولو زني وقتل ولم يشرك كان له من هذا العذاب نصيب كما فى قوله ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ﴾ ولم يذكر أبداً وقد قيل ان لفظ التأبيد لم يجئ الا مع الكفر وقال الله تعالى ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً ياويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا ﴾ فلا ريب أن هذا يتناول الكافر الذى لم يؤمن بالرسول •• وسبب نزول الآية كان في ذلك فان الظلم المطلق يتناول ذلك ويتناول ما دونه بحسبه فمن خال مخلوقا فى خلاف أمر الله ورسوله كان له من هذا الوعيد نصيب كما قال تعالي ﴿ الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين ﴾ وقال تعالى ﴿اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب ﴾ قال الفضيل ابن عياض حدثنا الليث عن مجاهدهي المودات التى كانت بينهم لغير الله فان المخالة تحاب وتوادد ولهذا قال المرء على دين خليله فان المتحابين يحب أحدهما مايحب الآخر بحسب الحب فاذا اتبع أحدهما صاحبه على محبته ما يبغضه الله ورسوله نقص من دينهما بحسب ذلك الى أن ينتهى الى الشرك الاكبر قال تعالى ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ والذين قدموا محبة المال الذى كنزوه والمخلوق الذي اتبعوه على محبة الله ورسوله كان فيهم من الظلم والشرك بحسب ذلك فلهذا ألزمهم محبوبهم كما فى الحديث يقول الله تعالى أليس عدلا مني أن أولى كل رجل منكم ما كان يتولاه فى الدنيا وقد ثبت فى الصحيح يقول ليذهب كل قوم الى ما كانوا يعبدون من كان يعبد الشمس الشمس ومن كان يعبد القمر القمر ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت ويمثل للنصارى المسيح وللبهود عزير فيتبع كل قوم ماكانوا يعبدون وتبقى هذه الامة فيها منافقوها كما سيأتى هذا الحديث ان شاء الله فهؤلاء أهل الشرك الاكبر •• وأما عبيد المال الذي كنزوه وعبيد الرجال الذين أطاعوهم فى معاصي الله فاولئك يعذبون عذابا دون عذاب أولئك المشركين إما فى عرصات القيامة وإما فى جهنم ومن أحب شيئاً دون الله عذب به وقال تعالي ﴿يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾ فالكفر المطلق هو الظلم المطلق ولهذا لاشفيع لاهله يوم القيامة كما نفى الشفاعة فى هذه الآية وفى قوله ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور﴾ وقال ﴿فكبكبوا فيها هم والغاوون

وجنود ابليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا الا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) وقوله نسويكم لم يريدوا به أنهم جعلوهم مساوين لله من كل وجه فان هذا لم يقله أحد من بني آدم ولا نقل عن قوم قط من الكفار انهم قالوا ان هذا العالم له خالقان متماثلان حتى المجوس القائلين بالاصلين النور والظلمة متفقون على أن النور خير يستحق أن يعبد ويحمد وأن الظلمة شريرة تستحق أن تذم وتلعن واختلفوا هل الظلمة محدثة أو قديمة على قولين وبكل حال لم يجعلوها مثل النور من كل وجه وكذلك مشركو العرب كانوا متفقين على أن أربابهم لم تشارك الله في خلق السموات والارض بل كانوا مقرين بان الله وحده خلق السموات والارض وما بينهما كما أخبر الله عنهم بذلك في غير آية كقوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأني يؤفكون الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ان الله بكل شئ عليم ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون) وقال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم الذى جعل لكم الارض مهادا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون والذي نزل من السماء ماء بقدر فانشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون والذى خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون) وهذه الصفات من كلام الله تعالى ليست من تمام جوابهم وقال تعالى (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله) الآيات وقال تعالى (قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ان كنتم صادقين بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وتنسون ما تشركون) وكذلك قوله (آلله خير أما تشركون أمّن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون أم من جعل الارض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله) أي اله مع الله فعل هذا وهذا استفهام انكار وهم مقرون بانه لم يفعل هذا إله آخر مع الله ومن قال من المفسرين ان المراد هل مع الله إله آخر فقد غلط فانهم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخري كما قال تعالى (قل أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخري قل لا أشهد) وقال تعالى (فما أغنت عنهم آلهتهم الذين يدعون من دون الله من شئ) وقال تعالى عنهم (أجعل الآلهة الهاً واحداً ان هذا لشئ عجاب) وكانوا معترفين بان آلهتهم لم تشارك الله فى خلق السموات والارض ولا خلق شئ بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط كما قال تعالى (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ومالا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقال عن صاحب يس (ومالي لا أعبد الذي فطرنى واليه ترجعون ءأتخذوا من دونه آلهة إن يردني الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون)

وقال تعالى ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾ وقال تعالى ﴿ الله الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ وقال ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولاتنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له ﴾ فنفى عما سواه كل مايتعلق به المشركون فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك أو يكون عونا لله ولم يبق الا الشفاعة فبين انها لاتنفع الا لمن أذن له الرب كما قال تعالى ﴿ من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه ﴾ وقال تعالى عن الملائكة ﴿ ولا يشفعون الا لمن ارتضى ﴾ وقال ﴿ وكم من ملك فى السموات لاتغني شفاعتهم شيئاً الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ فهذه الشفاعة التى يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاه القرآن وأماما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم أنه يكون فأخبر انه يأتي فيسجد لربه ويحمده لايبدأ بالشفاعة أولا فاذا سجد وحمد ربه بمحامد يفتحها عليه يقال له أي محمد إرفع رأسك وقل تسمع وسل تعط واشفع تشفع فيقول أي رب أمتى فيحد له حدا فيدخلهم الجنة وكذلك فى الثانية وكذلك فى الثالثة قال أبو هريرة من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة قال من قال لاإله الا الله خالصاً من قلبه فتلك الشفاعة هي لأهل الاخلاص باذن الله ليست لمن أشرك بالله ولا تكون الا باذن الله .. وحقيقته ان الله هو الذى يتفضل على أهل الاخلاص والتوحيد فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذى أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك وينال المقام المحمود الذي يغبطه به الاولون والآخرون صلى الله عليه وسلم كما كان فى الدنيا يستسقى لهم ويدعو لهم وتلك شفاعة منه لهم فكان الله يجيب دعاءه وشفاعته .. واذا كان كذلك فالظلم ثلاثة أنواع فالظلم الذى هو شرك لاشفاعة فيه وظلم الناس بعضهم بعضاً لابد فيه من إعطاء المظلوم حقه لايسقط حق المظلوم لابشفاعة ولا غيرها ولكن قد يعطى المظلوم من الظالم كما قد يغفر للظالم نفسه بالشفاعة فالظالم المطلق ماله من شفيع مطاع وأما الموحد فلم يكن ظالماً مطلقاً بل هو موحد مع ظلمه لنفسه وهذا انما نفعه فى الحقيقة اخلاصه لله فبه صار من أهل الشفاعة ومقصود القرآن بنفى الشفاعة نفى الشرك وهو ان أحدا لايعبد الا الله ولا يدعو غيره ولا يسأل غيره ولا يتوكل على غيره لافى شفاعة ولا غيرها فليس له أن يتوكل على أحد في أن يرزقه وان كان الله يأتيه برزقه باسباب كذلك ليس له أن يتوكل على غير الله فى أن يغفر له ويرحمه في الآخرة وان كان الله يغفر له ويرحمه بأسباب من شفاعة وغيرها فالشفاعة التى نفاها القرآن مطلقا كان فيها شرك وتلك منتفية مطلقا ولهذا أثبت الشفاعة باذنه في مواضع وتلك قد بين الرسول صلى الله عليه وسلم انها لاتكون الالاهل التوحيد والاخلاص فهي من التوحيد ومستحقها أهل التوحيد .. وأما الظلم المقيد فقد يختص بظلم الانسان نفسه وظلم الناس بعضهم بعضاً كقول آدم عليه السلام وحواء ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ وقول موسى ﴿ رب اني ظلمت نفسى ﴾ وقوله تعالى ﴿ والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ لكن قول آدم وموسى اخبار عن واقع لاعموم فيه وذلك قد عرف ولله الحمد

انه ليس كفراً وأما قوله (والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم) فهو نكرة في سياق الشرط يعم كل ما فيه ظلم الانسان نفسه وهو اذا أشرك ثم تاب تاب الله عليه وقد تقدم ان ظلم الانسان لنفسه يدخل فيه كل ذنب كبير أو صغير مع الاطلاق وقال تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) فهذا ظلم لنفسه مقرون بغيره فلا يدخل فيه الشرك الاكبر وفي الصحيحين عن ابن مسعود انه لما أنزلت هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا أينا لم يظلم نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم انما هو الشرك ألم تسمعوا الى قول العبد الصالح ان الشرك لظلم عظيم والذين شق ذلك عليهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه وأنه لايكون الأمن والاهتداء الا لمن لم يظلم نفسه فشق ذلك عليهم فبين النبي صلى الله عليه وسلم لهم مادلهم على ان الشرك ظلم في كتاب الله تعالى وحينئذ فلا يحصل الامن والاهتداء الا لمن لم يلبس ايمانه بهذا الظلم ومن لم يلبس ايمانه به كان من أهل الامن والاهتداء كما كان من أهل الاصطفاء في قوله (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا الى قوله جنات عدن يدخلونها) وهذا لاينفي أن يؤاخذ أحدهم بظلم نفسه اذا لم يتب كما قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وقال تعالى (من يعمل سوءاً يجز به) وقد سأل أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال يارسول الله وأينا لم يعمل سوءاً فقال ياأبا بكر ألست تنصب ألست تحزن ألست تصيبك اللأواء فذلك ما تجزون منه فبين ان المؤمن الذى اذا تاب دخل الجنة قد يجزى بسيئاته فى في الدنيا بالمصائب التى تصيبه كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تقومها تارة وتميلها أخرى ومثل المنافق كمثل شجرة الارز لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولاهم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر بها من خطاياه وفى حديث سعد بن أبى وقاص قلت يارسول الله أى الناس أشد بلاء قال الانبياء ثم الصالحون ثم الامثل فالامثل يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان في دينه صلابة زيد في بلائه وان كان فى دينه رقة خفف عنه ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على الارض وليس عليه خطيئة رواه أحمد والترمذى وغيرهما وقال المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها والاحاديث فى هذا الباب كثيرة فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة كان له الامن التام والاهتداء التام ومن لم يسلم من ظلمه نفسه كان له الامن والاهتداء مطلقاً بمعنى انه لابد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك فى الآية الأخري وقد هداه الي الصراط المستقيم الذى تكون عاقبته فيه الى الجنة ويحصل له من نقص الامن والاهتداء بحسب مانقص من ايمانه بظلمه نفسه وليس مراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله انما هو الشرك أن من لم يشرك الشرك الاكبر يكون له الامن التام والاهتداء التام فان أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين ان أهل الكبائر معرضون للخوف لم يحصل لهم الامن التام ولا الاهتداء التام الذى يكونون به مهتدين الى الصراط

المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذاب يحصل لهم بل معهم أصل الاهتداء الى هذا الصراط ومعهم أصل نعمة الله عليهم ولا بد لهم من دخول الجنة وقول النبي صلى الله عليه وسلم انما هو الشرك ان أراد به الشرك الاكبر فمقصوده ان من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة وهو مهتد الى ذلك وان كان مراده جنس الشرك فيقال ظلم العبد نفسه كبخله لحب المال ببعض الواجب هو شرك أصغر وحبه ما يبغضه الله حتى يكون يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ونحو ذلك فهذا صاحبه فاته من الامن والاهتداء بحسبه ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب فى هذا الظلم بهذا الاعتبار

(فصل ومن هـذا الباب) لفظ الصلاح والفساد فاذا أطلق الصلاح تناول جميع الخير وكذلك الفساد يتناول جميع الشر كما تقدم في اسم الصالح وكذلك اسم المصلح والمفسد قال تعالى في قصة موسى (أتريد ان تقتلني كما قتلت نفساً بالامس ان تريد الا أن تكون جبارا في الارض وما تريد ان تكون من المصلحين • وقال موسي لاخيه هارون اخلفنى في قومى واصلح ولاتتبع سبيل المفسدين) وقال تعالي (واذا قيل لهم لاتفسدوا فى الارض قالوا انما نحن مصلحون الا انهم هم المفسدون ولكن لايشعرون) والضمير عائد على المنافقين في قوله (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) وهذا مطلق يتناول من كان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ومن سيكون بعدهم ولهذا قال سلمان الفارسى انه عنى بهذه الآية قوم لم يكونوا خلقوا حين نزولها وكذا قال السدى عن أشياخه الفساد الكفر والمعاصى وعن مجاهد ترك امتثال الاوامر واجتناب النواهي والقولان معناهما واحد وعن ابن عباس الكفر وهذا معنى قول من قال النفاق الذى صافوا به الكفار وأطلعوهم على أسرار المؤمنين وعن أبي العالية ومقاتل العمل بالمعاصي وهذا أيضاً عام كالاولين وقولهم انما نحن مصلحون فسر بانكار ما قرفوا به أى إنا انما نفعل ما أمرنا به الرسول وفسر بان الذى نفعله صلاح ونقصد به الصلاح وكلا القولين يروى عن ابن عباس وكلاهما حق فانهم يقولون هذا وهذا يقولون الاول لمن لم يطلع على بواطنهم ويقولون الثانى لانفسهم ولمن اطلع على بواطنهم لكن الثانى يتناول الاول فان من جملة أفعالهم أسرار خلاف ما يظهرون وهم يرون هذا صلاحا قال مجاهد أرادوا ان مصافاة الكفار صلاح لافساد وعن السدى ان فعلنا هذا هو الصلاح وتصديق محمد فساد وقيل أرادوا ان هذا صلاح فى الدنيا فان الدولة ان كانت للنبي صلى الله عليه وسلم فقد أمنوا بمتابعته وان كانت للكفار فقد أمنوهم بمصافاتهم ولاجل القولين قيل فى قوله (ألا انهم هم المفسدون ولكن لايشعرون) أى لايشعرون ان ما فعلوه فساد لاصلاح وقيل لايشعرون ان الله يطلع نبيه على فسادهم والقول الاول يتناول الثاني فهو المراد كما يدل عليه لفظ الآية وقال تعالى (ان ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) وقال (قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لايصلح عمل المفسدين) وقول يوسف (توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين) وقد يقرن أحدهما بما هو أخص منه كقوله (واذا تولى سعي في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد)

قيل بالكفر وقيل بالظلم وكلاهما صحيح وقال تعالى (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الارض ولا فسادا) وقد تقدم قوله تعالى (ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين) وقال تعالى (من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الارض فكأنما قتل الناس جميعاً) وقتل النفس الاول من جملة الفساد لكن الحق فى القتل لولي المقتول وفي الردة والمحاربة والزنا الحق فيها لعموم الناس ولهذا يقال هو حق لله ولهذا لايعفي عن هذا كما يعفى عن الاول بأن فساده عام قال تعالي (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف) الآية وقيل سبب نزول هذه الآية العرنيون الذين ارتدوا وقتلوا وأخذوا المال وقيل سببه ناس معاهدون نقضوا العهد وحاربوا وقيل المشركون فقد قرن بالمرتدين وناقضى العهد المحاربين وجمهور السلف والخلف على أنها تتناول قطاع الطريق من المسلمين والآية تتناول ذلك كله ولهذا كان من تاب قبل القدرة عليه من جميع هؤلاء فانه يسقط عنه حد الله تعالي وقرن الصلاح والاصلاح بالايمان فى مواضع كثيرة كقوله تعالي (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون) ومعلوم ان الايمان أفضل الاصلاح وأفضل العمل الصالح كما جاء في الحديث الصحيح أنه قيل يارسول الله أى الاعمال أفضل قال ايمان بالله وقال تعالي (واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وقال (الا من تاب وآمن وعمل صالحاً فاولئك يدخلون الجنة) وقال (الا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) وقال فى القذف (الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم) وقال فى السارق (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه) وقال (واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فاعرضوا عنهما) ولهذا شرط الفقهاء في أحد قوليهم فى قبول شهادة القاذف أن يصلح وقدروا ذلك بسنة كما فعل عمر بصبيغ بن عسل لما أجله سنة وبذلك أخذ أحمد فى توبة الداعي الى البدعة انه يؤجل سنة كما أجل عمر صبيغ بن عسل

﴿ فصل ﴾ فان قيل ماذكر من تنوع دلالة اللفظ بالاطلاق والتقييد فى كلام الله ورسوله وكلام كل أحد بين ظاهر لا يمكن دفعه لكن نقول دلالة لفظ الايمان على الاعمال مجاز فقوله صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لااله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق مجاز وقوله الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله الى آخره حقيقة وهذا عمدة المرجئة والجهمية والكرامية وكل من لم يدخل الاعمال فى اسم الايمان .. ونحن نجيب بجوابين أحدهما كلام عام في لفظ الحقيقة والمجاز والثاني مايختص بهذا الموضع فبتقدير أن يكون أحدهما مجازا ماهو الحقيقة من ذلك من المجاز هل الحقيقة هو المطلق أو المقيد أو كلاهما حقيقة حتى يعرف أن لفظ الايمان اذا أطلق على ماذا يحمل .. فيقال أولا تقسيم الالفاظ الدالة على معانيها الي حقيقة ومجاز وتقسيم دلالتها أو المعانى المدلول عليها ان استعمل لفظ الحقيقة والمجاز فى المدلول أو فى الدلالة فان هذا كله قد يقع في كلام المتأخرين

ولكن المشهور أن الحقيقة والمجاز من عوارض الالفاظ وبكل حال فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة لم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم باحسان ولا أحد من الائمة المشهورين في العلم كمالك والثورى والاوزاعي وأبي حنيفة والشافعي بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو كالخليل وسيبويه وأبي عمرو بن العلاء ونحوهم وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر ابن المثنى فى كتابه ولكن لم يعن بالمجاز ماهو قسيم الحقيقة وانما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية ٠٠ ولهذا قال من قال من الاصوليين كابى الحسن البصرى وأمثاله أنه يعرف الحقيقة من المجاز بطرق منها نص أهل اللغة على ذلك بان يقولوا هذا حقيقة وهذا مجاز فقد تكلم بلا علم فانه ظن أن أهل اللغة قالوا هذا ولم يقل ذلك أحد من أهل اللغة ولا من سلف الامة وعلمائها وانما هذا اصطلاح حادث والغالب انه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين فانه لم يوجد هذا فى كلام أحد من أهل الفقه والاصول والتفسير والحديث ونحوهم من السلف وهذا الشافعي هو أول من جرد الكلام فى أصول الفقه لم يقسم هذا التقسيم ولا تكلم بلفظ الحقيقة والمجاز وكذلك محمد بن الحسن له فى المسائل المبنية على العربية كلام معروف فى الجامع الكبير وغيره ولم يتكلم بلفظ الحقيقة والمجاز وكذلك سائر الأئمة لم يوجد لفظ المجاز فى كلام أحد منهم الا فى كلام أحمد بن حنبل فانه قال فى كتاب الرد على الجهمية فى قوله انا ونحن ونحو ذلك في القرآن هذا من مجاز اللغة يقول الرجل انا سنعطيك انا سنفعل فذكر ان هذا من مجاز اللغة وبهذا احتج على مذهبه من أصحابه من قال ان فى القرآن مجازاً كالقاضى أبي يعلى وابن عقيل وأبى الخطاب وغيرهم وآخرون من أصحابه منعوا أن يكون في القرآن مجاز كأبى الحسن الجزري وأبي عبد الله بن حامد وأبي الفضل التميمى بن أبي الحسن التميمى وكذلك منع أن يكون في القرآن مجاز محمد بن جرير منداد (١) وغيره من المالكية ومنع منه داود بن على وابنه أبو بكر ومنذر بن سعيد البلوطى وصنف فيه مصنفا وحكي بعض الناس عن أحمد فى ذلك روايتين وأما سائر الأئمة فلم يقل أحد منهم ولا من قدماء أصحاب أحمد ان فى القرآن مجازاً لامالك ولا الشافعي ولا أبو حنيفة فان تقسيم الالفاظ الى حقيقة ومجاز انما اشتهر فى المائة الرابعة وظهرت أوائله فى المائة الثالثة وما علمته موجودا فى المائة الثانية اللهم الا أن يكون فى أواخرها والذين أنكروا أن يكون أحمد أو غيره نطقوا بهذا التقسيم قالوا ان معنى قول أحمد من مجاز اللغة أى مما يجوز فى اللغة أى يجوز في اللغة أن يقول الواحد العظيم الذى له أعوان نحن فعلنا كذا ونفعل كذا ونحو ذلك قالوا ولم يرد أحمد بذلك ان اللفظ استعمل فى غير ماوضع له ٠٠ وقد أنكر طائفة أن يكون في اللغة مجاز لافي القرآن ولا غيره كأبي اسحاق الاسفرائينى ٠٠ وقال المنازعون له النزاع معه لفظي فانه اذا سلم في اللغة لفظا مستعملا فى غير ماوضع له لايدل على معناه الا بقرينة فهذا هو المجاز وان لم تسمه مجازا فيقول من ينصره ان الذين قسموا اللفظ الى حقيقة ومجاز قالوا الحقيقة هو اللفظ المستعمل فى ماوضع له والمجاز هو اللفظ المستعمل في غير ماوضع له كلفظ الاسد

---

(١) هكذا فى أصل الكتاب

والحمار اذا أريد بهما البهيمة أو أريد بهما الشجاع والبليد وهذا التقسيم والتحديد يستلزم أن يكون اللفظ قد وضع أولا لمعنى ثم بعد ذلك قد يستعمل فى موضوعه وقد يستعمل فى غير موضوعه ولهذا كان المشهور عند أهل التقسيم أن كل مجاز فلا بد له من حقيقة وليس لكل حقيقة مجاز فاعترض عليهم بعض متأخريهم وقال اللفظ الموضوع قبل الاستعمال لاحقيقة ولا مجاز فاذا استعمل في غير موضوعه فهو مجاز لاحقيقة له وهذا كله انما يصح ان لو علم ان الالفاظ العربية وضعت أولا لمعان ثم بعد ذلك استعملت فيها فيكون لها وضع متقدم على الاستعمال وهذا انما صح على قول من يجعل اللغات اصطلاحية فيدعى ان قوما من العقلاء اجتمعوا واصطلحوا على أن يسموا هذا بكذا وهذا بكذا ويجعل هذا عاما في جميع اللغات وهذا القول لانعرف أحدا من المسلمين قاله قبل أبي هاشم بن الجبائي فانه وأبا الحسن الاشعري وكلاهما قرأ على أبى على الجبائى لكن الاشعري رجع عن مذهب المعتزلة وخالفهم فى القدر والوعيد وفى الاسماء والاحكام وفى صفات الله تعالى وبين من تناقضهم وفساد قولهم ماهو معروف عنه فتنازع الاشعري وأبو هاشم في مبدأ اللغات فقال أبو هاشم هي اصطلاحية وقال الاشعري هي توقيفية ثم خاض الناس بعدهما فى هذه المسئلة فقال آخرون بعضها توقيفى وبعضها اصطلاحي وقال فريق رابع بالوقف .. والمقصود هنا انه لايمكن أحدا أن ينقل عن العرب بل ولا عن أمة من الامم انه اجتمع جماعة فوضعوا جميع هذه الاسماء الموجودة في اللغة ثم استعملوها بعد الوضع وانما المعروف المنقول بالتواتر استعمال هذه الالفاظ فيما عنوه بها من المعانى فان ادعى مدع أنه يعلم وضعاً يتقدم ذلك فهو مبطل فان هذا لم ينقله أحد من الناس ولا يقال نحن نعلم ذلك بالدليل فانه ان لم يكن اصطلاح متقدم لم يمكن الاستعمال .. قيل ليس الامر كذلك بل نحن نجد ان الله يلهم الحيوان من الاصوات مابه يعرف بعضها مراد بعض وقد سمى ذلك منطقا وقولا فى قول سليمان (علمنا منطق الطير) وفى قوله (قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم) وفى قوله (ياجبال أوبي معه والطير) وكذلك الآدميون فالمولود اذا ظهر منه التمييز سمع أبويه أو من يربيه ينطق باللفظ ويشير الى المعنى فصار يفهم ان ذلك اللفظ يستعمل فى ذلك المعنى أي أراد المتكلم به ذلك المعنى ثم هذا يسمع لفظا بعد لفظ حتي يعرف لغة القوم الذين نشأ بينهم من غير أن يكونوا قد اصطلحوا معه على وضع متقدم بل ولا أوقفوه على معانى الاسماء وان كان أحيانا قد يسأل عن مسمى بعض الاشياء فيوقف عليها كما يترجم للرجل اللغة التى لايعرفها فيوقف على معانى ألفاظها وان باشر أهلها مدة علم ذلك بلا توقيف من أحدهم نعم قد يضع الناس الاسم لما يحدث مما لم يكن من قبلهم يعرفه فيسميه اسما اما منقولا واما مرتجلا وقد يكون المسمي واحدا لم يصطلح مع غيره وقد يستوون فيما يسمونه وكذلك قد يحدث للرجل آلة من صناعة أو يصنف كتابا أو يبني مدينة ونحو ذلك فيسميه باسم لانه ليس من الاجناس المعروفة حتى يكون له اسم في اللغة العامة وقد قال الله تعالى (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان . وقالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ) وقال (والذى خلق فسوى والذي قدر فهدى) فهو سبحانه يلهم الانسان المنطق كما يلهم غيره وهو سبحانه اذا كان قد علم آدم الاسماء كلها

وعرض المسميات على الملائكة كما أخبر بذلك فى كتابه فنحن نعلم أنه لم يعلم آدم جميع اللغات التى يتكلم بها جميع الناس الى يوم القيامة وان تلك اللغات اتصلت الى أولاده فلا يتكلمون الا بها فان دعوى هذا كذب ظاهر فان آدم عليه السلام انما ينقل عنه بنوه وقد أغرق الله عام الطوفان جميع ذريته الا من فى السفينة وأهل السفينة انقطعت ذريتهم الا أولاد نوح ولم يكونوا يتكلمون بجميع ماتكلمت به الامم بعدهم فان اللغة الواحدة كالفارسية والعربية والرومية والتركية فيها من الاختلاف والانواع مالا يحصيه الا الله والعرب أنفسهم لكل قوم لغات لا يفهمها غيرهم فكيف يتصور أن ينقل هذا جميعه عن أولئك الذين كانوا في السفينة وأولئك جميعهم لم يكن لهم نسل وانما النسل لنوح وجميع الناس من أولاده وهم ثلاثة سام وحام ويافث كما قال تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) فلم يجعل باقياً الا ذريته وكما روي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أولاده ثلاثة رواه أحمد وغيره ومعلوم أن الثلاثة لا يمكن أن ينطقوا بهذا كله ويمتنع نقل ذلك عنهم فان الذين يعرفون هذه اللغة لايعرفون هذه واذا كان الناقل ثلاثة فهم قد علموا أولادهم وأولادهم علموا أولادهم ولو كان كذلك لاتصلت ونحن نجد بنى الاب الواحد يتكلم كل قبيلة منهم بلغة لا تعرفها الاخرى والاب الواحد لايقال انه علم أحد ابنيه لغة وابنه الآخر لغة فان الاب قد لا يكون له الا ابنان واللغات فى أولاده أضعاف ذلك والذى أجرى الله عليه عادة بنى آدم انهم انما يعلمون أولادهم لغتهم التى يخاطبونهم بها أو يخاطبهم بها غيرهم فاما لغات لم يخلق الله من يتكلم بها فلا يعلمونها أولادهم وأيضاً فانه يوجد بنو آدم يتكلمون بالفاظ ماسمعوها قط من غيرهم والعلماء من المفسرين وغيرهم لهم فى الاسماء التى علمها آدم قولان معروفان عن السلف . . أحدهما انه انما علمه أسماء من يعقل واحتجوا بقوله (ثم عرضهم على الملائكة) قالوا وهذا الضمير لايكون الا لمن يعقل ومالا يعقل يقال فيها علمها ولهذا قال أبو العالية علمه أسماء الملائكة لانه لم يكن حينئذ من يعقل الا الملائكة ولا كان ابليس قد انفصل عن الملائكة ولا كان له ذرية وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم علمه أسماء ذريته وهذا يناسب الحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن آدم سأل ربه أن يريه صور الانبياء من ذريته فرآهم فرأى فيهم من يبص فقال يارب من هذا قال ابنك داود فيكون قد أراه صور ذريته أو بعضهم وأسماءهم وهذه أسماء أعلام لا أجناس . . والثاني ان الله علمه أسماء كل شئ وهذا قول الاكثرين كابن عباس وأصحابه قال ابن عباس علمه حتى الفسوة والفسية والقصعة والقصيعة أراد أسماء الاعراض والاعيان مكبرها ومصغرها والدليل على ذلك ماثبت فى الصحيح عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال في حديث الشفاعة ان الناس يقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وعلمك أسماء كل شئ وأيضاً قوله الاسماء كلها لفظ عام مؤكد فلا يجوز تخصيصه بالدعوى وقوله ثم عرضهم على الملائكة لانه اجتمع من يعقل ومن لايعقل فغلب من يعقل كما قال (فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع) قال عكرمة علمه أسماء الاجناس دون أنواعها كقولك انسان وجن وملك وطائر وقال مقاتل وابن السائب وابن قتيبة علمه أسماء ماخلق

في الارض من الدواب والهوام والطير ومما يدل على أن هـذه اللغات ليست متلقاة عن آدم ان أكثر اللغات ناقصة عن اللغة العربية ليس عندهم أسماء خاصة للاولاد والبيوت والاصوات وغير ذلك مما يضاف الي الحيوان بل انما يستعملون في ذلك الاضافة فلو كان آدم عليه السلام علمه الجميع لعلمها متناسبة وأيضاً فكل أمة ليس لها كتاب ليس في لغتها أيام الأسبوع وانما يوجد فى لغتها اسم اليوم والشهر والسنة لان ذلك عرف بالحس والعقل فوضعت له الامم الأسماء لان التعبير يتبع التصور وأما الأسبوع فلم يعرف الا بالسمع لم يعرف أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الا بأخبار الأنبياء الذين شرع لهم أن يجتمعوا فى الأسبوع يوماً يعبدون الله فيه ويحفظون به الأسبوع الأول الذي بدأ الله فيه خلق هذا العالم ففى لغة العرب والعبرانيين ومن تلقى عنهم أيام الاسبوع بخلاف الترك ونحوهم فانه ليس فى لغتهم أيام الأسبوع لانهم لم يعرفوا ذلك فلم يعبروا عنه فعلم أن الله ألهم النوع الانسانى أن يعبر عما يريده ويتصوره بلفظه وأن أول من علم ذلك أبوهم آدم وهم علموا كما علم وان اختلفت اللغات وقد أوحى الله الى موسى بالعبرانية والى محمد بالعربيـة والجميع كلام الله وقد بين الله من ذلك ما أراد من خلقه وأمره وان كانت هذه اللغة ليست الأخرى مع أن العبرانية من أقرب اللغات الى العربية حتي انها أقرب اليها من لغة بعض العجم الى بعض .. فبالجملة نحن ليس غرضنا اقامة الدليل على عدم ذلك بل يكفينا أن يقال هذا غير معلوم وجوده بل الالهام كاف فى النطق باللغات من غير مواضعة متقدمة واذا سمي هـذا توقيفاً فليسم توقيفاً وحينئذ فمن ادعى وضعاً متقدماً على استعمال جميع الاجناس فقد قال مالا علم له به وانما المعلوم بلا ريب هو الاستعمال ثم هؤلاء يقولون تميز الحقيقة من المجاز بالا كتفاء باللفظ فاذا دل اللفظ بمجرده فهو حقيقة واذا لم يدل الامع القرينة فهو مجاز وهذا أمر متعلق باستعمال اللفظ في المعنى لا بوضع متقدم .. ثم يقال ثانياً هذا التقسيم لاحقيقة له وليس لمن فرق بينهما حد صحيح يميز به بين هذا وهذا فعلم أن هذا التقسيم باطل وهو تقسيم من لم يتصور ما يقول بل يتكلم بلا علم فهم مبتدعة فى الشرع مخالفون للعقل وذلك انهم قالوا الحقيقة اللفظ المستعمل فيما وضع له والمجاز هو المستعمل فى غير ماوضع له احتاجوا الي اثبات الوضع السابق على الاستعمال وهذا يتعذر ثم هم يقسمون الحقيقة الي لغوية وعرفية وأكثرهم يقسمها الى ثلاث لغوية وشرعيـة وعرفية فالحقيقة العرفية هي ماصار اللفظ دالا فيها على المعنى بالعرف لا باللغة وذلك المعـنى يكون تارة أعم من اللغوي وتارة أخص وتارة يكون مبـايناً له لـكن بينهما علاقة استعمل لاجلها فالأول مثل لفظ الرقبة والرأس ونحوهما كان يستعمل في العضو المخصوص ثم صار يستعمل فى جميع البدن والثانى مثل الدابة ونحوها كان يستعمل فى كل مادب ثم صار يستعمل فى عرف بعض الناس في ذوات الأربع وفى عرف بعض الناس فى الفرس وفي عرف بعضهم فى الحمار والثالث مثل لفظ الغائط والظعينة والراوية والمزادة فان الغـائط فى اللغة هو المكان المنخفض من الأرض فلما كانوا ينتابونه لقضاء حوائجهم سموا ما يخرج من الانسان باسم محله والظعينة اسم للدابة ثم سموا المرأة التى تركبها باسمها ونظائر ذلك .. والمقصود ان هـذه

الحقيقة العرفية لم تصر حقيقة لجماعة تواطؤا على نقلها ولكن تكلم بها بعض الناس واراد منها ذلك المعنى العرفى ثم شاع الاستعمال فصارت حقيقة عرفية بهذا الاستعمال ولهذا زاد من زاد منهم في حد الحقيقة فى اللغة التى بها التخاطب ثم هم يعلمون ويقولون انه قد يغلب الاستعمال على بعض الالفاظ فيصير المعنى العرفى أشهر فيه ولا يدل عند الاطلاق الا عليه فتصير الحقيقة العرفية ناسخة للحقيقة اللغوية واللفظ مستعمل فى هذا الاستعمال الحادث العرفى وهو حقيقة من غير أن يكون لما استعمل فيه ذلك تقدم وضع فعلم أن تفسير الحقيقة بهذا لا يصح وان قالوا نعنى بما وضع له ما استعملت فيه أولا فيقال من أين يعلم ان هذه الألفاظ التى كانت العرب تخاطب بها عند نزول القرآن وقبله لم تستعمل قبل ذلك في معنى شئ آخر واذا لم يعلموا هذا النفى فلا يعلم انها حقيقة وهذا خلاف ما اتفقوا عليه وأيضاً فيلزم من هذا أن لايقطع بشئ من الألفاظ انه حقيقة وهذا لايقوله عاقل ثم هؤلاء الذين يقولون هذا نجد أحدهم يأتى الى ألفاظ لم يعلم أنها استعملت الا مقيدة فينطق بها مجردة عن جميع القيود ثم يدعي ان ذلك هو حقيقتها من غير أن يعلم أنها نطق بها مجردة ولا وضعت مجردة مثل أن يقول حقيقة العين هو العضو المبصر ثم سميت به عين الشمس والعين النابعة وعين الذهب للمشابهة لكن أكثرهم يقولون ان هذا من باب المشترك لا من باب الحقيقة والمجاز فيمثل بغيره مثل لفظ الرأس يقولون هو حقيقة فى رأس الانسان ثم قالوا رأس الدرب لأوله ورأس العين لمنبعها ورأس القوم لسيدهم ورأس الأمر لأوله ورأس الشهر ورأس الحول وأمثال ذلك على طريق المجاز وهم لا يجدون قط أن لفظ الرأس استعمل مجرداً بل يجدون انه استعمل بالقيود فى رأس الانسان كقوله تعالي (وامسحوا برؤسكم وأرجلكم الى الكعبين) ونحوه وهذا القيد يمنع أن يدخل فيه تلك المعانى فاذا قيل رأس العين ورأس الدرب ورأس الناس ورأس الامر فهذا المقيد غير ذاك المقيد ومجموع اللفظ الدال غير مجموع اللفظ الدال هناك لكن اشتركا فى بعض اللفظ كاشتراك كل الاسماء المعرفة فى لام التعريف ولو قدر أن الناطق باللغة نطق بلفظ رأس الانسان أولا لان الانسان يتصور رأسه قبل غيره والتعبير أولا هو عما يتصوره أولا فالنطق بهذا المضاف أولا لا يمنع أن ينطق بمضاف الي غيره ثانياً ولا يكون هذا من المجاز كما فى سائر المضافات فاذا قيل ابن آدم أولا لم يكن قولنا ابن الفرس وابن الحمار وكذلك اذا قيل بنت الانسان لم يكن قولنا بنت الفرس مجازاً وكذلك اذا قيل رأس الانسان أولا لم يكن قولنا رأس الفرس مجازاً وكذلك فى سائر المضافات اذا قيل يده أو رجله فاذا قيل هو حقيقة فيما أضيف الي الحيوان قيل ليس جعل هذا هو الحقيقة باولى من أن يجعل ما أضيف الى رأس الانسان ثم قد يضاف الى ما يتصوره أكثر الناس من الحيوانات الصغار التى لم تخطر ببال عامة الناطقين باللغة فاذا قيل إنه حقيقة فى هذا فلماذا لايكون حقيقة فى رأس الجبل والطريق والعين وكذلك سائر مايضاف الي الانسان من أعضائه وأولاده ومساكنه يضاف مثله الى غيره ويضاف ذلك الي الجمادات فيقال رأس الجبل ورأس العين وخطم الجبل أى أنفه وفم الوادي وبطن الوادي وظهر الجبل وبطن الارض وظهرها ويستعمل مع الالف وهو لفظ الظاهر والباطن فى أمور كثيرة والمعنى فى الجميع ان الظاهر لما ظهر فتبين

والباطن لما بطن نخفي وسمي ظهر الانسان ظهرا لظهوره وبطن الانسان بطناً لبطونه فاذا قيل ان هذا حقيقة وذاك مجاز لم يكن هذا أولى من العكس وأيضاً من الاسماء ماتكلم به أهـل اللغة مفرداً كلفظ الانسان ونحوه ثم قد يستعمل مقيداً بالاضافة كقولهم انسان العـين وابرة الذراع ونحو ذلك وبتقدير أن يكون فى اللغة حقيقة ومجاز فقد ادعي بعضـهم أن هـذا من المجاز وهو غلط فان المجاز هو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له أولا وهذا لم يستعمل اللفظ بل ركب مع لفظ آخر فصار وضعاً آخر بالاضافة فلو استعمل مضافا في معني ثم استعمل بتلك الاضافة في غيره كان مجازاً بل اذا كان بعلبك وحضرموت ونحوهما مما يركب تركيب مزج بعد أن كان الاصل فيـه الاضافة لايقال انه مجاز فمالم ينطق به الا مضافا أولي أن لا يكون مجازاً .. وأما من فرق بين الحقيقة والمجاز بان الحقيقة مايفيد المعنى مجرداً عن القرائن والمجاز مالا يفيد ذلك المعنى الا مع قرينة أو قال الحقيقة مايفيده اللفظ المطلق والمجاز مالا يفيد الا مع التقييد أو قال الحقيقة هو المعني الذى يسبق الي الذهن عند الاطلاق والمجاز مالا يسـبق الذهن أو قال المجاز ماصح نفيه والحقيقة مالم يصح نفيها .. فانه يقال ماتعني بالتجريد عن القرائن والاقتران بالقرائن ان عنى بذلك القرائن اللفظية مثل كون الاسم يستعمل مقرونا بالاضافة أو لام التعريف ويقيد بكونه فاعلا ومفعولا ومبتدأ وخبراً فلا يوجد قط في الكلام المؤلف اسم الا مقيداً وكذلك الفعل ان عنى بتقييده انه لابد له من فاعل وقد يقيـد بالمفعول به وظرفى الزمان والمكان والمفعول له ومعه والحال فالفـعل لايستعمل قط إلامقيداً وأما الحرف فابلغ فان الحرف أتي به لمعنى في غيره فنى الجملة لايوجد قط في كلام تام اسم ولا فعل ولا حرف الا مقيداً بقيود تزيل عنـه الاطلاق فان كانت القرينة مايمنع الاطلاق عن كل قيد فليس في الكلام الذى يتكلم به جميع الناس لفظ مطلق عن كل قيد سواء كانت الجملة اسمية أو فعلية ولهذا كان لفظ الكلام والكلمة في لغة العرب بل وفي لغة غيرهم لاتستعـمل الا في المقيد وهو الجملة التامة اسمية كانت أو فعلية أو ندائية ان قيـل انها قسم ثالث فاما مجرد الاسم أوالفعل أو الحرف الذى جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل فهذا لايسمى في كلام العرب قط كلمة وانما تسميته هـذا كلمه اصطلاح نحوي كما سموا بعض الالفاظ فعلا وقسموه الي فعـل ماض ومضارع وأمر والعرب لم تسم قط اللفظ فعلا بل النحاة اصطلحوا على هذا فسموا اللفظ باسم مدلوله فاللفظ الدال على حدوث فعل في زمن ماض سموه فعلا ماضياً وكذلك سائرها وكذلك حيث وجد في الكتاب والسـنة بل وفي كلام العرب نظمه ونثره لفظ كلمة فانما يراد به المفيد التى تسميها النحاة جملة تامة كقوله تعالى ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا ﴾ وقوله تعالى ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ﴾ وقوله تعالى ﴿ تعالوا الي كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ وقوله ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ وقوله ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ وقول النبي صلى الله عليه وسلم أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد

* ألا كل شئ ماخلا الله باطل * وقوله كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان

الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وقوله ان الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن ان تبلغ به ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه الى يوم القيامة وان الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن ان تبلغ به ما بلغت يكتب الله بها سخطه الي يوم القيامة وقوله لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزنت بما قلته منذ اليوم لوزنتهن سبحان الله عدد خلقه سبحان الله زنة عرشه سبحان الله رضاء نفسه سبحان الله مداد كلماته واذا كان كل اسم وفعل وحرف يوجد فى الكلام فانه مقيد لا مطلق لم يجز ان يقال اللفظ الحقيقة ما دل مع الاطلاق والتجرد عن كل قرينة تقارنه .. فان قيل أريد بعض القرائن دون بعض قيل له اذكر الفصل بين القرينة التي يكون معها حقيقة والقرينة التى يكون معها مجاز ولن تجد الى ذلك سبيلا تقديره على تقسيم صحيح معقول ومما يدل على ذلك ان الناس اختلفوا فى العام اذا خص هل يكون استعماله فيما بقى حقيقة أو مجازا وكذلك لفظ الامر اذا أريد به الندب هل يكون حقيقة أو مجازا وفي ذلك قولان لا كثر الطوائف لاصحاب أحمد قولان ولاصحاب الشافعى قولان ولاصحاب مالك قولان ومن الناس من ظن ان هذا الخلاف يطرد في التخصيص المتصل كالصفة والشرط والغاية والبدل وجعل يحكي في ذلك أقوال من يفصل كما يوجد فى كلام طائفة من المصنفين في أصول الفقه وهذا مما لم يعرف ان أحداً قاله فجعل اللفظ العام المقيد فى الصفات والغايات والشروط مجازا بل لما أطلق بعض المصنفين ان اللفظ العام اذا خص يصير مجازا ظن هذا الناقل انه عنى التخصيص المتصل وأولئك لم يكن فى اصطلاحهم عام مخصوص الا اذا خص بمنفصل وأما المتصل فلا يسمون اللفظ عاما مخصوصا فانه لم يدل الا متصلا والاتصال منعه العموم وهذا اصطلاح كثير من الاصوليين وهو الصواب لا يقال لما قيد بالشرط والصفة ونحوهما انه داخل فيما خص من العموم ولا في العام المخصوص لكن يقيد فيقال تخصيص متصل وهذا المقيد لا يدخل فى التخصيص المطلق وبالجملة فيقال اذا كان هذا مجازا فيكون تقييد الفعل المطلق بالمفعول به وبظرف الزمان والمكان مجازا وكذلك بالحال وكذلك كل ما قيد بقيد فيلزم ان يكون الكلام كله مجازا فأين الحقيقة .. فان قيل يفرق بين القرائن المتصلة والمنفصلة فما كان مع القرينة المتصلة فهو حقيقة وما كان مع المنفصلة كان مجازا .. قيل تعني بالمتصل ما كان فى اللفظ أو ما كان موجودا حين الخطاب فان عنيت الاول لزم ان يكون ما علم من حال المتكلم أو المستمع أولا قرينة منفصلة فما استعمل بلام التعريف لما يعرفانه كما يقول قال النبى صلى الله عليه وسلم وهو عند المسلمين رسول الله أو قال الصديق وهو عندهم أبو بكر واذا قال الرجل لصاحبه اذهب الى الامير أو القاضى أو الوالي يريد ما يعرفانه انه يكون مجازا وكذلك الضمير يعود الي معلوم غير مذكور كقوله (إنا أنزلناه) وقوله (حتى توارت بالحجاب) وأمثال ذلك ان يكون هذا مجازا وهذا لا يقوله أحد وأيضاً فاذا قال لشجاع هذا الاسد فعل اليوم كذا ولبليد هذا الحمار قال اليوم كذا أو لعالم أو جواد هذا البحر جرى منه اليوم كذا ان يكون حقيقة لان قوله هذا قرينة لفظية فلا يبقى قط مجازا وان قال المتصل أعم من ذلك وهو ما كان موجودا حين الخطاب قيل له فهذا أشد عليك من الاول فان كل متكلم بالمجاز لابد ان يقترن به حال

الخطاب ما يبين مراده والا لم يجز التكلم به فان قيل انا أجوز تأخير البيان عن مورد الخطاب الى وقت الحاجة قيل أكثر الناس لا يجوزون ان يتكلم بلفظ يدل على معنى وهو لا يريد ذلك المعنى الا اذا بين وانما يجوزون تأخير بيان ما لم يدل اللفظ عليه كالمجملات ثم نقول اذا جوزت تأخير البيان فالبيان قد يحصل بجملة تامة وبأفعال من الرسول وبغير ذلك ولا يكون البيان المتأخر الا مستقلا بنفسه لا يكون مما يجب اقترانه بغيره فان جعلت هذا مجازا لزم ان يكون ما يحتاج في العمل الى بيان مجازا كقوله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) ثم يقال هب ان هذا جائز عقلا لكن ليس واقعاً فى الشريعة أصلا وجميع ما يذكر من ذلك باطل كما قد بسط فى موضعه فان الذين قالوا الظاهر الذى لم يرد به ما يدل عليه ظاهره قد يؤخر بيانه احتجوا بقوله (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) وادعوا انها كانت معينة وأخر بيان التعين وهذا خلاف ما استفاض عن السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان من انهم أمروا ببقرة مطلقة فلو أخذوا بقرة من البقر فذبحوها أجزأ عنهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم والآية نكرة فى سياق الاثبات فهي مطلقة والقرآن يدل سياقه على أن الله ذمهم على السؤال بما هي ولو كان المأمور به معينا لما كانوا ملومين ثم ان مثل هذا لم يقع قط فى أمر الله ورسوله ان يأمر عباده بشئ معين ويبهمه عليهم مرة بعد مرة ولا يذكره بصفات تختص به ابتداء واحتجوا بان الله أخر بيان لفظ الصلاة والزكاة والحج وان هذه ألفاظ لها معان فى اللغة بخلاف الشرع وهذا غلط فان الله انما أمرهم بالصلاة بعد ان عرفوا ما المأمور به وكذلك الصيام وكذلك الحج ولم يؤخر الله قط بيان شئ من هذه المأمورات ولبسط هذه المسئلة موضع آخر .. وأما قول من يقول ان الحقيقة ما يسبق الى الذهن عند الاطلاق فمن أفسد الاقوال فانه لا يقال اذا كان اللفظ لم ينطق به الا مقيداً فانه يسبق الي الذهن في كل موضع منه ما دل عليه ذلك الموضع وأما اذا أطلق فهو لا يستعمل في الكلام مطلقاً قط فلم يبق له حال اطلاق محض حتى يقال ان الذهن يسبق اليه أم لا وأيضاً فأى ذهن فان العربى الذى يفهم كلام العرب يسبق الي ذهنه من اللفظ ما لا يسبق الي ذهن النبطي الذي صار يستعمل الالفاظ في غير معانيها ومن هنا غلط كثير من الناس فانهم قد تعودوا ما اعتادوه إما من خطاب عامتهم وإما من خطاب علمائهم باستعمال اللفظ فى معنى فاذا سمعوه في القرآن والحديث ظنوا انه مستعمل فى ذلك المعنى فيحملون كلام الله ورسوله على لغتهم النبطية وعادتهم الحادثة وهذا مما دخل به الغلط على طوائف بل الواجب ان يعرف اللغة والعادة والعرف الذي نزل به القرآن والسنة وما كان الصحابة يفهمون من الرسول عند سماع تلك الالفاظ فبتلك اللغة والعادة والعرف خاطبهم الله ورسوله لا بما حدث بعد ذلك .. وأيضاً فقد بينا فى غير هذا الموضع ان الله ورسوله لم يدع شيئاً من القرآن والحديث الا بين معناه للمخاطبين ولم يحوجهم الى شئ آخر كما قد بسطنا القول فيه فى غير هذا الموضع فقد تبين ان ما يدعيه هؤلاء من اللفظ المطلق من جميع القيود لا يوجد الا مقدرا فى اللسان لا موجوداً فى الكلام المستعمل كما ان ما يدعيه المنطقيون من المعنى المطلق من جميع القيود لا يوجد الا مقدراً فى الذهن لا يوجد في الخارج شئ موجود

خارج عن كل قيد ولهذا كان ما يدعونه من تقسيم العلم الى تصور وتصديق وان التصور هو تصور المعنى الساذج الخالي عن كل قيد لا يوجد وكذلك ما يدعونه من البسائط التى تتركب منها الانواع وانها أمور مطلقة عن كل قيد لاتوجد وما يدعونه من أن واجب الوجود هو وجود مطلق عن كل أمر ثبوتي لايوجد فهذه الصفات المطلقات عن جميع القيود ينبغي معرفتها لمن ينظر في هذه العلوم فانه بسبب ظن وجودها ضل طوائف فى العقليات والسمعيات بل إذا قال العلماء مطلق انما يعنون به مطلق عن ذلك القيد ومقيد بذلك القيد كما يقولون الرقبة مطلقة فى آية كفارة اليمين ومقيدة فى آية القتل أي مطلقة عن قيد الايمان والا فقد قيل فتحرير رقبة فقيدت بانها رقبة واحدة وانها موجودة وانها تقبل التحرير والذين يقولون بالمطلق المحض يقولون هو الذي لا يتصف بوحدة ولا كثرة ولا وجود ولا عدم ولا غير ذلك بل هو الحقيقة من حيث هي هي كما يذكره الرازي تلقياله عن ابن سينا وأمثاله من المتفلسفة وقد بسطنا الكلام فى هذا الاطلاق والتقييد والكليات والجزئيات فى موضع غير هذا وبينا من غلط هؤلاء فى ذلك ما ليس هذا موضعه .. وانما المقصود هنا الاطلاق اللفظي وهو ان يتكلم باللفظ مطلقاً عن كل قيد وهذا لا وجود له وحينئذ فلا يتكلم أحد الا بكلام مؤلف مقيد مرتبط بعضه ببعض فتكون تلك القيود ممتنعة الاطلاق فتبين انه ليس لمن فرق بين الحقيقة والمجاز فرق معقول يمكن به التمييز بين نوعين فعلم ان هذا التقسيم باطل وحينئذ فكل لفظ موجود في كتاب الله ورسوله فانه مقيد بما يبين معناه فليس فى شئ من ذلك مجاز بل كله حقيقة ولهذا لما ادعي كثير من المتأخرين ان فى القرآن مجازا وذكروا مايشهد لهم رد عليهم المنازعون جميع ماذكروه فمن أشهر ماذكروه قوله تعالي (جداراً يريد ان ينقض) قالوا والجدار ليس بحيوان والارادة انما تكون للحيوان فاستعمالها فى ميل الجدار مجاز فقيل لهم لفظ الارادة قد استعمل فى الميل الذي يكون معه شعور وهو ميل الحى وفى الميل الذي لا شعور فيه وهو ميل الجماد وهو من مشهور اللغة يقال هذا السقف يريد ان يقع وهذه الارض تريد ان تحرث وهذا الزرع يريد ان يسقى وهذا الثمر يريد ان يقطف وهذا الثوب يريد ان يغسل وأمثال ذلك واللفظ اذا استعمل فى معنيين فصاعدا فأما ان يجعل حقيقة في أحدهما مجازاً في الآخر أو حقيقة فيما يختص به كل منهما فيكون مشتركا اشتراكا لفظياً أو حقيقة في القدر المشترك بينهما وهي الاسماء المتواطئة وهي الاسماء العامة كلها وعلى الاول يلزم المجاز وعلى الثانى يلزم الاشتراك وكلاهما خلاف الاصل فوجب ان يجعل من المتواطئة وبهذا يعرف عموم الاسماء العامة كلها والا فلو قال قائل هو في ميل الجماد حقيقة وفى ميل الحيوان مجاز لم يكن بين الدعويين فرق الا كثرة الاستعمال فى ميل الحيوان لكن يستعمل مقيداً بما يبين انه أريد ميل الحيوان وهنا استعمل مقيداً بما يبين انه أريد ميل الجماد والقدر المشترك بين مسميات الاسماء المتواطئة أمر كلى عام لا يوجد كليا عاما الا فى الذهن وهو مورد التقسيم بين الانواع لكن ذلك المعنى العام الكلى كان أهل اللغة لا يحتاجون الي التعبير عنه لانهم انما يحتاجون الى ما يوجد في الخارج والى ما يوجد فى القلوب فى العادة وما لا يكون فى الخارج الا مضافا الى غيره لا يوجد في الذهن مجرداً بخلاف لفظ الانسان

والفرس فانه لما كان يوجد فى الخارج غير مضاف تعودت الاذهان تصور مسمي الانسان ومسمي الفرس بخلاف تصور مسمي الارادة ومسمي العلم ومسمى القدرة ومسمى الوجود المطلق العام فان هذا لا يوجد فى اللغة لفظ مطلق يدل عليه بل لا يوجد لفظ الارادة الا مقيداً بالمريد ولا لفظ العلم الا مقيدا بالعالم ولا لفظ القدرة الا مقيدا بالقادر بل وهكذا سائر الاعراض لما لم توجد الا فى محالها مقيدة بها لم يكن في اللغة لفظ الا كذلك فلا يوجد فى اللغة لفظ السواد والبياض والطول والقصر الا مقيداً بالاسود والابيض والطويل والقصير ونحو ذلك لا مجرداً عن كل قيد وانما يوجد مجردا فى كلام المصنفين فى اللغة لانهم فهموا من كلام أهل اللغة ما يريدون به من القدر المشترك ومنه قوله تعالى (فاذاقها الله لباس الجوع والخوف) فان من الناس من يقول الذوق حقيقة فى الذوق بالفم واللباس بما يلبس على البدن وانما استعير هذا وهذا وليس كذلك بل قال الخليل الذوق فى لغة العرب هو وجود طعم الشيء والاستعمال يدل على ذلك قال تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الادني دون العذاب الاكبر) وقال (ذق انك أنت العزيز الكريم) وقال (فذاقت وبال أمرها) وقال (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون • فذوقوا عذابي ونذر لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى فلا يذوقون فيها برداً ولا شرابا الا حميما وغساقا) وقال النبي صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولا وفي بعض الادعية اذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك فلفظ الذوق يستعمل في كل ما يحس به ويجد ألمه أو لذته فدعوى المدعي اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم تحكم منه لكن ذاك مقيد فيقال ذقت الطعام وذقت هذا الشراب فيكون معه من القيود ما يدل على انه ذوق بالفم واذا كان الذوق مستعملا فيما يحسه الانسان بباطنه أو بظاهره حتى الماء الحميم يقال ذاقه فالثوب اذا كان بارداً أو حاراً يقال ذقت حره وبرده وأما لفظ اللباس فهو مستعمل في كل مايغشى الانسان فيلتبس به قال تعالى (وجعلنا الليل لباساً) وقال (ولباس التقوى ذلك خير) وقال (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) ومنه يقال لبس الحق بالباطل اذا خلطه به حتي غشاه فلم يتميز فالجوع الذى يشمل ألمه جميع الجائع نفسه وبدنه وكذلك الخوف الذي يلبس البدن لو قيل فاذاقها الله الجوع والخوف لم يدل ذلك على انه شامل لجميع أجزاء الجائع بخلاف ما اذا قيل لباس الجوع والخوف ولو قال فألبسهم لم يكن فيه مايدل على انهم ذاقوا مايؤلمهم الا بالعقل من حيث انه يعرف أن الجائع الخائف يألم بخلاف لفظ ذوق الجوع والخوف فان هذا اللفظ يدل على الاحساس بالمؤلم واذا أضيف الى الملذ دل على الاحساس به كقوله صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً .. فان قيل فلم لم يصف نعيم الجنة بالذوق : قيل لان الذوق يدل على جنس الاحساس ويقال ذاق الطعام لمن وجد طعمه وان لم يأكله وأهل الجنة نعيمهم كامل تام لا يقتصر فيه على الذوق بل استعمل لفظ الذوق في النفى كما قال عن أهل النار (لايذوقون فيها برداً ولا شراباً) أى لايحصل لهم من ذلك ذوق وقال عن أهل الجنة (لايذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى) .. وكذلك ما ادعوا أنه مجاز فى القرآن لفظ المكر والاستهزاء والسخرية المضاف الى الله وزعموا انه مسمي باسم مايقابله على

طريق المجاز وليس كذلك بل مسميات هذه الاسماء اذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلماً له وأما اذا فعلت بمن فعلها بالمجني عليه عقوبة بمثل فعله كانت عدلا كما قال تعالى (كذلك كدنا ليوسف) فكاد له كما كادت اخوته لما قال له أبوه لاتقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيداً وقال تعالى (انهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً) وقال تعالى (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم) وقال (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لايجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم) ولهذا كان الاستهزاء بهم فعلا يستحق هذا الاسم كما روي عن ابن عباس انه يفتح لهم باب من الجنة وهم فى النار فيسرعون اليه فيغلق ثم يفتح لهم باب آخر فيسرعون اليه فيغلق فيضحك منهم المؤمنون قال تعالي (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الارائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) وعن الحسن البصرى اذا كان يوم القيامة خمدت النار لهم كما تخمد الاهالة فيمشون فتخسف بهم وعن مقاتل اذا ضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب فيبقون في الظلمة فيقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً وقال بعضهم استهزاؤه استدراجه لهم وقيل ايقاع استهزائهم ورد خداعهم ومكرهم عليهم وقيل انه يظهر لهم فى الدنيا خلاف ما أبطن فى الآخرة وقيل هو تجهيلهم وتخطئتهم فيما فعلوه وهذا كله حق وهو استهزاؤهم حقيقة ٠٠ ومن الامثلة المشهورة لمن يثبت المجاز فى القرآن واسأل القرية قالوا المراد به أهلها فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فقيل لهم لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب وأمثال هذه الامور التى فيها الحال والمحل كلاهما داخل فى الاسم ثم قد يعود الحكم على الحال وهو السكان وتارة على المحل وهو المكان وكذلك فى النهر يقال حفرت النهر وهو المحل وجرى النهر وهو الماء ووضعت الميزاب وهو المحل وجري الميزاب وهو الماء وكذلك القرية قال تعالى (ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة) وقوله (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون فما كان دعواهم اذ جاءهم بأسنا الا أن قالوا انا كنا ظالمين) وقال فى آية أخري (أفأمن أهل القري أن يأتيهم باسنا بياتاً وهم نائمون) فجعل القرى هم السكان وقال (وكأى من قرية هي أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) وهم السكان وكذلك قوله تعالى (وتلك القري أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) وقال تعالى (أو كالذى مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها) فهذا المكان لا السكان لكن لا بد أن يلحظ انه كان مسكونا فلا يسمي قرية الا اذا كان قد عمر للسكنى مأخوذ من القرى وهو الجمع ومنه قولهم قريت الماء فى الحوض اذا جمعته فيه ونظير ذلك لفظ الانسان يتناول الجسد والروح ثم الاحكام تتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما فكذلك القرية اذا عذب أهلها خربت واذا خربت كان عذابا لاهلها فما يصيب أحدهما من الشر ينال الآخر كما ينال البدن والروح مايصيب أحدهما فقوله (واسأل القرية) مثل قوله (قرية كانت آمنة مطمئنة) فاللفظ هنا يراد به السكان من غير اضمار ولا حذف فهذا بتقدير أن يكون فى اللغة مجاز فلا مجاز فى القرآن بل ٠٠ وتقسيم اللغة الى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث لم ينطق به السلف والخلف فيه على قولين وليس النزاع

فيه لفظياً بل يقال نفس هذا التقسيم باطل لا يتميز هذا عن هذا ولهذا كان كل مايذكرونه من الفروق يبين انها فروق باطلة وكلما ذكر بعضهم فرقا أبطله الثاني كما يدعي المنطقيون أن الصفات القائمة بالموصوفات تنقسم اللازمة لها الى داخل فى ماهيتها الثابتة فى الخارج والى خارج عنها لازم للماهية ولازم خارج للوجود وذكروا ثلاثة فروق كلها باطلة لان هذا التقسيم باطل لاحقيقة له بل مايجعلونه داخلا يمكن جعله خارجا وبالعكس كما قد بسط في موضعه : وقولهم اللفظ ان دل بلا قرينة فهو حقيقة وان لم يدل الا معها فهو مجاز قد تبين بطلانه وانه ليس فى الالفاظ الدالة مايدل مجرداً عن جميع القرائن ولافيها مايحتاج الى جميع القرائن وأشهر أمثلة المجاز لفظ الاسد والحمار والبحر ونحو ذلك مما يقولون انه استعير للشجاع والبليد والجواد وهذه لاتستعمل الا مؤلفة مركبة مقيدة بقيود لفظية كما تستعمل الحقيقة كقول أبي بكر الصديق عن أبي قتادة لما طلب غيره سلب القتيل لاها الله اذا نعمد الى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فنعطيك سلبه فقوله نعمد الى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله وصف له بالقوة للجهاد فى سبيله وقد عينه تعيناً ازال اللبس وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم ان خالداً سيف من سيوف الله سله الله على المشركين وأمثال ذلك : وان قال القائل القرائن اللفظية موضوعة ودلالتها على المعنى حقيقة لكن القرائن الحالية مجاز : قيل اللفظ لايستعمل قط الا مقيداً بقيود لفظية موضوعة والحال حال المتكلم والمستمع لابد من اعتباره في جميع الكلام فانه اذا عرف المتكلم فهم من معنى كلامه مالا يفهم اذا لم يعرف لانه بذلك يعرف عادته فى خطابه واللفظ انما يدل اذا عرف لغة المتكلم التى بها يتكلم وهي عادته وعرفه التى يعتادها فى خطابه ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية ارادية اختيارية فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى فاذا اعتاد أن يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغة ولهذا كل من كان له عناية بالفاظ الرسول ومراده بها عرف عادته فى خطابه وتبين له من مراده مالا يتبين لغيره .. ولهذا ينبغي أن يقصد اذا ذكر لفظ من القرآن والحديث أن يذكر نظائر ذلك اللفظ ماذا عنى بها الله ورسوله فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث وسنة الله ورسوله التى يخاطب بها عباده وهي العادة المعروفة من كلامه ثم اذا كان لذلك نظائر فى كلام غيره وكانت النظائر كثيرة عرف أن تلك العادة واللغة مشتركة عامة لايختص بها هو صلى الله عليه وسلم بل هي لغة قومه ولا يجوز أن يحمل كلامه على عادات حدثت بعده فى الخطاب لم تكن معروفة فى خطابه وخطاب أصحابه كما يفعله كثير من الناس وقد لايعرفون انتفاء ذلك فى زمانه ولهذا كان استعمال القياس في اللغة وان جاز في الاستعمال فانه لايجوز فى الاستدلال فانه قد يجوز للانسان أن يستعمل هو اللفظ فى نظير المعنى الذى استعملوه فيه مع بيان ذلك على مافيه من النزاع لكن لايجوز أن يعمد الى ألفاظ قد عرف استعمالها فى معانى فيحيلها الي غير تلك المعانى ويقول انهم أرادوا تلك بالقياس على تلك بل هذا تبديل وتحريف فاذا قال الجار أحق بسقبه فالجار هو الجار ليس هو الشريك فان هذا لا يعرف في لغتهم لكن ليس فى اللفظ مايقتضي انه يستحق الشفعة لكن يدل على أن البيع له أولى وأما الخمر فقد ثبت بالنصوص الكثيرة والنقول الصحيحة انها كانت اسما لكل مسكر لم يسم النبيذ خمراً بالقياس

وكذلك النباش كانوا يسمونه سارقا كما قالت عائشة سارق موتانا كسارق أحيانا واللائط عندهم كان أغلظ من الزاني بالمرأة ولا بد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف مايدل على مراد الله ورسوله من الالفاظ وكيف يفهم كلامه فمعرفة العربية التى خوطبنا بهاهما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه وكذلك معرفة دلالة الالفاظ على المعاني فان عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب فانهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على مايدعون انه دال عليه ولا يكون الامر كذلك ويجعلون هذه الدلالة حقيقة وهذه مجازا كما أخطأ المرجئة فى اسم الايمان جعلوا لفظ الايمان حقيقة فى مجرد التصديق وتناوله للاعمال مجازاً فيقال إن لم يصح التقسيم الى حقيقة ومجاز فلا حاجة الى هذا وان صح فهذا لاينفعكم بل هو عليكم لالكم لان الحقيقة هي اللفظ الذى يدل باطلاقه بلا قرينة والمجاز انما يدل بقرينة وقد تبين أن لفظ الايمان حيث أطلق فى الكتاب والسنة دخلت فيه الاعمال وانما يدعي خروجها منه عند التقييد وهذا يدل على أن الحقيقة قوله الايمان بضع وسبعون شعبة : وأماحديث جبريل فان كان أراد بالايمان ماذكر مع الاسلام فهو كذلك وهذا هو الذى أراد النبي صلى الله عليه وسلم قطعاً كما انه لما ذكر الاحسان أراد الاحسان مع الايمان والاسلام لم يرد أن الاحسان مجرد عن إيمان واسلام ولو قدر أنه أريد بلفظ الايمان مجرد التصديق فلم يقع ذلك الا مع قرينة فيلزم أن يكون مجازاً وهذا معلوم بالضرورة لايمكننا المنازعة فيه بعد تدبر القرآن والحديث بخلاف كون لفظ الايمان في اللغة مرادفا للتصديق ودعوى أن الشارع لم يغيره ولم ينقله بل أراد به ما كان يريده أهل اللغة بلا تخصيص ولاتقييد فان هاتين المقدمتين لا يمكن الجزم بواحدة منهما فلا يعارض اليقين كيف وقد عرف فساد كل واحدة من المقدمتين وانها من أفسد الكلام : وأيضاً فليس لفظ الايمان فى دلالته على الاعمال المأمور بها بدون لفظ الصلاة والصيام والزكاة والحج في دلالته على الصلاة الشرعية والصيام الشرعي والحج الشرعي سواء قيل إن الشارع نقله أو زاد الحكم دون الاسم أو زاد الاسم وتصرف فيه تصرف أهل العرف أوخاطب بالاسم مقيدا لامطلقاً فان قيل الصلاة والحج ونحوهما لو ترك بعضها بطلت بخلاف الايمان فانه لايبطل عند الصحابة وأهل السنة والجماعة بمجرد الذنب قيل ان أراد بالبطلان انه لاتبرأ الذمة منها كلها فكذلك الايمان الواجب اذا ترك منه شيئاً لم تبرأ الذمة منه كله وان أريد به وجوب الاعادة فهذا ليس على الاطلاق فان في الحج واجبات اذا تركها لم يفسد بل تجبر بدم وكذلك فى الصلاة عند أكثر العلماء اذا تركها سهواً أومطلقاً وجبت الاعادة فانما يجب اذا أمكنت الاعادة والا فما تعذرت اعادته يبقى مطالباً به كالجمعة ونحوها وان أريد بذلك انه لايثاب على مافعله فليس كذلك بل قد بين النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث المسيء فى صلاته انه اذالم يتمها يثاب على مافعل ولا يكون بمنزلة من لم يصل وفى عدة احاديث ان الفرائض تكمل يوم القيامة من النوافل فاذا كانت الفرائض مجبورة بثواب النوافل دل على انه يعتدله بما فعل منها فكذلك الايمان اذا ترك منه شيئاً كان عليه فعله ان كان محرماً تاب منه وان كان واجباً فعله فاذا لم يفعله لم تبرأ ذمته منه وأثيب على مافعله كسائر العبادات وقد دلت النصوص على أنه يخرج من النار من في قلبه مثقال

ذرة من الايمان وقد عدلت المرجئة فى هذا الاصل عن بيان الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بأحسان واعتمدوا على رأيهم وعلى ماتاولوه بفهمهم اللغة وهذه طريقة أهل البدع ولهذا كان الامام أحمد يقول أكثر مايخطىء الناس من جهة التأويل والقياس ولهـذا تجد المعتزلة والمرجئة والرافضة وغيرهم من أهل البدع يفسرون القرآن برأيهم ومعقولهم وما تأولوه من اللغة ولهذا تجدهم لايعتمدون على أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وأئمة المسلمين فلا يعتمدون لا على السنة ولا على إجماع السلف وآثارهم وإنما يعتمدون على العقل واللغة وتجدهم لايعتمدون على كتب التفسير المأثورة والحديث وآثار السلف وانما يعتمدون على كتب الادب وكتب الكلام التي وضعتها رؤسهم وهـذه طريقة الملاحدة أيضاً انما يأخذون مافي كتب الفلسفة وكتب الادب واللغة وأما كتب القرآن والحديث والآثار فلا يلتفتون اليها . هؤلاء يعرضون عن نصوص الانبياء أذهي عندهم لاتفيد العلم وأولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم بلا آثار عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقد ذكرنا كلام أحمد وغيره في في إنكارهذا وجعله طريقة أهل البدع واذا تدبرت حججهم وجدت دعاوي لايقوم عليها دليل والقاضى أبو بكر الباقلانى نصرقول جهم فى مسئلة الايمان متابعة لابي الحسن الاشعري وكذلك أكثر أصحابه فأما أبوالعباس القلانسى وأبوعلى الثقفى وأبو عبدالله بن مجاهد شيخ القاضى أبى بكر وصاحب أبى الحسن فانهم نصروامذاهب السلف وابن كلاب نفسه والحسين بن الفضل البجلى ونحوهما كانوا يقولون هو التصديق والقول جميعاً موافقة لمن قاله من فقهاء الكوفيين كحماد بن أبى سليمان ومن اتبعه مثل أبي حنيفة وغيره

(فصل) وأبوالحسن الاشعرى نصرقول جهم في الايمان مع انه نصر المشهورعن أهل السنة من انه يستثنى فى الايمان فيقول أنا مومن ان شاء الله لانه نصر مذهب أهل السنة في انه لايكفر أحد من أهل القبلة ولايخلدون في النار وتقبل فيهم الشفاعة ونحو ذلك وهوداًئماً ينصر في المسئلة التى اشتهر فيها النزاع بين أهل الحديث وغـيرهم قول أهل الحديث لكنه لم يكن خبيراً بمآخـذهم فينصره على مايراه هو من الاصول التى تلقاها عن غيرهم فيقع فى ذلك من التناقض ماينكره هؤلاء وهؤلاء كما فعل فى مسـئلة الايمان ونصر فيه قول جهم مع نصره للاستثناء ولهـذا خالفه كثير من أصحابه في الاستثناء كما سنذكر مأخذه في ذلك واتبعه أكثر أصحابه على نصر قول جهم في ذلك ومن لم يقف الا على كتب الـكلام ولم يعرف ماقاله السلف وأئمـة السنة فى هذا الباب فيظن أن ماذكروه هو قول أهل السنة وهوقول لم يقله أحد من أئمة السنة بل قـد كفر أحمـد بن حنبل ووكيع وغيرهما من قال بقول جهم فى الايمان الذي نصره أبو الحسن وهو عندهم شر من قول المرجئـة ولهـذا صار من يعظم الشافعي من الزيديه والمعتزلة ونحوهم ويطعن فى كثير ممن ينتسب اليه يقولون الشافعي لم يكن فيلسوفاً ولا مرجئاً وهؤلاء فلاسفة أشعرية مرجئة وغرضهم ذم الارجاء ونحن نذكر عمدتهم لكونه مشهوراً عند كثيرمن المتأخرين المنتسبين الى السنة .. قال القاضى أبو بكر فى التمهيد فان قالوا فخبرونا ما الايمان عندكم قيـل الايمان هو التصديق بالله وهو العلم والتصديق يوجد بالقلب فان قال فما الدليل على ماقلتم قيل إجماع أهل اللغـة

قاطبة على أن الايمان قبل نزول القرآن وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم هو التصديق لا يعرفون فى اللغة ايمانا غير ذلك ويدل على ذلك قوله تعالي ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ أى بمصدق لنا ومنه قولهم فلان يؤمن بالشفاعة وفلان لايؤمن بعذاب القبر أى لايصدق بذلك فوجب أن الايمان فى الشريعة هو الايمان المعروف فى اللغة لان الله ماغير اللسان العربي ولا قلبه ولو فعل ذلك لتواترت الاخبار بفعله وتوفرت دواعي الامة على نقله ولغلب اظهاره على كتمانه وفى علمنا بانه لم يفعل ذلك بل أقر أسماء الاشياء والتخاطب باسره على ما كان دليل على أن الايمان فى الشريعة هو الايمان اللغوي ومما يبين ذلك قوله تعالي ﴿ وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ﴾ وقوله ﴿ انا جعلناه قرآنا عربياً ﴾ فأخبر انه أنزل القرآن بلغة العرب وسمى الأسماء بمسمياتهم ولا وجه للعدول بهذه الآيات عن ظواهرها بغير حجة لاسيما مع القول بالعموم وحصول التوقيف على أن القرآن قول نزل بلغتهم فدل على ماقلناه من أن الايمان ماوصفناه دون ماسواه من سائر الطاعات من النوافل والمفروضات هذا لفظه .. وهذا عمدة من نصر قول الجهمية فى مسئلة الايمان وللجمهور من أهل السنة وغيرهم عن هذا أجوبة .. أحدها قول من ينازعه فى أن الايمان فى اللغة مرادف للتصديق ويقول هو بمعني الاقرار وغيره .. والثانى قول من يقول وان كان فى اللغة هو التصديق فالتصديق يكون بالقلب واللسان وسائر الجوارح كما قال النبي صلى الله عليه وسلم والفرج يصدق ذلك أو يكذبه .. والثالث أن يقال ليس هو مطلق التصديق بل هو تصديق خاص مقيد بقيود اتصل اللفظ بها وليس هذا نقلا للفظ ولا تغييرا له فان الله لم يأمرنا بايمان مطلق بل بايمان خاص وصفه وبينه .. الرابع أن يقال وان كان هو التصديق فالتصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح فان هذه لوازم الايمان التام وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم ويقول ان هذه اللوازم تدخل فى مسمي اللفظ تارة وتخرج عنه أخرى .. الخامس قول من يقول ان اللفظ باق على معناه في اللغة ولكن الشارع زاد فيه أحكاما .. السادس قول من يقول ان الشارع استعمله فى معناه المجازي فهو حقيقة شرعية مجاز لغوى .. السابع قول من يقول انه منقول فهذه سبعة أقوال .. الاول قول من ينازع أن معناه فى اللغة التصديق ويقول ليس هو التصديق بل بمعنى الاقرار وغيره . قوله اجماع أهل اللغة قاطبة على أن الايمان قبل نزول القرآن هو التصديق .. فيقال له من نقل هذا الاجماع ومن أين يعلم هذا الاجماع وفي أى كتاب ذكر هذا الاجماع .. الثانى أن يقال أتعنى باهل اللغة نقلتها كابى عمرو والاصمعى والخليل ونحوهم أو المتكلمين بها فان عنيت الاول فهؤلاء لاينقلون كل ما كان قبل الاسلام باسناد وانما ينقلون ماسمعوه من العرب في زمانهم وما سمعوه في دواوين الشعر وكلام العرب وغير ذلك بالاسناد ولا نعلم فيما نقلوه لفظ الايمان فضلا عن أن يكونوا أجمعوا عليه وان عنيت المتكلمين بهذا اللفظ قبل الاسلام فهؤلاء لم نشهدهم ولا نقل لنا أحد عنهم ذلك .. الثالث أنه لايعرف عن هؤلاء جميعهم أنهم قالوا الايمان فى اللغة هو التصديق بل ولا عن بعضهم وان قدر أنه قاله واحد أواثنان فليس هذا اجماعا .. الرابع أن يقال هؤلاء لاينقلون عن العرب انهم قالوا معنى هذا اللفظ كذا وكذا وانما

ينقلون الكلام المسموع من العرب وانه يفهم منه كذا وكذا وحينئذ فلوقدر أنهم نقلوا كلاما عن العرب يفهم منه أن الايمان هو التصديق لم يكن ذلك أبلغ من نقل المسلمين للقرآن عن النبى صلى الله عليه وسلم واذا كان مع ذلك قد يظن بعضهم أنه أريد به معنى ولم يرده فظن هؤلاء ذلك فيما ينقلونه عن العرب أولي ٠٠ الخامس أنه لوقدر أنهم قالوا هذا فهم آحاد لايثبت بنقلهم التواتر والتواتر من شرطه استواء الطرفين والواسطة وأين التواتر الموجود عن العرب قاطبة قبل نزول القرآن انهم كانوا لايعرفون للايمان معنى غير التصديق ٠٠ فان قيل هذا يقدح فى العلم باللغة قبل نزول القرآن ٠٠ قيل فليكن ونحن لاحاجة بنا مع بيان الرسول لما بعثه الله به من القرآن أن نعرف اللغة قبل نزول القرآن والقرآن نزل بلغة قريش والذين خوطبوا به كانوا عربا وقد فهموا ماأريد به وهم الصحابة ثم الصحابة بلغوا لفظ القرآن ومعناه الي التابعين حتي انتهي الينا فلم يبق بنا حاجة الى أن نتواتر عندنا تلك اللغة من غير طريق تواتر القرآن لكن لما تواتر القرآن لفظاً ومعنى وعرفنا انه نزل بلغتهم عرفنا انه كان فى لغتهم لفظ السماء والارض والليل والنهار والشمس والقمر ونحو ذلك على ماهو معناها فى القرآن والا فلو كلفنا نقلا متواتراً لآحاد هذه الالفاظ من غير القرآن لتعذر علينا ذلك فى جميع الالفاظ لاسيما اذا كان المطلوب أن جميع العرب كانت تريد باللفظ هذا المعنى فان هذا يتعذر العلم به والعلم بمعاني القرآن ليس موقوفا على شئ من ذلك بل الصحابة بلغوا معانى القرآن كما بلغوا لفظه ولو قدرنا أن قوما سمعوا كلاما عجمياً وترجموه لنا بلغتهم لم نحتج الي معرفة اللغة التى خوطبوا بها ٠٠ السادس انه لم يذكر شاهداً من كلام العرب على ما ادعاه عليهم وانما استدل من غير القرآن بقول الناس فلان يؤمن بالشفاعة فلان يؤمن بالجنة والنار فلان يؤمن بعذاب القبر وفلان لايؤمن بذلك ومعلوم أن هذا ليس من ألفاظ العرب قبل نزول القرآن بل هو مما تكلم الناس به بعد عصر الصحابة لما صار من الناس أهل البدع يكذبون بالشفاعة وعذاب القبر ومرادهم بذلك هو مرادهم بقوله فلان مؤمن يؤمن بالجنة والنار وفلان لا يؤمن بذلك والقائل لذلك وان كان تصديق القلب داخلا فى مراده فليس مراده ذلك وحده بل مراده التصديق بالقلب واللسان فان مجرد تصديق القلب بدون اللسان لا يعلم حتي يخبر به عنه ٠٠ السابع أن يقال من قال ذلك فليس مراده التصديق بما يرجي ويخاف بدون خوف ولا رجاء بل يصدق بعذاب القبر ويخافه ويصدق بالشفاعة ويرجوها والا فلو صدق بانه يعذب فى قبره ولم يكن فى قلبه خوف من ذلك أصلا لم يسموه مؤمنا به كما انهم لا يسمون مؤمناً بالجنة والنار الا من رجا الجنة وخاف النار دون المعرض عن ذلك بالكلية مع علمه بانه حق كما لا يسمون ابليس مؤمناً بالله وان كان مصدقا بوجوده وربوبيته ولا يسمون فرعون مؤمناً وان كان عالماً بان الله بعث موسى وانه هو الذى أنزل الآيات وقد استيقنت بها أنفسهم مع جحدهم لها بالسنتهم ولا يسمون اليهود مؤمنين بالقرآن والرسول وان كانوا يعرفون انه حق كما يعرفون أبناءهم فلا يوجد قط في كلام العرب ان من علم وجود شئ مما يخاف ويرجي ويجب حبه وتعظيمه وهو مع ذلك لا يحبه ولا يعظمه ولا يخافه ولا يرجوه بل يجحد به ويكذب به بلسانه انهم يقولون هو مؤمن

به بل ولو عرفه بقلبه وكذب به بلسانه لم يقولوا هو مصدق به ولو صدق به مع العمل بخلاف مقتضاه لم يقولوا هو مؤمن به فلا يوجد في كلام العرب شاهد واحد يدل على ما ادعوه وقوله (وما أنت بمؤمن لنا) قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع فان هذا استدلال بالقرآن وليس في الآية مايدل على أن المصدق مرادف للمؤمن فان صحة المعنى باحد اللفظين لا يدل على انه مرادف للآخر كما بسطناه فى موضعه .. الوجه الثامن قوله لايعرفون فى اللغة ايمانا غير ذلك من أين له هذا النفى الذي لاتمكن الاحاطة به بل هو قول بلا علم .. التاسع قول من يقول أصل الايمان مأخوذ من الامن كما ستأتي أقوالهم ان شاء الله وقد نقلوا فى اللغة الايمان بغير هذا المعنى كما قاله الشيخ أبو البيان فى قول [1] الوجه العاشر انه لو فرض أن الايمان في اللغة التصديق فمعلوم أن الايمان ليس هو التصديق بكل شئ بل بشئ مخصوص وهو ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم وحينئذ فيكون الايمان فى كلام الشارع أخص من الايمان فى اللغة ومعلوم أن الخاص ينضم اليه قيود لاتوجد فى جميع العام كالحيوان اذا أخذ بعض أنواعه وهو الانسان كان فيه المعني العام ومعنى اختص به وذلك المجموع ليس هو المعني العام فالتصديق الذى هو الايمان أدنى أحواله أن يكون نوعا من التصديق العام فلا يكون مطابقاً له فى العموم والخصوص من غير تغيير اللسان ولا قلبه بل يكون الايمان فى كلام الشارع مؤلفاً من العام والخاص كالانسان الموصوف بانه حيوان وانه ناطق .. الحادى عشر ان القرآن ليس فيه ذكر ايمان مطلق غير مفسر بل لفظ الايمان فيه اما مقيد واما مطلق مفسر فالمقيد كقوله (يؤمنون بالغيب) وقوله (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه) والمطلق المفسر كقوله تعالى (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الآية وقوله (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) ونحو ذلك وقوله (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما) وأمثال هذه الآيات وكل إيمان مطلق في القرآن فقد يبين فيه أنه لا يكون الرجل مؤمناً الا بالعمل مع التصديق فقد بين القرآن أن الايمان لابد فيه من عمل مع التصديق كما ذكر مثل ذلك في اسم الصلاة والزكاة والصيام والحج ... فان قيل تلك الأسماء باقية ولكن ضم الى المسمي أعمالا في الحكم لافي الاسم كما يقوله القاضى أبو يعلى وغيره .. قيل ان كان هذا صحيحاً قيل مثله فى الايمان وقد أورد هذا السؤال لبعضهم ثم لم يجب عنه بجواب صحيح بل زعم أن القرآن لم يذكر فيه ذلك وليس كذلك بل القرآن والسنة مملوآن بما يدل على أن الرجل لا يثبت له حكم الايمان الا بالعمل مع التصديق وهذا فى القرآن أكثر بكثير من معنى الصلاة والزكاة فان تلك انما فسرتها السنة والايمان بين معناه الكتاب والسنة واجماع السلف .. الثاني عشر انه اذا قيل إن الشارع خاطب الناس بلغة العرب فانما خاطبهم بلغتهم المعروفة وقد جرى عرفهم أن الاسم يكون مطلقاً وعاماً ثم يدخل فيه قيد أخص من معناه كما يقولون اذهب الى القاضي والوالي والأمير يريدون شخصاً معيناً يعرفونه دلت عليه اللام مع معرفتهما به وهذا الاسم في اللغة اسم

---

(١) ههنا بياض فى الاصل

جنس لا يدل على خصوص شخص وأمثال ذلك فكذلك الايمان والصلاة والزكاة انما خاطبهم بهذه الاسماء بلام التعريف وقد عرفهم قبل ذلك أن المراد الايمان الذي صفته كذا وكذا أو الدعاء الذي صفته كذا وكذا فبتقدير أن يكون في لغتهم التصديق فانه قد بين اني لا أكتفي بتصديق القلب واللسان فضلا عن تصديق القلب وحده بل لابد أن يعمل بموجب ذلك التصديق كما في قوله تعالي (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا . انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) وفي قوله صلى الله عليه وسلم لا تؤمنون حتي يكون كذا وفي قوله تعالى (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله) وفي قوله (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء) ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة كقوله عليه الصلاة والسلام لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وقوله لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه وأمثال ذلك .. فقد بين لهم أن التصديق الذي لا يكون الرجل مؤمناً الا به هو أن يكون تصديقاً على هذا الوجه وهذا بين في القرآن والسنة من غير تغيير للغة ولا نقل لها .. الثالث عشر أن يقال بل نقل وغير قوله لو فعل لتواتر قيل نعم وقد تواتر أنه أراد بالصلاة والزكاة والصيام والحج معانيها المعروفة وأراد بالايمان ما بينه بكتابه وسنة رسوله من أن العبد لا يكون مؤمناً الا به كقوله انما المؤمنون وهـذا متواتر في القرآن والسنن ومتواتر أيضاً أنه لم يكن يحكم لاحد بحكم الايمان الا أن يؤدى الفرائض ومتواتر عنه أنه أخبر أنه من مات مؤمناً دخل الجنـة ولم يعذب وان الفساق لا يستحقون ذلك بل هم معرضون للعذاب فقد تواتر عنه من معاني اسم الايمـان وأحكامه مالم يتواتر عنه في غيره فأي تواتر أبلغ من هذا وقد توفرت الدواعي على نقل ذلك واظهاره ولله الحمد ولا يقدر أحد أن ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم نقـلا يناقض هذا لـكن أخبر أنه يخرج منها من كان معه شيء من الايمان ولم يقل إن المؤمن يدخلها ولا قال إن الفساق مؤمنون لـكن أدخلهم في مسمي الايمان في مواضع كما أدخل المنافقين في اسم الايمان في مواضع مع القيود وأما الاسم المطلق الذي وعد أهله بالجنة فلم يدخل فيه هؤلاء ولا هؤلاء .. الرابع عشر قوله ولا وجه للعدول بالآيات التي تدل على أنه عربي عن ظاهرها .. فيقـال له الآيات التي فسرت المؤمن وسلبت الايمان عمن لم يعمل أصرح وأكثر من هذه الآيات ثم اذا دلت أنه عربي فما ذكر لا يخرجه عن كونه عربياً ولهذا لما خاطبهم بلفظ الصلاة والحج وغير ذلك لم يقولوا هذا ليس بعربي بل خاطبهم باسم المنافق وقد ذكر أهل اللغة أن هذا الاسم لم يكن يعرف في الجاهلية ولم يقولوا انه ليس بعربي لان المنافق مشتق من نفق اذا خرج فاذا كان اللفظ مشتقاً من لغتهم وقد تصرف فيه المتكلم به كما جرت عادتهم في لغتهم لم يخرج ذلك عن كونه عربيا .. الخامس عشر انه لو فرض ان هذه الألفاظ ليست عربية فليس تخصيص عموم هذه الألفاظ بأعظم من اخراج لفظ الايمان عما دل عليه الـكتاب والسنة واجماع السلف فان النصوص التي تنفي الايمـان عمن لا يحب الله ورسوله ولا يخاف الله ولا يتقيه ولا يعمل شيئاً من الواجب ولا يترك شيئاً من المحرم كثيرة صريحة فاذا قدر أنها عارضها آية كان تخصيص اللفظ القليل العام أولى من رد النصوص الـكثيرة

الصريحة .. السادس عشر ان هؤلاء واقفة فى ألفاظ العموم لا يقولون بعمومها والسلف يقولون الرسول وقفنا على معاني الايمان وبينه لنا وعلمنا مراده منه بالاضطرار وعلمنا من مراده علماً ضرورياً ان من قيل إنه صدق ولم يتكلم بلسانه بالايمان مع قدرته على ذلك ولا صلى ولاصام ولاأحب الله ورسوله ولا خاف الله بل كان مبغضاً للرسول معادياله يقاتله أن هذا ليس بمؤمن كما علمنا أن الكفار من المشركين وأهل الكتاب الذين كانوا يعلمون أنه رسول الله وفعلوا ذلك معه كانوا عنده كفاراً لامؤمنين فهذا معلوم عندنا بالاضطرار أكثر من علمنا بأن القرآن كله ليس فيه لفظ غير عربى فلوقدر التعارض لكان تقديم ذلك العلم الضرورى أولى .. فان قالوا من علم أن الرسول كفره علم انتفاء التصديق من قلبه .. قيل لهم هذه مكابرة ان أرادوا أنهم كانوا شاكين مرتابين وأما ان عنى التصديق الذى لم يحصل معه عمل فهو ناقص كالمعدوم فهذا صحيح ثم انما يثبت اذا ثبت أن الايمان مجرد تصديق القلب وعلمه وذاك انما يثبت بعد تسليم هذه المقدمات التي منها هذا فلا تثبت الدعوي بالدعوى مع كفر صاحبها ثم يقال قد علمنا بالاضطرار أن اليهود وغيرهم كانوا يعرفون أن محمداً رسول الله وكان يحكم بكفرهم فقد علمنا من دينه ضرورة أنه يكفر الشخص مع ثبوت التصديق بنبوته فى القلب اذا لم يعمل بهذا التصديق بحيث يحبه ويعظمه ويسلم لما جاء به .. ومما يعارضون به أن يقال هذا الذي ذكرتموه ان كان صحيحاً فهو أدل على قول المرجئة بل على قول الكرامية منه على قولكم وذلك ان الايمان اذا كان هو التصديق كما ذكرتم فالتصديق نوع من أنواع الكلام فاستعمال لفظ الكلام والقول ونحو ذلك فى المعنى واللفظ بل في اللفظ الدال على المعنى أكثر في اللغة من استعماله فى المعنى المجرد عن اللفظ بل لايوجد قط اطلاق اسم الكلام ولا نوعه كالخبر والتصديق والتكذيب والأمر والنهى على مجرد المعنى من غير شيء يقترن به من عبارة ولا اشارة ولا غيرهما وانما يستعمل مقيداً واذا كان الله انما أنزل القرآن بلغة العرب فهى لا تعرف التصديق والتكذيب وغيرهما من الأقوال الا ماكان معنى ولفظاً أو لفظاً يدل على معنى ولهذا لم يجعل الله أحداً مصدقاً للرسل بمجرد العلم والتصديق الذى فى قلوبهم حتى يصدقوهم بالسنتهم ولا يوجد فى كلام العرب أن يقال فلان صدق فلاناً أو كذبه اذا كان يعلم بقلبه أنه صادق أو كاذب ولم يتكلم بذلك كما لايقال أمره أونهاه اذا قام بقلبه طلب مجرد عما يقترن به من لفظ أواشارة أونحوهما ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم ان صلاتنا هذه لايصلح فيها شيء من كلام الناس وقال ان الله يحدث من أمره ماشاء وان مما أحدث أن لاتكلموا في الصلوة اتفق العلماء على انه اذا تكلم في الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته واتفقوا كلهم على أن مايقوم بالقلب من تصديق بامور دنيوية وطلب لايبطل الصلاة وانما يبطلها التكلم بذلك فعلم اتفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام وأيضاً ففى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تجاوز لامتى عما حدثت أنفسها مالم تتكلم به أو تعمل به فقدأخبر أن الله عفا عن حديث النفس الي أن تتكلم ففرق بين حديث النفس وبين الكلام وأخبر أنه لايؤاخذ به حتى يتكلم به والمراد حتى ينطق اللسان باتفاق العلماء فعلم

أن هذا هو الكلام فى اللغة لان الشارع كما قرر انما خاطبنا بلغة العرب وأيضاً ففى السنن ان معاذاً قال له يارسول الله وانا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال وهل يكب الناس في النار على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم فبين أن الكلام انما هو مايكون باللسان وفي الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد * ألا كل شيء ماخلا الله باطل * وفي الصحيحين عنه أنه قال كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وقد قال الله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا) وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر رواه مسلم وقال تعالى (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ومثل هذا كثير وفي الجملة حيث ذكر الله في كتابه عن أحد من الخلق من الانبياء أو أتباعهم أو مكذبيهم انهم قالوا ويقولون وذلك قولهم وأمثال ذلك فانما يعنى به المعنى مع اللفظ وما تصرف منه من فعل ماض ومضارع وأمر ومصدر واسم فاعل من لفظ القول والكلام ونحوهما انما يعرف في القرآن والسنة وسائر كلام العرب اذا كان لفظ ومعنى وكذلك أنواعه كالتصديق والتكذيب والامر والنهى وغير ذلك وهذا مما لايمكن أحداً جحده فانه أكثر من أن يحصى ولم يكن فى مسمى الكلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم باحسان وتابعيهم لامن أهل السنة ولا من أهل البدعة بل أول من عرف فى الاسلام انه جعل مسمى الكلام المعنى فقط هو عبد الله بن سعيد بن كلاب وهو متأخر فى زمن محنة أحمد بن حنبل وقد أنكر ذلك عليه علماء السنة وعلماء البدعة فيمتنع أن يكون الكلام الذى هو أظهر صفات بني آدم كما قال تعالى (فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون) ولفظه لاتحصى وجوهه كثرة لم يعرفه أحد من الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى جاء من قال فيه قولا لم يسبقه اليه أحد من المسلمين ولا غيرهم .. فان قالوا فقد قال تعالى (ويقولون فى أنفسهم) وقال (واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة) ونحو ذلك .. قيل ان كان المراد انهم قالوه بألسنتهم سراً فلاحجة فيه وهذا هو الذى ذكره المفسرون قالوا كانوا يقولون سام عليك فاذا خرجوا يقولون فى أنفسهم أي يقول بعضهم لبعض لو كان نبياً عذبنا بقولنا له مانقول وان قدر انه أريد بذلك انهم قالوه فى قلوبهم فهذا قول مقيد بالنفس مثل قوله عما حدثت بها أنفسها ولهذا قالوا لولا يؤاخذنا الله بما نقول فأطلقوا لفظ القول هنا والمراد به ما قالوه بألسنتهم لانه النجوي والتحية كما قال تعالى (ألم تر الى الذين نهوا عن النجوي ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول واذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) مع أن الاول هو الذى عليه المفسرون وعليه تدل نظائره فان النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله من ذكرني فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرني في ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ليس المراد أنه لايتكلم به بلسانه بل المراد أنه ذكر الله بلسانه وكذلك قوله (واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول) هو الذكر باللسان والذى يقيد بالنفس لفظ

الحديث يقال حديث النفس ولم يوجد عنهم انهم قالوا كلام النفس وقول النفس كما قالوا حديث النفس ولهذا يعبر بلفظ الحديث عن الاحلام التي تري في المنام كقول يعقوب عليه السلام (ويعلمك من تأويل الاحاديث) وقول يوسف (وعلمتنى من تأويل الاحاديث) وتلك فى النفس لاتكون باللسان فلفظ الحديث قد يقيد بما في النفس بخلاف لفظ الكلام فانه لم يعرف انه أريد به ما في النفس فقط وأما قوله تعالى (وأسروا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور) فالمراد به القول الذى تارة يسر به فلا يسمعه الانسان وتارة يجهر به فيسمعونه كما يقال أسر القراءة وجهر بها وصلاة السر وصلاة الجهر ولهذا لم يقل قولوه بألسنتكم أو بقلوبكم وما في النفس لايتصور الجهر به وانما يجهر بما في اللسان وقوله (انه عليم بذات الصدور) من باب التنبيه يقول انه يعلم مافي الصدور فكيف لايعلم القول كما قال في الآية الاخرى (وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى) فنبه بذلك على انه يعلم الجهر ويدل على ذلك انه قال (وأسروا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور) فلو أراد بالقول ما في النفس لكونه ذكر علمه بذات الصدور لم يكن قد ذكر علمه بالنوع الآخر وهو الجهر وان قيل نبه قيل بل نبه على القسمين وقوله تعالى (آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا) قد ذكر هـذا في قوله (ثلاث ليال سويا) وهناك لم يستثن شيئاً والقصـة واحدة وهذا يدل على أن الاستثناء منقطع والمعني آيتك ألا تكلم الناس لكن ترمز لهم رمزاً كنظائره في القرآن قوله (فأوحى اليهم) هو الرمز ولو قدر أن الرمز استثناء متصل لكان قد دخل في الكلام المقيد بالاستثناء كما في قوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء) ولايلزم من ذلك أن يدخل في لفظ الكلام المطلق فليس في لغة القوم أصلا مايدل على أن مافي النفس يتناوله لفظ الكلام والقول المطلق فضلا عن التصديق والتكذيب فعلم ان من لم يصدق بلسانه مع القدرة لايسمي في لغة القوم مؤمناً كما اتفق على ذلك سلف الامة من الصحابة والتابعـين لهم باحسان وقول عمر رضى الله عنه زورت في نفسى مقالة أردت أن أقولها حجة عليهم .. قال أبو عبيد التزوير اصلاح الكلام وتهيئته قال وقال أبو زيد المزور من الكلام والمزوق واحد وهو المصلح الحسن وقال غيره زورت في نفسى مقالة أي هيأتها لأقولها فلفظه يدل على انه قدر في نفسه مايريد أن يقوله ولم يقله فعلم أنه لا يكون قولا الا اذا قيل باللسان وقبل ذلك لم يكن قولا لكن كان مقدراً في النفس يراد أن يقال كما يقدر الانسان في نفسه أنه يحج وأنه يصلى وأنه يسافر الي غير ذلك فيكون لما يريده من القول والعمل صورة ذهنية مقـدرة في النفس ولكن لايسمى قولا وعمـلا الا اذا وجدت في الخارج كما انه لايكون حاجا ومصلياً الا اذا وجدت هذه الافعال في الخارج ولهذا كان مايهم به المرء من الاقوال المحرمة والافعال المحرمة لاتكتب عليه حتى يقوله ويفعله وما همّ به من القول الحسن والعمل الحسن انما يكتب له به حسنة واحدة فاذا صار قولا وفعلا كتب له به عشر حسنات الى سبعمائة وعوقب عليه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله تجاوز لامتى عما حدثت به أنفسها مالم تتكلم به أو تعمل وأما البيت الذي يحكى عن الاخطل أنه قال

ان الكلام لفى الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فمن الناس من أنكر أن يكون هذا من شعره وقالوا انهم فتشوا دواوينه فلم يجدوه وهذا يروى عن محمد ابن الخشاب وقال بعضهم لفظه أن البيان لفى الفؤاد ولو احتج محتج فى مسألة بحديث أخرجاه في الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم لقالوا هذا خبر واحد ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول وهذا البيت لم يثبت نقله عن قائله باسناد لا واحد ولا أكثر من واحد ولا تلقاه أهل العربية بالقبول فكيف يثبت به أدنى شيء من اللغة فضلا عن مسمى الكلام ثم يقال مسمى الكلام والقول ونحوهما ليس هو مما يحتاج فيه الى قول شاعر فان هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة وعرفوا معناه في لغتهم كما عرفوا مسمي الرأس واليد والرجل .. وأيضاً فالناطقون باللغة يحتج باستعمالهم للالفاظ فى معانيها لأن ما يذكرونه من الحدود فان أهل اللغة الناطقين لا يقول أحد منهم أن الرأس كذا واليد كذا والكلام كذا واللون كذا بل ينطقون بهذه الألفاظ دالة على معانيها فتعرف لغتهم من استعمالهم فعلم أن الأخطل لم يرد بهذا أن يذكر مسمي الكلام ولا أحد من الشعراء يقصد ذلك البتة وانما أراد ان كان قال ذلك مافسره به المفسرون للشعر أى أصل الكلام من الفؤاد وهو المعنى فاذا قال الانسان بلسانه ماليس في قلبه فلا يثق به وهذا كالأقوال التى ذكرها الله عن المنافقين ذكر أنهم يقولون بألسنتهم مليس في قلوبهم ولهذا قال

لا يعجبنك من أثير خطبة حتى يكون مع الكلام أصيلا

ان الكلام لفى الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

نهاه أن يعجب بقول الظاهر حتى يعلم مافى قلبه من الأصل ولهذا قال حتى يكون مع الكلام أصيلا وقوله مع الكلام دليل على أن اللفظ الظاهر قد سماه كلاماً وان لم يعلم قيام معناه بقلب صاحبه وهذا حجة عليهم فقد اشتمل شعره على هذا وهذا بل قوله مع الكلام مطلق وقوله ان الكلام لفى الفؤاد أراد به أصله ومعناه المقصود به واللسان دليل على ذلك .. وبالجملة فمن احتاج الي أن يعرف مسمى الكلام فى لغة العرب والفرس والروم والترك وسائر أجناس بنى آدم بقول شاعر فانه من أبعد الناس عن معرفة طرق العلم ثم هو من المولدين وليس من الشعراء القدماء وهو نصرانى كافر مثلث واسمه الاخطل والخطل فساد فى الكلام وهو نصراني والنصارى قد أخطؤا فى مسمى الكلام فجعلوا المسيح القائم بنفسه هو نفس كلمة الله .. فتبين انه ان كان الايمان فى اللغة هو التصديق والقرآن انما أراد به مجرد التصديق الذى هو قول ولم يسم العمل تصديقاً فليس الصواب الا قول المرجئة انه اللفظ والمعنى أو قول الكرامية انه قول باللسان فقط فان تسمية قول اللسان قولا أشهر فى اللغة من تسمية معنى في القلب قولا كقوله تعالي (ويقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم) وقوله (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين) وأمثال ذلك بخلاف مافى النفس فانه انما يسمى حديثاً والكرامية يقولون المنافق مؤمن وهو مخلد فى النار لانه آمن ظاهراً لاباطناً وانما يدخل الجنة من آمن ظاهراً وباطناً قالوا

والدليل على شمول الايمان له انه يدخل في الاحكام الدينية المتعلقة باسم الايمان كقوله تعالى (فتحرير رقبة مؤمنة) ويخاطب في الظاهر بالجمعة والطهارة وغير ذلك مما خوطب به الذين آمنوا وأما من صدق بقلبه ولم يتكلم بلسانه فانه لا يعلق به شئ من أحكام الايمان لافي الدنيا ولا في الآخرة ولا يدخل في خطاب الله لعباده بقوله (يا أيها الذين آمنوا) فعلم أن قول الكرامية في الايمان وان كان باطلا مبتدعا لم يسبقهم اليه أحد فقول الجهمية أبطل منه وأولئك أقرب الي الاستدلال باللغة والقرآن والعقل من الجهمية ٠٠ والكرامية توافق المرجئة والجهمية فى أن ايمان الناس كلهم سواء ولا يستثنون في الايمان بل يقولون هو مؤمن حقاً لمن أظهر الايمان واذا كان منافقاً فهو مخلد فى النار عندهم فانه انما يدخل الجنة من آمن باطناً وظاهراً ومن حكى عنهم انهم يقولون المنافق يدخل الجنة فقد كذب عليهم بل يقولون المنافق مؤمن لان الايمان هو القول الظاهر كما يسميه غيرهم مسلم اذ الاسلام الاستسلام الظاهر ولا ريب أن قول الجهمية أفسد من قولهم من وجوه متعددة شرعا ولغة وعقلا ٠٠ واذا قيل قول الكرامية قول خارج عن اجماع المسلمين ٠٠ قيل وقول جهم فى الايمان قول خارج عن اجماع المسلمين قبله بل السلف كفروا من يقول بقول جهم فى الايمان ٠٠ وقد احتج الناس على فساد قول الكرامية بحجج صحيحة والحجج من جنسها على فساد قول الجهمية أكثر مثل قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وماهم بمؤمنين) قالوا فقد نفى الله الايمان عن المنافقين ٠٠ فنقول هذا حق فان المنافق ليس بمؤمن وقد ضل من سماه مؤمناً وكذلك من قام بقلبه علم وتصديق وهو يجحد الرسول ويعاديه كاليهود وغيرهم سماهم الله كفاراً لم يسمهم مؤمنين قط ولا دخلوا فى شئ من أحكام الايمان بخلاف المنافق فانه يدخل في أحكام الايمان الظاهرة فى الدنيا بل قد نفى الله الايمان عمن قال بلسانه وقلبه اذا لم يعمل كما قال تعالى (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) الي قوله (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) فنفى الايمان عمن سوي هؤلاء وقال تعالى (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولي فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين) والتولى هو التولي عن الطاعة كما قال تعالي (ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما) وقال تعالي (فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولي) فعلم أن التولي ليس هو التكذيب بل هو التولى عن الطاعة فان الناس عليهم أن يصدقوا الرسول فيما أخبر ويطيعوه فيما أمر وضد التصديق التكذيب وضد الطاعة التولى فلهذا قال (فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولي) وقد قال تعالى (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولي فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين) فنفى الايمان عمن تولى عن العمل وان كان قد أتى بالقول وقال تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتي يستأذنوه) وقال (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فنفى القرآن والسنة من نفى الايمان عمن لم يأت بالعمل مواضع كثيرة كما نفى فيها الايمان عن المنافق وأما العالم بقلبه مع المعاداة

والمخالفة الظاهرة فهذا لم يسم قط مؤمنا وعند الجهمية اذا كان العلم فى قلبه فهو مؤمن كامل الايمان ايمانه كايمان النبيين ولو قال وعمل ماذا عسى أن يقول ويعمل ولا يتصور عندهم أن ينتفى عنه الايمان الا اذا زال ذلك العلم من قلبه .. ثم أكثر المتأخرين الذين نصروا قول جهم يقولون بالاستثناء فى الايمان ويقولون الايمان فى الشرع هو مايوافى به العبد ربه وان كان فى اللغة أعم من ذلك فجعلوا في مسئلة الاستثناء مسمي الايمان مادعوا انه مسماه في الشرع وعدلوا عن اللغة فهلا فعلوا هذا في الاعمال ودلالة الشرع على أن الاعمال الواجبة من تمام الايمان لاتحصى كثرة بخلاف دلالته على انه لايسمي ايمانا الا مامات الرجل عليه فانه ليس في الشرع مايدل على هذا وهو قول محدث لم يقله أحد من السلف لكن هؤلاء ظنوا أن الذين استثنوا فى الايمان من السلف كان هـذا مأخذهم لان هؤلاء وأمثالهم لم يكونوا خبيرين بكلام السلف بل ينصرون مايظهر من أقوالهم بما تلقوه عن المتكلمين من الجهمية ونحوهم من أهل البدع فيبقي الظاهر قول السلف والباطن قول الجهمية الذين هم أفسد الناس مقالة في الايمان وسنذكر ان شاء الله أقوال السلف في الاستثناء ولهذا لما صار يظهر لبعض أتباع أبي الحسن فساد قول جهم في الايمان خالفه كثير منهم فمنهم من اتبع السلف .. قال أبو القاسم الانصارى شيخ الشهرستاني في شرح الارشاد لابي المعالي بعد أن ذكر قول أصحابه قال وذهب أهل الأثر الى أن الايمان جميع الطاعات فرضها ونفلها وعبروا عنه بانه اتيان ماأمر الله به فرضاً ونفلا والانتهاء عما نهى عنـه تحريما وادبا وقال وبهذا كان يقول أبو على الثقفى من متقدمي أصحابنا وأبو العباس القلانسى وقدمال الى هـذا المذهب أبو عبد الله بن مجاهد قال وهذا قول مالك بن أنس امام دار الهجرة ومعظم أئمة السلف رضوان الله عليهم أجمعين وكانوا يقولون الايمان معرفة بالقلب واقرار باللسان وعمل بالاركان ومنهم من يقول بقول المرجئة انه التصـديق بالقلب واللسان ومنهم من قال اذا ترك التصديق باللسان عناداً كان كافرا بالشرع وان كان في قلبه التصديق والعلم وكذلك قال أبو اسحاق الاسفرائيني .. قال الانصاري رأيت في تصانيفه ان المؤمن انمـا يكون مؤمنا حقا اذا حقق ايمانه بالاعمال الصالحة كما أن العالم انما يكون عالماً حقاً اذا عمل بما علم واستشهد بقول الله تعالي (انمـا المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا) الى قوله (أولئك هم المؤمنون حقاً) .. وقال أيضاً أبو اسحاق حقيقة الايمان في اللغة التصديق ولا يتحقق ذلك الا بالمعرفة والائتمار وتقوم الاشارة والانقياد مقام العبارة .. وقال أيضاً أبو اسحق فى كتاب الاسماء والصفات اتفقوا على أن مايستحق به المكلف اسم الايمان فى الشريعة أوصاف كثيرة وعقائد مختلفة وان اختلفوا فيها على تفصيل ذكروه واختلفوا فى اضافة مالا يدخل فى جملة التصديق اليه لصحة الاسم فمنها ترك قتل الرسول وترك إيذائه وترك تعظيم الاصنام فهذا من التروك ومن الافعال نصرة الرسول والذب عنه وقالوا ان جميعه يضاف الى التصـديق شرعا وقال آخرون انه من الكبائر لايخرج المرء بالمخالفة فيه عن الايمان .. قلت وهـذان القولان ليسا قول جهم لكن من قال ذلك فقد اعـترف بانه ليس مجرد تصديق القلب وليس هو شيئاً واحداً وقال ان الشرع تصرف فيه وهذا اهم أصلهم ولهذا كان حذاق

هؤلاء كجهم والصالحي وأبي الحسن والقاضي أبي بكر على انه لايزول عنه اسم الايمان الا بزوال العلم من قلبه قال أبو المعالي باب في ذكر الاسماء والاحكام

اعلم أن غرضنا في هـذا الباب يستدعي تقديم ذكر حقيقة الايمان قال وهذا مما تباينت فيه مذاهب الاسلاميين ثم ذكر قول الخوارج والمعتزلة والكرامية ثم قال وأما مذاهب أصحابنا فصار التحقيق من أصحاب الحديث والنظار منهم الى أن الايمان هو التصـديق وبه قال شيخنا أبو الحسن رحمة الله عليـه واختلف رأيه في معني التصديق فقال مرة هو المعرفة بوجوده وقدمه وإلهيتـه وقال مرة التصديق قول في النفس غير أنه يتضمن المعرفة ولا يصح أن يوجد دونها وهذا مقتضاه فان التصديق والتكذيب والصدق والكذب بالاقوال أجدر فالتصديق اذا قول في النفس يعبر عنه با للسان فتوصف العبادة بانها تصديق لانها عبارة عن التصديق قال وقال بعض أصحابنا التصديق لايتحقق إلا با لقول والصـدق جميعاً فاذا اجتمعا كانا تصديقاً واحداً ومنهم من اكتفى بترك العناد فلم يجعل الاقرار أحـد ركني الايمان فيقول الايمـان هو التصديق بالقلب وأوجب ترك العناد بالشرع وعلى هـذا الاصل يجوز أن يعرف الكافر الله وانما يكفر بالعناد لانه ترك ماهو الاهم في الايمـان وعلى هذا الاصل يقال إن اليهود كانوا عالمين بالله ونبوة محمد صلى الله عليـه وسلم الا انهم كفروا عناداً وبغياً وحسداً وعلى قول شيخنا أبي الحسن كل من حكمنا بكفره فنقول انه لايعرف الله أصلاً ولا عرف رسوله ولا دينه قال أبو القاسم الانصارى تلميذه كان المعنى لاحكم لايمانه ولا لمعرفته شرعاً قلت وليس الامر على هـذا القول كما قاله الانصارى هـذا ولكن على قولهم المعاند كافر شرعاً فيجعل الكفر تارة بانتفاء الايمان الذى في القلب وتارة بالعناد ويجعل هذا كافراً في الشرع وان كان معه حقيقة الايمان الذى هو التصديق ويلزمـه أن يكون كافراً في الشرع مع أن معه الايمان الذىهو مثل إيمان الانبياء والملائكة والحذاق في هذا المذهب كأبي الحسن والقاضي ومن قبلهم من أتباع جهم عرفوا أن هـذا تناقض يفسد الاصل فقالوا لايكون واحد كافر إلا اذا ذهب ما في قلبه من التصديق والتزموا أن كل من حكم الشرع بكفره فانه ليس في قلبه شيء من معرفة الله ولا معرفـة رسوله ولهذا أنكر هذا عليهم جماهير العقلاء وقالوا هذا مكابرة وسفسطة وقـد احتجوا على قولهـم بقوله تعالى(لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) الى قوله(أولئك كتب في قلوبهم الايمان) الآية قالوا ومفهومهذا إن لم يعمل بمقتضاه لم يكتب في قلوبهم الايمان٠٠قالوا فان قيل معناهلايؤمنون إيماناً مجزئاًمعتداً به أويكون المعنى لايؤدون حقوق الايمان ولايعملون بمقتضاه٠٠قلناهذا عاملايخصص الا بدليل فيقال لهم هذه الآية فيها نفى الايمان عمن يواد المحادين لله ورسوله وفيـه أن من لايواد المحادين لله ورسوله فان الله كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه وهذا يدل على مذهب السلف أنه لابد في الايمان من محبـة القلب لله ولرسوله ومن بغض من يحاد الله ورسوله ثم لم تدل الآية على أن العلم الذى في قلوبهـم بأن محمـداً رسول الله يرتفع لايبقى منهشيء والايمان الذى كتب ليسهو مجردالعلموالتصديق بل هو تصديق القلب وعمل القلب ولهذا

قال ﴿ وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ فقد وعدهم بالجنة وقد اتفق الجميع على ان الوعد بالجنة لايكون الامع الاتيان بالمأمور به وترك المحظور فعلم أن هؤلاء الذين كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه قد أدوا الواجبات التى بها يستحقون ماوعد الله به الابرار المتقين ودل هذا على أن الفساق لم يدخلوا فى هذا الوعد ودلت هذه الآية على أنه لايوجد مؤمن يواد الكفار ومعلوم أن خلقا كثيراً من الناس يعرف من نفسه أن التصديق فى قلبه لم يكذب الرسول وهو مع هذا يواد بعض الكفار فالسلف يقولون ترك الواجبات الظاهرة دليل على انتفاء الايمان الواجب من القلب لكن قد يكون ذلك بزوال عمل القلب الذي هو حب الله ورسوله وخشية الله ونحو ذلك لايستلزم أن لايكون في القلب من التصديق شيء وعند هؤلاء كل من نفى الشرع إيمانه دل على أنه ليس فى قلبه شيء من التصديق أصلاً وهذا سفسطة عند جماهير العقلاء وكذلك حكى ابن فورك عن أبي الحسن قال الايمان هو اعتقاد صدق المخبر فيما يخبر به اعتقادا هو علم ومنه ليس بعلم والايمان بالله وهو اعتقاد صدقه إنما يصح إذا كان عالماً بصدقه فى أخباره وإنما يكون كذلك اذا كان عالماً بأنه يتكلم والعلم بأنه متكلم بعد العلم بأنه حي والعلم بأنه حي بعد العلم بأنه فاعل والعلم بأنه فاعل بعد العلم بالفعل وهو كون العالم فعلاً له قال وكذلك يتضمن العلم بكونه قادراً وله قدرة وعالماً وله علم ومريداً وله إرادة وسائر مالا يصح العلم بالله الا بعد العلم به من شرائط الايمان .. قلت هذا مما اختلف فيه قول الاشعرى وهو أن الجهل ببعض الصفات هل يكون جهلاً بالموصوف أم لا على قولين والصحيح الذي عليه الجمهور وهو آخر قوليه أنه لايستلزم الجهل بالموصوف وجعل إثبات الصفات من الايمان مما خالف فيه الاشعرى جهما فان جهما غالي فى نفي الصفات بل وفى نفي الاسماء قال أبو الحسن السمع ورد بضم شرائط اخر اليه وهو أن لايقترن به مايدل على كفر من يأتيه فعلاً وتركاً وهو أن الشرع أمره بترك العبادة والسجود للصنم فلو أتى به دل على كفره وكذلك من قتل نبياً أو استخف به دل على كفره وكذلك لو ترك تعظيم المصحف والكعبة دل على كفره قال واحد ما استدللنا به على كفره مامنع الشرع أن يقرنه بالايمان أو أوجب ضمه الى الايمان لو وجد دلنا ذلك على أن التصديق الذي هو الايمان مفقود من قلبه وكذلك كل ماكفر به المخالف من طريق التأويل فانما كفرناه به لدلالته على مافقد ماهو ايمان من قلبه لاستحالة أن يقضى السمع بكفر من معه الايمان والتصديق بقلبه فيقال لاريب أن الشارع لايقضى بكفر من معه الايمان بقلبه لكن دعواكم أن الايمان هو التصديق وان تجرد عن جميع أعمال القلب غلط ولهذا قالوا أعمال التصديق والمعرفة من قلبه ألا ترى أن الشريعة حكمت بكفره والشريعة لاتحكم بكفر المؤمن المصدق ولهذا نقول ان كفر ابليس لعنه الله كان أشد من كفر كل كافر وانه لم يعرف الله بصفاته قطعاً ولا آمن به إيمانا حقيقياً باطنا وان وجد منه القول والعبادة وكذلك اليهود والنصاري والمجوس وغيرهم من الكفرة لم يوجد فى قلوبهم حقيقة الايمان المعتقد به فى حال حكمنا لهم

بالكفر قال الله تعالى ﴿ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ﴾ وقوله ﴿ فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ الآية فجعل الله هذه الامور شرطاً فى ثبوت حكم الايمان فثبت أن الايمان المعرفة بشرائط لا يكون معتدا به دونها .. فيقال ان قلتم انه ضم الى معرفة القلب شروطاً فى ثبوت الحكم أو الاسم لم يكن هذا قول جهم بل يكون هذا قول من جعل الايمان كالصلاة والحج هووان كان فى اللغة بمعنى القصدوالدعاء لكن الشارع ضم اليه أموراً اما فى الحكم وأما فى الحكم والاسم وهذا القول قد سلم صاحبه ان حكم الايمان المذكور في الكتاب والسنة لا يثبت بمجرد تصديق القلب بل لابد من تلك الشرائط وعلى هذا لا يمكنه جعل الفاسق مؤمنا الا بدليل يدل على ذلك لا بمجرد قول ان معه تصديق القلب ومن جعل الايمان هو تصديق القلب يقول كل كافر فى النار ليس معه من التصديق بالله شيء لا مع ابليس ولا مع غيره وقد قال الله تعالى ﴿ واذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد ﴾ وقال تعالى ﴿ وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ فقد اعترفوا بأن الرسل أتتهم وتلت عليهم آيات ربهم وأنذرتهم لقاء يومهم هذا فقد عرفوا الله ورسوله واليوم الآخر وهم في الآخرة كفار وقال تعالى ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ ﴾ فقد كذبوا بوجوده وكذبوا بتنزيله وأما فى الآخرة فعرفوا الجميع وقال تعالى ﴿ ولو ترى اذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنت تكفرون ﴾ وقال تعالى ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ الى قوله ﴿ لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ الي آيات أخر كثيرة تدل على ان الكفار فى الآخرة يعرفون ربهم فان كان مجرد المعرفة ايمانا كانوا مؤمنين فى الآخرة .. فان قالوا الايمان فى الآخرة لاينفع وانما الثواب على الايمان في الدنيا .. قيل هذا صحيح لكن اذا لم يكن الايمان الا مجرد العلم فهذه الحقيقة لا تختلف فان لم يكن العمل من الايمان فالعارف فى الآخرة لم يفته شئ من الايمان لكن أكثر ما يدعونه انه حين مات لم يكن فى قلبه من التصديق بالرب شئ ونصوص القرآن فى غير موضع تدل على ان الكفار كانوا في الدنيا مصدقين بالرب حتي فرعون الذى أظهر التكذيب كان في باطنه مصدقا قال تعالى ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً ﴾ وكما قال موسي لفرعون ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر ﴾ ومع هذا لم يكن مؤمنا بل قال موسي ﴿ ربنا اطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتي يروا العذاب الاليم ﴾ قال الله ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ ولما قال فرعون ﴿ آمنت انه لااله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل ﴾ قال الله ﴿ الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ فوصفه بالمعصية لم يصفه بعدم العلم فى الباطن كما قال ﴿ فعصى فرعون الرسول ﴾ وكما قال عن ابليس ﴿ فسجد الملائكة كلهم

أجمعون الا ابليس أبي واستكبر وكان من الكافرين) فلم يصفه الا بالاباء والاستكبار ومعارضته الامر لم يصفه بعدم العلم وقد أخبر الله عن الكفار انهم كانوا معترفين بالصانع في مثل قوله (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) ثم يقال لهم اذا قلتم هو التصديق بالقلب أو باللسان أو بهما فهل هو التصديق المجمل أو لا بدفيه من التفصيل فلو صدق ان محمداً رسول الله ولم يعرف صفات الحق هل يكونُ مؤمنا أم لا فان جعلوه مؤمناً قيل فاذا بلغه ذلك فكذب به لم يكن مؤمنا باتفاق المسلمين فصار بعض الايمان أكمل من بعض وان قالوا لا يكون مؤمنا لزمهم ان لا يكون أحد مؤمنا حتى يعرف تفصيل كل ما أخبر به الرسول ومعلوم ان أكثر الامة لا يعرفون ذلك وعندهم الايمان لا يتفاضل الا بالدوام فقط قال أبو المعالى .. فان قال القائل أصلكم يلزمكم ان يكون ايمان المتهتك فى فسقه كايمان النبي صلى الله عليه وسلم .. قلنا الذي يفضل ايمانه على ايمان من عداه باستمرار تصديقه وعصمة الله إياه من مخامرة الشكوك واختلاج الريب والتصديق عرض من الاعراض لايبقى وهو متوال للنبي صلى الله عليه وسلم ثابت لغيره في بعض الاوقات وزائل عنه فى أوقات الفترات فيثبت للنبي صلى الله عليه وسلم أعداد من التصديق ولا يثبت لغيره الا بعضها فيكون ايمانه لذلك أكثر وأفضل قال ولو وصف الايمان بالزيادة والنقصان وأريد به ذلك كان مستقيما قلت فهذا هو الذى يفضل به النبي غيره فى الايمان عندهم ومعلوم ان هذا في غاية الفساد من وجوه كثيرة كما قد بسط في مواضع أخر

(فصل) قال الذين نصروا مذهب جهم في الايمان من المتأخرين كالقاضى أبي بكر وهذا لفظه فان قال قائل وما الاسلام عندكم قيل له الاسلام الانقياد والاستسلام فكل طاعة انقاد العبد بها لربه واستسلم فيها لامره فهى اسلام والايمان خصلة من خصال الاسلام وكل ايمان اسلام وليس كل اسلام ايمانا فان قال فلم قلتم ان معنى الاسلام ما وصفتم قيل لاجل قوله تعالى (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) فنفى عنهم الايمان وأثبت لهم الاسلام وانما أراد بما أثبته الانقياد والاستسلام ومنه القوا اليكم السلم وكل من استسلم لشئ فقد أسلم وان كان أكثر ما يستعمل ذلك في المستسلم لله ولنبيه .. قلت وهذا الذى ذكروه مع بطلانه ومخالفته للكتاب والسنة هو تناقض فانهم جعلوا الايمان خصلة من خصال الاسلام فالطاعات كلها اسلام وليس فيها ايمان الا التصديق والمرجئة وان قالوا ان الايمان تضمن الاسلام فهم يقولون الايمان هو تصديق القلب واللسان وأما الجهمية فيجعلونه تصديق القلب فلا تكون الشهادتان ولا الصلوة ولا الزكوة ولا غيرهن من الايمان و قد تقدم ما بينه الله ورسوله من ان الاسلام داخل في الايمان فلا يكون الرجل مؤمنا حتي يكون مسلما كما ان الايمان داخل في الاحسان فلا يكون محسنا حتى يكون مؤمنا .. وأما التناقض فانهم اذا قالوا الايمان خصلة من خصال الاسلام كان من أتى بالايمان انما أتي بخصلة من خصال الاسلام لا بالاسلام الواجب جميعه فلا يكون مسلما حتى يأتي بالاسلام كله كما لا يكون عندهم مؤمناً حتى يأتي بالايمان كله والا فمن أتى ببعض الايمان عندهم لا يكون مؤمناً ولا فيه شئ من الايمان فكذلك يجب ان يقولوا فى الاسلام وقد قالوا كل ايمان اسلام وليس كل اسلام ايمانا وهذا

ان أرادوا به ان كل ايمان هو الاسلام الذى أمر الله به ناقض قولهم ان الايمان خصلة من خصاله فجعلوا الايمان بعضه ولم يجعلوه اياه وان قالوا كل ايمان فهو إسلام أي هو طاعة لله وهو جزء من الاسلام الواجب وهذا مرادهم قيل لهم فعلى هذا يكون الاسلام متعددا بتعدد الطاعات وتكون الشهادتان وحدهما اسلاما والصلاة وحدها اسلاماً والزكاة اسلاماً بل كل درهم تعطيه للفقير اسلاما وكل سجدة اسلاما وكل يوم تصومه اسلاما وكل تسبيحة تسبحها في الصلاة أو غيرها اسلاما ثم المسلم ان كان لايكون مسلماً الا بفعل كل ماسميتموه اسلاما لزم أن يكون الفساق ليسوا مسلمين مع كونهم مؤمنين فجعلتم المؤمنين الكاملى الايمان عندكم ليسوا مسلمين وهذا شر من قول الكرامية ويلزم ان الفساق من أهل القبلة ليسوا مسلمين وهذا شر من قول الخوارج والمعتزلة وغيرهم بل وأن يكون من ترك التطوعات ليس مسلماً اذ كانت التطوعات طاعة لله ان جعلتم كل طاعة فرضاً أو نفلا اسلاما ثم هذا خلاف مااحتججتم به من قوله للأعراب لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا فاثبت لهم الاسلام دون الايمان وأيضاً فاخراجكم الفساق من اسم الاسلام ان أخرجتموهم أعظم شناعة من اخراجهم من اسم الايمان فوقعتم فى أعظم ماعبتموه على المعتزلة فان الكتاب والسنة ينفى عنهم اسم الايمان أعظم مما ينفى اسم الاسلام واسم الايمان في الكتاب والسنة أعظم وان قلتم بل كل من فعل طاعة سمي مسلماً لزم أن يكون من فعل طاعة من الطاعات ولم يتكلم بالشهادتين مسلماً ومن صدق بقلبه ولم يتكلم بلسانه أن يكون مسلماً عندكم لأن الايمان عندكم اسلام فمن أتى به فقد أتى بالاسلام فيكون مسلماً عندكم من تكلم بالشهادتين ولا أتي بشيء من الاعمال واحتجاجكم بقوله (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) فانتم نفى عنهم الايمان وأثبت لهم الاسلام .. فيقال هذه الآية حجة عليكم لانه لما أثبت الاسلام مع انتفاء الايمان دل ذلك على أن الايمان ليس بجزء من الاسلام اذ لو كان بعضه لماكانوا مسلمين ان لم يأتوا به وان قلتم أردنا بقولنا أثبت لهم الاسلام أي اسلاماً ما فان كل طاعة من الاسلام اسلام عندنا لزمكم ماتقدم من أن يكون صوم يوم اسلاما وصدقة درهم اسلاما وأمثال ذلك وهم يقولون كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً قالوا هذا من حيث الاطلاق والا فالتفصيل ماذكرناه من أن الايمان خصلة من خصال الاسلام والدين وليس هو جميع الاسلام والدين فان الاسلام هو الاستسلام لله بفعل كل طاعة وقعت موافقة للأمر والايمان أعظم خصلة من خصال الاسلام واسم الاسلام شامل لكل طاعة انقاد بها العبد لله من ايمان وتصديق وفرض سواه ونفل غير انه لايصح التقرب بفعل ماعدا الايمان من الطاعات دون تقديم فعل الايمان قالوا والدين مأخوذ من التدين وهو قريب من الاسلام في المعنى .. فيقال لهم اذاكان هذا قولهم فقولكم كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا يناقض هذا فان المسلم هو المطيع لله ولا تصح الطاعة من أحد الا مع الايمان فيمتنع أن يكون أحد فعل شيئاً من الاسلام الا وهو مؤمن ولو كان ذلك أدنى الطاعات فيجب أن يكون كل مسلم مؤمناً سواء أريد بالاسلام فعل جميع الطاعات أو فعل واحدة منها وذلك لايصح كله الا مع الايمان وحينئذ فالآية حجة عليكم

لالكم ثم قولكم كل مؤمن مسلم وانكم تريدون بالايمان تصديق القلب فقط فيلزم أن يكون الرجل مسلماً ولولم يتكلم بالشهادتين ولا أتي بشيء من الاعمال المأمور بها وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من دين الاسلام بل عامة اليهود والنصاري يعلمون ان الرجل لايكون مسلماً حتى يأتي بالشهادتين أو مايقوم مقامهما وقولكم كل مؤمن مسلم لاتريدون انه أتى بالشهادتين ولابشيء من المباني الخمس بل أتى بما هو طاعة وتلك طاعة باطنة وليس هذا هو المسلم المعروف فى الكتاب والسنة ولاعند الأئمة الاولين والآخرين ثم استدللتم بالآية والاعراب انما أتوا باسلام ظاهر نطقوا فيه بالشهادتين سواء كانوا صادقين أو كاذبين فاثبت الله لهم الاسلام دون الايمان فيظن من لايعرف حقيقة الامران هذا هو قول السلف الذي دل عليه الكتاب والسنة من أن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً وبينهما من التباين أعظم مما بين قول السلف وقول المعتزلة في الايمان والاسلام فان قول المعتزلة فى الايمان والاسلام أقرب من قول الجهمية بكثير ولكن قولهم فى تخليد أهل القبلة أبعد عن قول السلف من قول الجهمية فالمتأخرون الذين نصروا قول جهم فى مسئلة الايمان يظهرون قول السلف في هذا وفى الاستثناء وفى انتفاء الايمان الذي فى القلب حيث نفاه القرآن ونحو ذلك وذلك كله موافق للسلف فى مجرد اللفظ والا فقولهم فى غاية المباينة لقول السلف ليس فى الاقوال أبعد عن السلف منه وقول المعتزلة والخوارج والكرامية فى اسم الايمان والاسلام أقرب الى قول السلف من قول الجهمية لكن المعتزلة والخوارج يقولون بتخليد العصاة وهذا أبعد عن قول السلف من كل قول فهم أقرب فى الاسم وأبعد في الحكم والجهمية وان كانوا في قولهم بأن الفساق لايخلدون أقرب في الحكم الى السلف فقولهم في مسمي الاسلام والايمان وحقيقتهما أبعد من كل قول عن عن الكتاب والسنة وفيه من مناقضة العقل والشرع واللغة مالايوجد مثله لغيرهم

(فصل) ومما يدل من القرآن على أن الايمان المطلق مستلزم للاعمال قوله تعالى (انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون) فنفي الايمان عن غير هؤلاء فمن كان اذا ذكر بالقرآن لايفعل مافرضه الله عليه من السجود لم يكن من المؤمنين وسجود الصلوات الخمس فرض باتفاق المسلمين وأما سجود التلاوة ففيه نزاع وقد يحتج بهذه الآية من يوجبه لكن ليس هذا موضع بسط هذه المسئلة فهذه الآية مثل قوله (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) وقوله (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) وقوله (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) ومن ذلك قوله تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتي يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين انما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم والآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) وهذه الآية مثل قوله (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) وقوله (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء) بين سبحانه ان الايمان له لوازم وله أضداد موجودة يستلزم ثبوت لوازمه وانتفاء

أضداده ومن أضداده موادة من حاد الله ورسوله ومن أضـداده استئذانه في ترك الجهاد ثم صرح بان استئذانه انما يصدر من الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر ودل قوله والله عليم بالمتقين على أن المتقـين هم المؤمنون ٠٠ ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم لايزني الزاني حـين يزني وهو مؤمن وقوله لايؤمن من لايأمن جاره بوائقه وقوله لاتؤمنوا حتى تحابوا وقوله لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين وقوله لايؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه من الخـير مايحب لنفسه وقوله من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا

(فصل) وأما اذا قيد الايمان فقرن بالاسلام أو بالعمل الصالح فانه قد يراد به مافي القلب من الايمان باتفاق الناس وهل يراد به أيضاً المعطوف عليه ويكون من باب عطف الخاص على العام أو لايكون حين الاقتران داخلا في مسماه بل لا يكون لازما له على مذهب أهل السنة لا يكون بعضا ولا لازما هذا فيه ثلاثة أقوال للناس كما سيأتي ان شاء الله وهذا موجود في عامـة الاسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد مثال ذلك اسم المعروف والمنكر اذا أطلق كما في قوله تعالى (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) وقوله (كنتم خـير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) وقوله (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) يدخل في المعروف كل خير وفي المنكر كل شر ثم قد يقرن بما هو أخص منه كقوله (لاخير في كثير من نجواهم الا من أمر بصـدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) فغاير بين المعروف وبين الصدقة والاصلاح بين الناس كما غاير بين اسم الايمان والعمل واسم الايمان والاسلام وكذلك قوله تعالى (ان الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر) غاير بينهما وقد دخلت الفحشاء في المنكر في قوله (وينهى عن المنكر) ثم ذكر مع المنكر اثنين في قوله (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربي وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي) جعـل البغي هنا مغايرا لهما وقد دخل في المنكر في ذينك الموضعين ٠٠ ومن هذا الباب لفظ العبادة فاذا أمر بعبادة الله مطلقاً دخل في عبادته كل ماأمر الله فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به فيدخل ذلك في مثل قوله (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) وفي قوله (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) وقوله (ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم) وقوله (انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبـد الله مخلصا له الدين ٠ قل الله أعبد مخلصا له ديني) وقوله (أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) ثم قد يقرن بها اسم آخر كما في قوله (اياك نعبد واياك نستعين) وقوله (فاعبده وتوكل عليه) وقول نوح (اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله دخل في طاعته كل ماأمر به وكانت طاعة الرسول داخلة في طاعته وكذا اسم التقوي اذا أفرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور قال طلق بن حبيب التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصـية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما في قوله (ان المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر) وقد يقرن بها اسم آخر كقوله (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقوله (انه من يتق

ويصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين) وقوله (واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام) وقوله (اتقوا الله وقولوا قولا سديداً) وقوله (اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقوله (اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن الا وأنتم مسلمون) وأمثال ذلك فقوله (اتقوا الله وقولوا قولا سديداً) مثل قوله (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وقوله (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) فعطف قولهم على الايمان كما عطف القول السديد على التقوي ومعلوم أن التقوى اذا أطلقت دخل فيها القول السديد وكذلك الايمان اذا أطلق دخل فيه السمع والطاعة لله وللرسول وكذلك قوله آمنوا بالله ورسوله واذا أطلق الايمان بالله فى حق أمة محمد دخل فيه الايمان بالرسول وكذلك قوله كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واذا أطلق الايمان بالله دخل فيه الايمان بهذه التوابع وكذلك قوله (والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) وقوله (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الي ابراهيم) الآية واذا قيل فى قوله (آمنوا بالله ورسوله النبيّ الاميّ) دخل فى الايمان برسوله الايمان بجميع الكتب والنبيين وكذلك اذا قيل (آمنوا بالله ورسوله يؤتكم كفلين من رحمته) واذا قيل آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) دخل في الايمان بالله ورسوله الايمان بذلك كله والانفاق يدخل فى قوله في الآية الاخري آمنوا بالله ورسوله كما يدخل القول السديد في مثل قوله (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب) وكذلك لفظ البر اذا أطلق تناول جميع ما أمر الله به كما في قوله (ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم) وقوله (ولكن البر من اتقى) وقوله (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربي واليتامي والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) فالبر اذا أطلق كان مسماه مسمى التقوي والتقوى اذا أطلقت كان مسماها مسمى البر ثم قد يجمع بينهما كما في قوله تعالي (وتعاونوا على البر والتقوي) وكذلك لفظ الاثم اذا أطلق دخل فيه كل ذنب وقد يقرن بالعدوان كما فى قوله تعالى (ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) وكذلك لفظ الذنوب اذا أطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم كما في قوله (ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا) ثم قد يقرن بغيره كما في قوله (ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا) وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعاً فيدخل فيه كل ما أمر به كما فى قوله (اهدنا الصراط المستقيم) والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعاً وكذلك قوله هدي للمتقين المراد به انهم يعلمون مافيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة (الحمد لله الذي هدانا لهذا) وانما هداهم بان ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما في قوله (واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم) وكما في قوله شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه (الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب) وكذلك قوله تعالي (هو الذى أرسل رسوله

بالهدي ودين الحق) والهدي هنا الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدي كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدي سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله (انهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون) وقوله (ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) وقوله (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) ثم يقترن بالغي أو الغضب كما فى قوله (ماضل صاحبكم وما غوى) وفي قوله (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وقوله (ان المجرمين فى ضلال وسعر) وكذلك لفظ الغي اذا أطلق تناول كل معصية لله كما فى قوله عن الشيطان (لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين) وقد يقرن بالضلال كما في قوله (ماضل صاحبكم وما غوي) . وكذلك اسم الفقير اذا أطلق دخل فيه المسكين واذا أطلق لفظ المسكين تناول الفقير واذا قرن بينهما فاحدهما غير الآخر فالاول كقوله (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) وقوله (فكفارته اطعام عشرة مساكين) والثاني كقوله (انما الصدقات للفقراء والمساكين) وهذه الاسماء التي تختلف دلالتها بالاطلاق والتقييد والتجريد والاقتران تارة يكونان اذا أفرد أحدهما أعم من ذلك الآخر كاسم الايمان والمعروف مع العمل ومع الصدق وكالمنكر مع الفحشاء ومع البغى ونحو ذلك وتارة يكونان متساويين فى العموم والخصوص كلفظ الايمان والبر والتقوي ولفظ الفقير والمسكين فايها أطلق تناول ما يتناوله الآخر وكذلك لفظ التلاوة فانها اذا أطلقت في مثل قوله (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) تناولت العمل به كما فسره بذلك الصحابة والتابعون مثل ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم قالوا يتلونه حق تلاوته يتبعونه حق اتباعه فيحلون حلاله ويحرمون حرامه ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه وقيل هو من التلاوة بمعنى الاتباع كقوله (والقمر اذا تلاها) وهذا يدخل فيه من لم يقرأه وقيل بل من تمام قراءته أن يفهم معناه ويعمل به كما قال أبو عبد الرحمن السلمى حدثنا الذين كانوا يقرؤننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما انهم كانوا اذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزها حتى يتعلموا مافيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً وقوله (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته قد فسر بالقرآن وفسر بالتوراة وروى محمد بن نصر باسناده الثابت عن ابن عباس (يتلونه حق تلاوته) قال يتبعونه حق اتباعه .. وروي أيضاً عن ابن عباس يتلونه حق تلاوته قال يحلون حلاله ويحرمون حرامه ولا يحرفونه عن مواضعه وعن قتادة يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به قال أولئك أصحاب محمد آمنوا بكتاب الله وصدقوا به أحلوا حلاله وحرموا حرامه وعملوا بما فيه ذكر لنا ابن مسعود كان يقول ان حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه وأن نقرأه كما أنزل الله ولا نحرفه عن مواضعه وعن الحسن يتلونه حق تلاوته قال يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ما أشكل عليهم الي عالمه وعن مجاهد يتبعونه حق اتباعه وفي رواية يعملون به حق عمله .. ثم قد يقرن بالتلاوة غيرها كقوله (أتل ما أوحي اليك من الكتاب وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) .. قال أحمد بن حنبل وغيره تلاوة الكتاب العمل بطاعة الله كلها ثم خص الصلاة بالذكر كما فى قوله

(والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة) وقوله (فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى) وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله (اتبعوا ماأنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) وقوله (فمن اتبع هداى فلا يضـل ولا يشقى) وقوله (وأنّ هـذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقد يقرن به غـيره كقوله (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) وقوله (واتبع ماأوحى اليك من ربك لااله الا هو وأعرض عن المشركين) وقوله (واتبع ماأوحي اليك واصبرحتي يحكم الله وهو خيرالحاكمين)٠٠وكذلك لفظ الابرار اذا أطلق دخل فيه كل تقى من السابقين والمقتصـدين واذا قرن بالمقربين كان أخص قال تعالى فى الاول (ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم) وقال في الثاني (ان كتاب الابرار لفى عليين وما أدراك ماعليون كتاب مرقوم يشهده المقربون) وهذا باب واسع يطول استقصاؤه٠٠ ومن أنفع الامور فى معرفة دلالة الالفاظ مطلقاً وخصوصا ألفاظ الكتاب والسنة وبه تزول شبهات كثيرة كثر فيها نزاع الناس من جملتها مسئلة الايمان والاسـلام فان النزاع في مسماها أول اختلاف وقع افترقت الامة لاجـله وصاروا مختلفين في الكتاب والسنة وكفر بعضهم بعضاً وقاتل بعضهم بعضاً كما قد بسطنا هـذا في مواضع أخر اذ المقصود هنا بيان شرح كلام الله ورسوله على وجه يبين أن الهدي كله مأخوذ من كلام الله ورسوله باقامة الدلائل الدالة لابذكر الاقوال التي لاتقبل بلا دليل وترد بلا دليل أو يكون المقصود بها نصر غـير الله والرسول فان الواجب أن يقصد معرفة ماجاء به الرسول واتباعه بالادلة الدالة على مابينه الله ورسوله ٠٠ ومن هـذا الباب أقوال السلف وأئمة السنة في تفسير الايمان فتارة يقولون هو قول وعمل وتارة يقولون هو قول وعمل ونية وتارة يقولون قول وعمل ونية واتباع السنة وتارة يقولون قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح وكل هذا صحيح فاذا قالوا قول وعمل فانه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعا وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ونحو ذلك اذا أطلق والناس لهم في مسمي الكلام والقول عند الاطلاق أربعة أقوال فالذى عليه السلف والفقهاء والجمهور أنه يتناول اللفظ والمعني جميعاً كما يتناول لفظ الانسان للبدن والروح جميعاً ٠٠ وقيل بل مسماه هو اللفظ والمعني ليس جزء مسماه بل هومدلول مسماه وهـذا قول كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وطائفة من المنتسبين الى السـنة وهو قول النحاة لان صناعتهم متعلقة بالالفاظ ٠٠ وقيـل بل مسماه هو المعنى واطلاق الكلام على اللفظ مجاز لانه دال عليـه وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه وقيل بل هو مشترك بين اللفظ والمعنى وهو قول بعض المتأخرين من الكلابية ولهم قول ثالث يروى عن أبى الحسن انه مجاز فى كلام الله حقيقة في كلام الآدميين لان حروف الآدميين تقوم بهم فلا يكون الكلام قائماً بغير المتكلم بخلاف الكلام القرآنى فانه لايقوم عنده بالله فيمتنع أن يكون كلامه ولبسط هذا موضع آخر ٠٠ والقصود هنا أن من قال من السلف الايمان قول وعمل أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ومن أراد الاعتقاد رأي أن لفظ القول لا يفهم منه الا القول الظاهر أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب ومن قال قول وعمل ونية قال القول يتناول الاعتقاد

وقول اللسان وأما العمل فقد لايفهم منه النية فزد ذلك ومن زاد اتباع السنة فلأن ذلك كله لايكون محبوبا لله الا باتباع السنة وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل انما أرادوا ما كان مشروعا من الاقوال والاعمال ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولا فقط فقالوا بل هو قول وعمل والذين جعلوه أربعة فسروا مرادهم كما سئل سهل بن عبد الله التسترى عن الايمان ماهو فقال قول وعمل ونية وسنة الايمان اذا كان قولا بلا عمل فهو كفر واذا كان قولا وعملا بلا نية فهو نفاق واذا كان قولا وعملا ونية بلا سنة فهو بدعة

(فصل) وعطف الشئ على الشئ فى القرآن وسائر الكلام يقتضي مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فى الحكم الذى ذكر لهما والمغايرة على مراتب أعلاها أن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر ولاجزءه ولا يعرف لزومه له كقوله (خلق الله السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام) ونحو ذلك وقوله (وجبريل وميكال) وقوله (وأنزل التوراة والانجيل والقرآن) وهذا هو الغالب ويليه أن يكون بينهما لزوم كقوله (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق) وقوله (ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدي ويتبع غير سبيل المؤمنين) وقوله (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله) فان من كفر بالله فقد كفر بهذا كله فالمعطوف لازم للمعطوف عليه وفى الآية التي قبلها المعطوف عليه لازم فانه من يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين وفى الثانى نزاع وقوله (لا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق) هما متلازمان فان من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوسا به خفى من الحق بقدر ماظهر من الباطل فصار ملبوسا ومن كتم الحق احتاج أن يقيم موضعه باطلا فيلبس الحق بالباطل ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ماأنزل الله فلا بد أن يظهر باطلا وهكذا أهل البدع لا تجد أحداً ترك بعض السنة التي يجب التصديق بها والعمل الا وقع فى بدعة ولا تجد صاحب بدعة الا ترك شيئاً من السنة كما جاء فى الحديث ماابتدع قوم بدعة الا تركوا من السنة مثلها رواه الامام أحمد وقد قال تعالى (فنسوا حظا مما ذكروا به فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء) فلما تركوا حظا مما ذكروا به اعتاضوا بغيره فوقعت بينهم العداوة والبغضاء وقال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) أي عن الذكر الذى أنزله الرحمن وقال تعالى (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمي) وقال (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون) فأمر باتباع ماأنزل ونهي عما يضاد ذلك وهو اتباع أولياء من دونه فمن لم يتبع أحدهما اتبع الآخر ولهذا قال ويتبع غير سبيل المؤمنين قال العلماء من لم يكن متبعا سبيلهم كان متبعا غير سبيلهم فاستدلوا بذلك على ان اتباع سبيلهم واجب فليس لاحد أن يخرج عما أجمعوا عليه وكذلك من لم يفعل المأمور فعل بعض المحظور ومن فعل المحظور لم يفعل جميع المأمور فلا يمكن الانسان أن يفعل جميع ماأمر مع فعله لبعض ماحظر ولا يمكنه ترك كل ماحظر مع تركه لبعض ماأمر فان ترك ماحظر من جملة ماأمر به فهو مأمور ومن المحظور ترك المأمور فكل ماشغله عن الواجب

فهو محرم وكل مالا يمكن فعل الواجب الابه فعليه فعله ولهذا كان لفظ الامر اذا أطلق يتناول النهي واذا قيد بالنهي كان النفي نظير ماتقدم فاذا قال تعالى عن الملائكة (لا يعصون الله ما أمرهم) دخل فى ذلك انه اذا نهاهم عن شئ اجتنبوه وأما قوله (ويفعلون مايؤمرون) فقد قيل لا يتعدون ما أمروا به وقيل يفعلونه في وقته لا يقدمونه ولا يؤخرونه وقد يقال هو لم يقل ولا يفعلون الا مايؤمرون بل هذا دل عليه قوله (لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) وقدقيل لايعصون ماأمرهم فى الماضى ويفعلون مايؤمرون فى المستقبل وقد يقال هذه الآية خبر عما سيكون ليس ماأمروا به هنا ماضيا بل الجميع مستقبل فانه قال (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) وما يتقى به انما يكون مستقبلا وقديقال ترك المأمور تارة يكون لمعصية المأمور وتارة يكون لعجزه فاذا كان قادراً مريدا لزم وجود الامور المقدورة فقوله لا يعصون لا يمتنعون عن الطاعة وقوله ويفعلون مايؤمرون أى هم قادرون على ذلك لا يعجزون عن شئ منــه بل يفعلونه كله فيلزم وجود كل ماأمروا به وقد يكون فى ضمن ذلك انهم لايفعلون الا المأموربه كما يقول القائل أنا أفعل ما أمرت به أى افعله ولاأتعداه الى زيادة ولانقصان وأيضاً فقوله (لايعصون الله ماأمرهم) ان كان نهاهم عن فعل آخر كان ذلك من أمره وان كان لم ينههم لم يكونوا مذمومين بفعل مالم ينهوا عنه والمقصود ان لفظ الامر اذا أطلق تناول النهي ومنه قوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر) أى أصحـاب الامر ومن كان صاحب الامر كان صاحب النهي ووجبت طاعتــه فى هذا وهذا فالنهي داخل فى الامر وقال موسى للخضر (ستجدني ان شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ حتي أحدث لك منه ذكرا) وهذا نهي له عن السؤال حتى يحدث له منه ذكرا ولما خرق السفينة قال له موسى (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً) فسأله قبل احداث الذكر وقال في الغلام (أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً) فسأله قبل احداث الذكر وقال عن الجدار (لوشئت لاتخذت عليه أجراً) وهذا سؤال من جهة المعنى فان السؤال والطلب قد يكون بصيغة الشرط كما تقول لو نزلت عندنا لاكرمناك وان بت الليلة عندنا أحسنت الينا ومنه قول آدم (ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقول نوح (رب انى أعوذ بك ان أسألك ماليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) ومثله كثير ولهذا قال موسي (ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى) فدل على انه سأله الثلاث قبل أن يحدث الذكر وهذا معصية لنهيه وقد دخل فى قوله ولا أعصى لك أمرا فدل على ان عاصي النهي عاصى الامر ومنه قوله تعالى (الا له الخلق والامر) وقد دخل النهى في الامر ومنه قوله (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) وقوله (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضي الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) فان نهيه داخل فى ذلك وقد تنازع الفقهاء فى قوله لامرأته اذا عصيت أمري فأنت طالق اذا نهاها فعصته هل يكون ذلك داخلا فى قوله على قولين قيل لا يدخل لان حقيقة النهي غير حقيقة الامر وقيل يدخل لان ذلك يفهم منه في العرف معصية الامر والنهي وهذا هو الصواب لان ماذكر فى العرف هو حقيقة في اللغة والشرع فان الامر المطلق فى كل متكلم اذا قيل أطع أمر فلان أوفلان يطيع أمر فلان

أولا يعصى أمره فانه يدخل فيه النهي لان الناهي آمر بترك المنهي عنه فلهذا قال سبحانه (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) ولم يقل لا تكتموا الحق فلم ينه عن كل منهما لتلازمهما وليست هذه واو الجمع التى يسميها الكوفيون واو الصرف كما قد يظنه بعضهم فانه كان يكون المعنى لاتجمعوا بينهما فيكون أحدهما وحده غير منهى عنه وأيضاً فتلك انما تجىء اذا ظهر الفرق كقوله (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) وقوله (أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ويعلم الذين يجادلون في آياتنا مالهم من محيص) ومن عطف الملزوم قوله تعالي (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم) فانهم اذا أطاعوا الرسول فقد أطاعوا الله كما قال تعالي (من يطع الرسول فقد أطاع الله) واذا أطاع من بلغته رسالة محمد الله فانه لا بد أن يطيع الرسول فانه لا طاعة لله الا بطاعته والثالث عطف بعض الشيء عليه كقوله (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطي) وقوله (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسي وعيسى بن مريم) وقوله (من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) وقوله (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها) والرابع عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين كقوله (سبح اسم ربك الاعلى الذى خلق فسوي والذى قدر فهدي والذي أخرج المرعي) وقوله (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) وقد جاء في الشعر ماذكر انه عطف لاختلاف اللفظ فقط كقوله * وألفى قولها كذبا ومينا* ومن الناس من يدعي ان مثل هذا جاء فى كتاب الله كما يذكرونه فى قوله شرعة ومنهاجا وهذا غلط مثل هذا لا يجيء فى القرآن ولا فى كلام فصيح وغاية مايذكرمنها يذكر الناس اختلاف معنى اللفظ كما ادعى بعضهم ان من هذا قوله

ألا حبذا هند وأرض بها هند * وهند أتي من دونها النأى والبعد

فزعموا انهما بمعنى واحد واستشهدوا بذلك على مادعوه من ان الشرعة هى المنهاج فقال لهم المخالفون لهم النأى أعم من البعد فان النأي كلما قل بعده أو كثر كأنه مثل المفارقة والبعد انما يستعمل فيما كثرت مسافة مفارقته وقد قال تعالى (وهم ينهون عنه وينأون عنه) وهم مذمومون على مجانبته والتنحى عنه سواء كانوا قريبين أو بعيدين وليس كلهم كان بعيداً عنه لا سيما عند من يقول نزلت في أبي طالب وقد قال النابغة * والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد * والمراد به مايحفر حول الخيمة لينزل فيه الماء ولا يدخل الخيمة أي صار كالحوض فهو مجانب للخيمة ليس بعيدا منها

(فصل) فاذا تبين هذا فلفظ الايمان اذا أطلق فى القرآن والسنة يراد به مايراد بلفظ البر وبلفظ التقوى وبلفظ الدين كما تقدم فان النبي صلى الله عليه وسلم بين ان الايمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الأذى عن الطريق فكان كل مايحبه الله يدخل فى اسم الايمان وكذلك لفظ البر يدخل فيه جميع ذلك اذا أطلق وكذلك لفظ التقوى وكذلك الدين أو دين الاسلام وكذلك روى انهم سألوا عن الايمان فأنزل الله هذه الآية (ليس البر ان تولوا وجوهكم) الآيات وقد فسر البر بالايمان

وفسر بالتقوي وفسر بالعمل الذى يقرب الى الله والجميع حق وقد روى مرفوعا الي النبي صلى الله عليه وسلم انه فسر البر بالايمان قال محمد بن نصر حدثنا اسحاق بن ابراهيم حدثنا عبد الله بن يزيد المقري والملائي قالا حدثنا المسعودي عن القاسم قال جاء رجل الى أبى ذر فسأله عن الايمان فقرأ (ليس البر ان تولوا وجوهكم) الى آخر الآية فقال الرجل ليس عن البر سألتك فقال جاء رجل الي النبى صلى الله عليه وسلم فسأله عن الذى سألتني عنه فقرأ عليه الذي قرأت عليك فقال له الذي قلت لي فلما أبي أن يرضى قال له ان المؤمن الذى اذا عمل الحسنة سرته ورجا ثوابها واذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها وقال حدثنا اسحاق حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن عبد الكريم الجزرى عن مجاهد ان أبا ذر سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقرأ عليه (ليس البر أن تولوا وجوهكم) الى آخر الآية وروى باسناده عن عكرمة قال سئل الحسن بن على بن أبى طالب مقبله من الشام عن الايمان فقرأ (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) وروي ابن بطة باسناده عن مبارك بن حسان قال قلت لسالم الافطس رجل أطاع الله فلم يعصه ورجل عصي الله فلم يطعه فصار المطيع الي الله فادخله الجنة وصار العاصي الى الله فأدخله النار هل يتفاضلان فى الايمان قال لا قال فذكرت ذلك لعطاء فقال سلهم الايمان طيب أوخبيث فان الله قال (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون) فسألتهم فلم يجيبونى فقال بعضهم ان الايمان يبطن ليس معه عمل فذكرت ذلك لعطاء فقال سبحان الله اما يقرؤن الآية التي فى البقرة (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) قال ثم وصف الله على هذا الاسم مالزمه من العمل فقال (وآتى المال على حبه ذوى القربي واليتامي والمساكين وابن السبيل الى قوله وأولئك هم المتقون) فقال سلهم هل دخل هذا العمل فى هذا الاسم وقال (ومن أراد الآخرة وسعي لها سعيها وهو مؤمن) فألزم الاسم العمل والعمل الاسم والمقصود هنا انه لم يثبت المدح الا على ايمان معه العمل لا على ايمان خال عن عمل فاذا عرف أن الذم والعقاب واقع فى ترك العمل كان بعد ذلك نزاعهم لا فائدة فيه بل يكون نزاعا لفظياً مع انهم مخطؤن في اللفظ مخالفون للكتاب والسنة وان قالوا انه لايضره ترك العمل فهذا كفر صريح وبعض الناس يحكى هذا عنهم وانهم يقولون ان الله فرض على العباد فرائض ولم يردمنهم أن يعملوها ولا يضرهم تركها وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون لايدخل النار من أهل التوحيد أحد لكن ماعلمت معينا أحكى عنه هذا القول وانما الناس يحكونه فى الكتب ولا يعينون قائله وقد يكون من لا خلاق من الفساق والمنافقين يقولون لايضر مع الايمان ذنب أو مع التوحيد وبعض كلام الرادين على المرجئة وصفهم بهذا ويدل على ذلك قوله تعالي فى آخر الآية (أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) فقوله صدقوا أي فى قولهم آمنا كقوله (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) الي قوله (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) أي هم الصادقون فى قولهم آمنا بالله بخلاف الكاذبين

الذين قال الله فيهم (اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) وقال تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بماكانوا يكذبون) ويكذّبون قراءتان مشهورتان فانهم كذبوا فى قولهم آمنا بالله واليوم الآخر وكذبوا الرسول فى الباطن وان صدقوه في الظاهر وقال تعالى (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) فبين أنه لابد أن يفتن الناس وأن يمتحنهم ويبتليهم ويختبرهم يقال فتنت الذهب اذا أدخلته النار لتميزه مما اختلط به ومنه قول موسى (ان هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء) أى محنتك وابتلاؤك كما ابتليت عبادك بالحسنات والسيئات ليتبين الصبار الشكور من غيره وابتليتهم بارسال الرسل وانزال الكتب ليتبين المؤمن من الكافر فيجعل ذلك سبباً لضلالة قوم وهدى آخرين والقرآن فيه كثير من هذا يصف المؤمنين بالصدق والمنافقين بالكذب لان الطائفتين قالت بألسنتهم آمنا فمن حقق قوله بعمله فهو مؤمن صادق ومن قال بلسانه ماليس في قلبه فهو كاذب قال تعالى (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون) فلما قال في آية البر (أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) دل على أن المراد صدقوا في قولهم آمنا فان هذا هو القول الذي أمروا به وكانوا يقولونه ولم يؤمروا أن يلفظوا بألسنتهم ويقولوا نحن أبرار أو بررة بل اذا قال الرجل أنا بر فهذا مزك لنفسه ولهذا كانت زينب بنت جحش اسمها برة فقيل تزكى نفسها فسماها النبى صلى الله عليه وسلم زينب بخلاف انشاء الايمان بقولهم آمنا فان هذا قد فرض عليهم أن يقولوه قال تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسي وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم) وكذلك في أول آل عمران (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم) وقال تعالي (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله) فقوله لانفرق دليل على أنهم قالوا آمنا ولا نفرق ولهذا قال وقالوا سمعنا وأطعنا فجمعوا بين قولهم آمنا وبين قولهم سمعنا وأطعنا وقد قال في آية البر (وأولئك هم المتقون) فجعل الابرار هم المتقين عند الاطلاق والتجريد وقد ميز بينهما عند الاقتران والتقييد في قوله (وتعاونوا على البر والتقوي) ودلت هذه الآية على أن مسمى الايمان ومسمى البر ومسمى التقوي عند الاطلاق واحد فالمؤمنون هم المتقون وهم الابرار ٠٠ ولهذا جاء فى حديث الشفاعة الصحيحة يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من ايمان وفي بعضها مثقال ذرة من خير وهذا مطابق لقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وذلك الذي هو مثقال ذرة من خير هو مثقال ذرة من ايمان وهؤلاء

المؤمنون الابرار الاتقياء هم أهـل السعادة المطلقة وهم أهل الجنة الذين وعدوا بدخولها بلا عـذاب وهؤلاء الذين قال النبى صلى الله عليه وسـلم من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا فانه ليس من هؤلاء بل من أهل الذنوب المعرضين للوعيد إسوة أمثالهم

﴿ فصـل ﴾ وهذا النوع من نمط أسماء الله وأسماء كتابه وأسماء رسوله وأسماء دينه قال الله تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسـني) وقال تعالي (ولله الاسماء الحسـني فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) وقال تعالي (هو الله الذى لااله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالقُ البارئُ المصور له الاسماء الحسنى يسبح له مافي السموات والارض وهو العزيز الحكيم] فاسماؤه كلها متفقة فى الدلالة على نفسه المقدسة ثم كل اسم يدل على معنى من صفاته ليس هو المعنى الذي دل عليه الاسم الآخر فالعزيز يدل على نفسه مع عزته والخالقُ يدل على نفسه مع خلقه والرحيم يدل على نفسه مع رحمته ونفسه تستلزم جميع صفاته فصار كل اسم يدل على ذاته والصفة المختصة به بطريق المطابقة وعلى أحدهما بطريق التضمن وعلى الصفة الاخرى بطريق اللزوم وهكذا أسماء كتابه القرآن والفرقان والكتاب والهدى والبيان والشفاء والنور ونحو ذلك هي بهذه المنزلة وكذلك أسماء رسوله محمـد وأحمد والماحى والحاشر والمقفّى ونبيّ الرحمة ونبيّ التوبة ونبيّ الملحمة كل اسم يدل على صفة من صفاته الممدوحة غير الصـفة الاخرى وهكذا مايثنى ذكره من القصص فى القراءة كقصة موسى وغيرها ليس المقصود بها أن تكون سمرا بل المقصود بها أن تكون عبرا كما قال تعالي (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الالباب) فالذى وقع شئ واحد له صفات فيعبر عنـه بعبارات متنوعة كل عبارة تدل على صفة من الصفات التى يعتبر بها المعتبرون وليس هذا من التكرير فى شئ وهكذا أسماء دينه الذى أمر الله به ورسوله يسمى ايمانا وبراً وتقوى وخيراً وديناً وعمـلاً صالحاً وصراطاً مستقيماً ونحو ذلك وهو فى نفسه واحد لكن كل اسم يدل على صفة ليست هى الصـفة التى يدل عليها الآخر وتكون تلك الصفة هي الاصل فى اللفظ والباقي كان تابعاً لها لازمالها ثم صارت دالة عليه بالتضمن فان الايمان أصـله الايمان الذي فى القلب ولابد فيه من شيئين تصديق بالقلب واقراره ومعرفته ويقال لهذا قول القلب قال الجنيد بن محمد التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب فلا بد فيه من قول القلب وعمله ثم قول البدن وعمله ولا بد فيه من عمل القلب مثـل حب الله ورسوله وخشية الله وحب مايحبه الله ورسوله وبغض مايبغضـه الله ورسوله واخلاص العمل لله وحده وتوكل القلب على الله وحده وغـير ذلك من أعمال القلوب التى أوجبها الله ورسوله وجعلها من الايمان ثم القلب هو الاصل فاذا كان فيه معرفة وارادة سري ذلك الى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسـلم فى الحديث الصحيح ألاَ وإن فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألاَ وهي القلب وقال أبو هريرة القلب ملك والاعضاء جنوده فاذا طاب الملك طابت جنوده

واذا خبث الملك خبثت جنوده وقول أبي هريرة تقريب وقول النبي صلي الله عليه وسلم أحسن بيانا فان الملك وان كان صالحاً فالجند لهم اختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس فيكون فيهم صلاح مع فساده أو فساد مع صلاحه بخلاف القلب فان الجسد تابع له لايخرج عن ارادته قط كما قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسد لها سائر الجسد فاذا كان القلب صالحاً بما فيه من الايمان علماً وعملاً قلبياً لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالايمان المطلق كما قال أهل الحديث قول وعمل قول باطن وظاهر وعمل باطن وظاهر والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر واذافسد فسد ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلى العابث لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه فلا بد في ايمان القلب من حب الله ورسوله وأن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما قال الله تعالي (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله) فوصف الذين آمنوا بأنهم أشد حباً لله من المشركين وفى الآية قولان ٠٠ قيل يحبونهم كحب المؤمنين الله والذين آمنوا أشد حباً منهم لاوثانهم ٠٠ وقيل يحبونهم كما يحبون الله والذين آمنوا أشد حباً لله منهم لله وهذا هو الصواب والاول قول متناقض وهو باطل فان المشركين لايحبون الأنداد مثل محبة المؤمنين لله وتستلزم الارادة والارادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل فيمتنع أن يكون الانسان محباً لله ورسوله مريدا لما يحبه الله ورسوله ارادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو لايفعله فاذا لم يتكلم بالايمان مع قدرته دل على أنه ليس في قلبه الايمان الواجب الذي فرضه الله عليه ٠٠ ومن هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه حيث ظنوا أن الايمان مجرد تصديق القلب وعلمه لم يجعلوا أعمال القلب من الايمان وظنوا أنه قد يكون الانسان مؤمناً كامل الايمان بقلبه وهو مع هذا يسب الله ورسوله ويعادي أولياء الله ويوالى أعداء الله ويقتل الانبياء ويهدم المساجد ويهين المصاحف ويكرم الكفار غاية الكرامة ويهين المؤمنين غاية الاهانة قالوا وهذه كلها معاص لاتنافي الايمان الذى فى قلبه بل يفعل هذا وهو في الباطن عند الله مؤمن قالوا وانما ثبت له في الدنيا أحكام الكفار لان هذه الاقوال امارة على الكفر ليحكم بالظاهر كما يحكم بالاقرار والشهود وان كان في الباطن قد يكون بخلاف ماأقر به وبخلاف ماشهد به الشهود فاذا أورد عليهم الكتاب والسنة والاجماع على ان الواحد من هؤلاء كافر فى نفس الامر معذب فى الآخرة قالوا فهذا دليل على انتفاء التصديق والعلم من قلبه فالكفر عندهم شئ واحد وهو الجهل والايمان شئ واحد وهو العلم أو تكذيب القلب وتصديقه فانهم متنازعون هل تصديق القلب شئ غير العلم أو هو هو وهذا القول مع أنه أفسد قول قيل فى الايمان فقد ذهب اليه كثير من أهل الكلام المرجئة وقد كفر السلف كوكيع ابن الجراح وأحمد بن حنبل وأبي عبيد وغيرهم من يقول بهذا القول وقالوا ابليس كافر بنص القرآن وانما كفره باستكباره وامتناعه عن السجود لآدم لا لكونه كذب خبرا وكذلك فرعون وقومه قال الله تعالى فيهم (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا) وقال موسى عليه السلام لفرعون (لقد علمت ماأنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر) بعد قوله (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسئل بني اسرائيل

اذ جاءهم فقال له فرعون اني لاظنك ياموسى مسحورا قال لقد علمت ماأنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر واني لاظنك يا فرعون مثبورا) فموسى وهو الصادق المصدوق يقول (لقد علمت ماأنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر) فدل على ان فرعون كان عالماً بأن الله أنزل الآيات وهو من أكبر خلق الله عناداً وبغياً لفساد ارادته وقصده لا لعدم علمه قال تعالى (ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين) وقال تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) وكذلك اليهود الذين قال الله فيهم (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) وكذلك من المشركين الذين قال الله فيهم (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) فهؤلاء غلطوا فى أصلين أحدهما ظنهم ان الايمان مجرد تصديق وعلم فقط ليس معه عمل وحال وحركة وارادة ومحبة وخشية فى القلب وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقاً فان أعمال القلوب التى يسميها بعض الصوفية أحوالا ومقامات أو منازل السائرين الى الله أو مقامات العارفين أو غير ذلك كلها فيها مما فرضه الله ورسوله فهو من الايمان الواجب وفيها ماأحبه ولم يفرضه فهو من الايمان المستحب فالاول لا بد لكل مؤمن منه ومن اقتصر عليه فهو من الابرار أصحاب اليمين والثاني للمقربين السابقين وذلك مثل حب الله ورسوله بل أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما بل أن يكون الله ورسوله والجهاد فى سبيله أحب اليه من أهله وماله ومثل خشية الله وحده دون خشية المخلوقين ورجاء الله وحده دون رجاء المخلوقين والتوكل على الله وحده دون المخلوقين والانابة اليه مع خشيته كما قال تعالى (هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) ومثل الحب فى الله والبغض فى الله والموالاة لله والمعاداة لله والثانى ظنهم ان كل من حكم الشارع بانه كافر مخلد في النار فانما ذاك لانه لم يكن فى قلبه شيء من العلم والتصديق وهذا أمر خالفوا به الحس والعقل والشرع وما أجمع عليه طوائف بني آدم السليمى الفطرة وجماهير النظار فان الانسان قد يعرف ان الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده اياه أولطلب علوه عليه أولهوي النفس ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدى عليه ويرد مايقول بكل طريق وهو في قلبه يعلم ان الحق معه وعامة من كذب الرسل علموا ان الحق معهم وانهم صادقون لكن إما لحسد هم وإما لارادتهم العلو والرياسة وإما لحبهم دينهم الذى كانوا عليه وما يحصل لهم به من الاغراض كأموال ورياسة وصداقة أقوام وغير ذلك فيرون فى اتباع الرسل ترك الاهواء المحبوبة اليهم أو حصول أمور مكروهة اليهم فيكذبونهم ويعادونهم فيكونون من أكفر الناس كابليس وفرعون مع علمهم بانهم على الباطل والرسل على الحق ولهذا لا يذكر الكفار حجة صحيحة تقدح فى صدق الرسل انما يعتمدون على مخالفة أهوائهم كقولهم لنوح (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) ومعلوم ان اتباع الأرذلين له لايقدح فى صدقه لكن كرهوا مشاركة أولئك كما طلب المشركون من النبى صلى الله عليه وسلم ابعاد الضعفاء كسعد بن أبي وقاص وابن مسعود وخباب بن الارت وعمار بن ياسر وبلال ونحوهم وكان ذلك بمكة قبل أن يكون فى الصحابة أهل صفة فأنزل الله تبارك وتعالي (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة

والعشى يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ فتطردهم فتكون من الظالمين وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) ومثل قول فرعون (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) وقول فرعون (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين) ومثل قول مشركي العرب (ان نتبع الهدي معك نتخطف من أرضنا) قال الله تعالى (أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبي اليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا) ومثل قول قوم شعيب له (أصلاتك تأمرك ان نترك مايعبد آباؤنا وان نفعل فى أموالنا مانشاء (ومثل قول عامة المشركين (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) وهذه الامور وأمثالها ليست حججا تقدح في صدق الرسل بل تبين انها تخالف ارادتهم وأهواءهم وعاداتهم فلذلك لم يتبعوهم وهؤلاء كلهم كفار بل أبوطالب وغيره كانوا يحبون النبى صلى الله عليه وسلم ويحبون علو كلمته وليس عندهم حسد له وكانوا يعلمون صدقه ولكن كانوا يعلمون فى متابعته فراق دين آبائهم وذم قريش لهم فما احتملت نفوسهم ترك تلك العادة واحتمال هذا الذم فلم يتركوا الايمان لعدم العلم بل لهوى النفس فكيف يقال ان كل كافر انما كفر لعدم علمه بالله ولم يكف الجهمية ان جعلوا كل كافر جاهل بالحق حق قالوا هو لا يعرف ان الله موجود حق والكفر عندهم ليس هو الجهل بأى حق كان بل الجهل بهذا الحق المعين ونحن والناس كلهم يرون خلقا من الكفار يعرفون فى الباطن ان دين الاسلام حق ويذكرون مايمنعهم من الايمان إما معاداة أهلهم وإما مال يحصل لهم من جهتهم يقطعونه عنهم وإما خوفهم اذا آمنوا أن لا يكون لهم حرمة عند المسلمين كحرمتهم فى دينهم وأمثال ذلك من أغراضهم التى يبينون انها المانعة لهم من الايمان مع علمهم بان دين الاسلام حق ودينهم باطل وهذا موجود فى جميع الامور التى هي حق يوجد من يعرف بقلبه انها حق وهو في الظاهر يجحد ذلك ويعادى أهله لظنه ان ذلك يجلب له منفعة ويدفع عنه مضرة قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لايهدي القوم الظالمين فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ماأسروا فى أنفسهم نادمين ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم انهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين) والمفسرون متفقون على انها نزلت بسبب قوم ممن كان يظهر الاسلام وفي قلبه مرض خاف أن يغلب أهل الاسلام فيوالي الكفار من اليهود والنصاري وغيرهم للخوف الذي في قلوبهم لا لاعتقادهم ان محمدا كاذب واليهود والنصارى صادقون وأشهر النقول فى ذلك ان عبادة بن الصامت قال يارسول الله ان لى موالى من اليهود وانى ابرأ الي الله من ولاية يهود فقال عبد الله بن أبي لكنى رجل أخاف الدوائر ولا ابرأ من ولاية يهود فنزلت هذه الآية والمرجئة الذين قالوا الايمان تصديق القلب وقول اللسان والاعمال ليست منه كان منهم طائفة من فقهاء الكوفة وعبادها ولم يكن قولهم مثل قول جهم فعرفوا ان الانسان لا يكون مؤمناً ان لم يتكلم بالايمان مع قدرته عليه وعرفوا ان ابليس وفرعون وغيرهما كفار مع تصديق قلوبهم

لكنهم اذا لم يدخلوا أعمال القلوب فى الايمان لزمهم قول جهم وان أدخلوها فى الايمان لزمهم دخول أعمال الجوارح أيضاً فانها لازمة لها ولكن هؤلاء لهم حجج شرعية بسببها اشتبه الامر عليهم فانهم رأوا ان الله قد فرق في كتابه بين الايمان والعمل فقال فى غير موضع (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ورأوا ان الله خاطب الانسان بالايمان قبل وجود الاعمال فقال (ياأيها الذين آمنوا اذاقمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق . ياأيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة) وقالوا لو ان رجلا آمن بالله ورسوله ضحوة ومات قبل أن يجب عليه شئ من الأعمال مات مؤمناً وكان من أهل الجنة فدل على ان الاعمال ليست من الايمان، وقالوا نحن نسلم ان الايمان يزيد بمعنى انه كان كلما أنزل الله آية وجب التصديق بها فانضم هذا التصديق الى التصديق الذى كان قبله لكن بعد كمال ماأنزل الله مابقى الايمان يتفاضل عندهم بل ايمان الناس كلهم سواء إيمان السابقين الاولين كأبى بكر وعمر وإيمان أفجر الناس كالحجاج وأبي مسلم الخراسانى وغيرهما والمرجئة المتكلمون منهم والفقهاء منهم يقولون ان الاعمال قد تسمي إيمانا مجازا لان العمل ثمرة الايمان ومقتضاه ولانها دليل عليه ويقولون قوله الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها اماطة عن الطريق مجاز * والمرجئة ثلاثة أصناف الذين يقولون الايمان مجرد مافى القلب ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب وهم أكثر فرق المرجئة كما قد ذكر أبوالحسن الاشعري أقوالهم فى كتابه وذكر فرقا كثيرة يطول ذكرهم لكن ذكرنا جمل أقوالهم ومنهم من لا يدخلها كجهم ومن اتبعه كالصالحي وهذا الذى نصره هو وأكثر أصحابه والقول الثانى من يقول هو مجرد قول اللسان وهذا لايعرف لاحد قبل الكرامية والثالث تصديق القلب وقول اللسان وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم وهؤلاء غلطوا من وجوه . أحدها ظنهم ان الايمان الذى فرضه الله على العباد متماثل فى حق العباد وان الايمان الذى يجب على شخص يجب مثله على كل شخص وليس الامر كذلك فان أتباع الانبياء المتقدمين أوجب الله عليهم من الايمان مالم يوجبه على أمة محمد وأوجب على أمة محمد من الايمان مالم يوجبه على غيرهم والايمان الذى كان يجب قبل نزول جميع القرآن ليس هو مثل الايمان الذى يجب بعد نزول القرآن والايمان الذى يجب على من عرف ماأخبر به الرسول مفصلا ليس مثل الايمان الذي يجب على من عرف ماأخبر به مجملا فانه لا بد فى الايمان من تصديق الرسول فى كل ما أخبر لكن من صدق الرسول أومات عقب ذلك لم يجب عليه من الايمان غير ذلك وأمامن بلغه القرآن والأحاديث وما فيهما من الاخبار والاوامر المفصلة فيجب عليه من التصديق المفصل بخبر خبر وأمر أمر مالا يجب على من لم يجب عليه الا الايمان المجمل لموته قبل أن يبلغه شئ آخر وأيضاً لو قدر انه عاش فلا يجب على كل واحد من العامة أن يعرف كل ماأمر به الرسول وكل مانهى عنه وكل ماأخبر به بل انما عليه أن يعرف مايجب عليه هو وما يحرم عليه فمن لا مال له لا يجب أن يعرف أمره المفصل في الزكاة ومن لا استطاعة له على الحج ليس عليه أن يعرف أمره المفصل بالمناسك ومن لم يتزوج ليس عليه أن يعرف ماوجب للزوجة فصار يجب من الايمان تصديقاً وعملاً على أشخاص مالا يجب على آخرين

وبهذا يظهر الجواب عن قولهم خوطبوا بالايمان قبل الاعمال فنقول ان قلتم انهم خوطبوا به قبل أن تجب تلك الاعمال فقبل وجوبها لم تكن من الايمان وكانوا مؤمنين الايمان الواجب عليهم قبل أن يفرض عليهم ماخوطبوا بفرضه فلما نزل ان لم يقروا بوجوبه لم يكونوا مؤمنين ولهذا قال تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين) ولهذا لم يجئ ذكر الحج في أكثر الأحاديث التي فيها ذكر الاسلام والايمان كحديث وفد عبد القيس وحديث الرجل النجدي الذى يقال له ضمام بن ثعلبة وغيرهما وانما جاء ذكر الحج في حديث ابن عمر وجبريل وذلك لان الحج آخر مافرض من الخمس فكان قبل فرضه لا يدخل فى الايمان والاسلام فلما فرض أدخله النبي صلى الله عليه وسلم فى الايمان اذا فرد وأدخله في الاسلام اذا قرن بالايمان واذا أفرد وسنذكر ان شاء الله متى فرض وكذلك قولهم من آمن ومات قبل وجوب العمل عليه مات مؤمناً صحيح لانه أتي بالايمان الواجب عليه والعمل لم يكن وجب عليه بعد فهذا مما يجب أن يعرف فانه تزول به شبهة حصلت للطائفتين فاذا قيل الاعمال الواجبة من الايمان فالايمان الواجب متنوع ليس شيئاً واحداً في حق جميع الناس وأهل السنة والحديث يقولون جميع الاعمال الحسنة واجبها ومستحبها من الايمان أى من الايمان الكامل بالمستحبات ليست من الايمان الواجب فيفرق بين الايمان الواجب وبين الايمان الكامل بالمستحبات كما يقول الفقهاء الغسل ينقسم الى مجزئ وكامل فالمجزئ ماأتي فيه بالواجبات فقط والكامل ما أتي فيه بالمستحبات ولفظ الكمال قديراد به الكمال الواجب وقد يراد به الكمال المستحب وأما قولهم ان الله فرق بين الايمان والعمل فى مواضع فهذا صحيح وقد بينا ان الايمان اذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الاعمال المأمور بها وقد يقرن به الاعمال وذكرنا نظائر ذلك كثيرة وذلك لان أصل الايمان هو مافى القلب والاعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متي نقصت الاعمال الظاهرة كان لنقص الايمان الذى فى القلب فصار الايمان متنا ولا للملزوم واللازم وان كان أصله مافي القلب وحيث عطفت عليه الاعمال فانه أريد انه لا يكتفى بايمان القلب بل لابد معه من الاعمال الصالحة ثم للناس فى مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل في المعطوف عليه أولا ثم ذكر باسمه الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل في الاول وقالوا هذا في كل ماعطف فيه خاص على عام كقوله (من كان عدوالله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) وقوله (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم) وقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم) فخص الايمان بما نزل على محمد بعد قوله الذين آمنوا وهذه نزلت في الصحابة وغيرهم من المؤمنين وقوله (حافظوا علي الصلوات والصلاة الوسطي) وقوله (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) والصلاة والزكاة من العبادة فقوله آمنوا وعملوا الصالحات كقوله (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) فانه قصد اولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم انهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق

العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الايمان أولا لانه الاصل الذى لا بد منه ثم يذكر العمل الصالح فانه أيضاً من تمام الدين لابد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد ايمان ليس معه العمل الصالح وكذلك قوله (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وقد قيل هؤلاء هم أهل الكتاب الذين آمنوا بما أنزل عليه وما أنزل على من قبله كابن سلام ونحوه وان هؤلاء نوع غير النوع المتقدم الذين يؤمنون بالغيب وقد قيل هؤلاء جميع المتقدمين الذين آمنوا بما أنزل اليه وما أنزل من قبله وهؤلاء هم الذين يؤمنون بالغيب وهم صنف واحد وانما عطفوا التغاير الصفتين كقوله (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذي قدر فهدى والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى) فهو سبحانه واحد وعطف بعض صفاته على بعض وكذلك قوله والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر والصفات اذا كانت معارف كانت للتوضيح وتضمنت المدح أو الذم تقول هذا الرجل هو الذي فعل كذا وهو الذي فعل كذا وهو الذى فعل كذا تعدد محاسنه ولهذا مع الاتباع قد يعطفونها وينصبون أو يرفعون وهذا القول هو الصواب فان المؤمنين بالغيب ان لم يؤمنوا بما أنزل اليه وما أنزل من قبله لم يكونوا على هدى من ربهم ولا مفلحين ولا متقين وكذلك الذين آمنوا بما أنزل اليه وما أنزل من قبله ان لم يكونوا من الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقهم الله ينفقون لم يكونوا على هدى من ربهم ولم يكونوا مفلحين ولم يكونوا متقين فدل على ان الجميع صفة المهتدين المتقين الذين اهتدوا بالكتاب المنزل الي محمد فقد عطفت هذه الصفة على تلك مع انها داخلة فيها لكن المقصود صفة إيمانهم وانهم يؤمنون بجميع ما أنزل الله على أنبيائه لا يفرقون بين أحد منهم والا فاذا لم يذكر الا الايمان بالغيب فقد يقول من يؤمن ببعض ويكفر ببعض نحن نؤمن بالغيب ولما كانت سورة البقرة سنام القرآن ويقال انها أول سورة نزلت بالمدينة افتتحها الله بأربع آيات في صفة المؤمنين وآيتين في صفة الكافرين وبضع عشرة آية في صفة المنافقين فانه من حين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم صار الناس ثلاثة أصناف إما مؤمن وإما كافر مظهر للكفر وإما منافق بخلاف ما كانوا بمكة فانه لم يكن هناك منافق ولهذا قال أحمد بن حنبل وغيره لم يكن من المهاجرين منافق وانما كان النفاق في قبائل الانصار فان مكة كانت الكفار مستولين عليها فلا يؤمن ويهاجر الامن هو مؤمن ليس هناك داع يدعو الى النفاق والمدينة من بها أهل الشوكة فصار للمؤمنين بها عز ومنعة بالانصار فمن لم يظهر الايمان آذوه فاحتاج المنافقون الى اظهار الايمان مع ان قلوبهم لم تؤمن والله تعالى افتتح البقرة ووسط البقرة وختم البقرة بالايمان بجميع ما جاءت به الانبياء فقال في أولها ما تقدم وقال في وسطها (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسي وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق) الآية وقال فى آخرها (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق

بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) والآية الاخري وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه والآية الوسطى قد ثبت فى الصحيح أنه كان يقرأ بها في ركعتى الفجر و (بقل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم) الآية تارة (وبقل ياأيها الكافرون وقل هوالله أحد) فيقرأ بما فيه ذكر الايمان والاسلام أو بما فيه ذكر التوحيد والاخلاص فعلى قول هؤلاء يقال الاعمال الصالحة المعطوفة على الايمان دخلت فى الايمان وعطفت عليه عطف الخاص على العام اما لذكره خصوصاً بعد عموم واما لكونه اذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل فى العام وقيل بل الاعمال فى الاصل ليست من الايمان فان أصل الايمان هو مافي القلب ولكن هي لازمة له فمن لم يفعلها كان ايمانه منتفياً لان انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة فى اسم الايمان اذا أطلق كما تقدم فى كلام النبي صلى الله عليه وسلم فاذا عطفت عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد ايمانه بدون الاعمال الصالحة اللازمة للايمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصاً وتنصيصاً ليعلم ان الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لايكون الا لمن آمن وعمل صالحا لايكون لمن ادعى الايمان ولم يعمل وقد بين سبحانه فى غير موضع ان الصادق في قوله آمنت لابد أن يقوم بالواجب وحصر الايمان في هؤلاء يدل على انتفائه عمن سواهم ٠٠ وللجهمية هنا سؤال ذكره أبو الحسن في كتاب الموجز وهو أن القرآن نفي الايمان عن غير هؤلاء كقوله (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) ولم يقل ان هذه الاعمال من الايمان قالوا فنحن نقول من لم يعمل هذه الاعمال لم يكن مؤمنا لان انتفاءها دليل على انتفاء العلم من قلبه والجواب عن هذا من وجوه ٠٠ أحدها انكم سلمتم ان ان هذه الاعمال لازمة لايمان القلب فاذا انتفت لم يبق فى القلب ايمان وهذا هو المطلوب وبعد هذا فكونها لازمة أو جزءاً نزاع لفظى ٠٠ الثانى ان نصوصاً صرحت بانها جزء كقوله الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة ٠٠ الثالث انكم قلتم بان من انتفى عنه هذه الامور فهو كافر خال من كل ايمان كان قولكم قول الخوارج وأنتم فى طرف والخوارج فى طرف فكيف توافقونهم ومن هذه الامور إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج والجهاد والاجابة الى حكم الله ورسوله وغير ذلك مما لاتكفرون تاركه وان كفرتموه كان قولكم قول الخوارج ٠٠ الرابع ان قول القائل ان انتفاء بعض هذه الاعمال يستلزم أن لايكون في قلب الانسان شئ من التصديق بان الرب حق قول يعلم فساده بالاضطرار ٠٠ الخامس ان هذا اذا ثبت فى هذه ثبت في سائر الواجبات فيرتفع النزاع المعنوي

(فصل الوجه الثانى) من غلط المرجئة ظنهم ان مافى القلب من الايمان ليس الا التصديق فقط دون أعمال القلوب كما تقدم عن جهمية المرجئة ٠٠ الثالث ظنهم ان الايمان الذي فى القلب يكون تاما بدون شئ من الاعمال ولهذا يجعلون الاعمال ثمرة الايمان ومقتضاه بمنزلة السبب مع المسبب ولا يجعلونها لازمة له والتحقيق ان ايمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لامحالة ويمتنع أن يقوم بالقلب ايمان تام بدون عمل ظاهر ولهذا صاروا يقدرون مسائل يمتنع وقوعها لعدم تحقق الارتباط الذي بين البدن

والقلب مثل أن يقولوا رجل في قلبه من الايمان مثل مافي قلب أبي بكر وعمر وهو لايسجد لله سجدة ولا يصوم رمضان ويزني بأمه وأخته ويشرب الخمر نهار رمضان يقولون هذا مؤمن تام الايمان فيبقى سائر المؤمنين ينكرون ذلك غاية الانكار .. قال أحمد بن حنبل حدثنا خلف بن حيان حدثنا معقل ابن عبيد الله العنسي قال قدم علينا سالم الافطس بالارجاء فنفر منه أصحابنا نفوراً شديداً منهم ميمون بن مهران وعبد الكريم بن مالك فانه عاهد الله أن لايؤويه واياه سقف بيت الا المسجد قال معقل فحججت فدخلت على عطاء بن أبي رباح في نفر من أصحابي وهو يقرأ (حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) قلت ان لنا حاجة فاخلنا ففعل فأخبرته ان قوما قبلنا قد أحدثوا وتكلموا وقالوا ان الصلاة والزكاة ليسا من الدين فقال أوليس الله تعالى يقول (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) فالصلاة والزكاة من الدين قال فقلت انهم يقولون ليس في الايمان زيادة فقال أوليس قد قال الله فيما أنزل (ليزدادوا ايمانا مع إيمانهم) هذا الايمان فقلت انهم انتحلوك وبلغنى ان ابن ذر دخل عليك في أصحاب له فعرضوا عليك قولهم فقبلته فقلت هذا الامر فقال لا والله الذي لااله الا هو مرتين أو ثلاثا ثم قال قدمت المدينة فجلست الي نافع فقلت يا أبا عبد الله ان لى اليك حاجة فقال سر أم علانية فقلت لابل سر قال رب سر لاخير فيه فقلت ليس من ذلك فلما صلينا العصر قام وأخذ بثوبي ثم خرج من الخوخة ولم ينتظر القاص فقال حاجتك قال فقلت أخلنى هذا فقال تنح قال فذكرت له قولهم فقال قال رسول صلى الله عليه وسلم أمرت أن أضربهم بالسيف حتى يقولوا لااله الا الله فاذا قالوا لااله الا الله عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله قال قلت انهم يقولون نحن نقر بأن الصلاة فرض ولا نصلى وبأن الخمر حرام ونشربها وان نكاح الامهات حرام ونحن ننكح فنثر يده من يدي وقال من فعل هذا فهو كافر قال معقل فرأيت الزهرى فأخبرته بقولهم فقال سبحان الله وقد أخذ الناس في هذه الخصومات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن قال معقل فلقيت الحكم بن عتبة فقلت له ان عبد الكريم وميمونا بلغهما انه دخل عليك ناس من المرجئة فعرضوا قولهم عليك فقبلت قولهم قال فقبل ذلك على ميمون وعبد الكريم لقد دخل على اثنا عشر رجلا وأنا مريض فقالوا يا أبا محمد بلغك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل بأمة سوداء أو حبشية فقال يارسول الله على رقبة مؤمنة أفتري هذه مؤمنة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أتشهدين أن لااله الا الله فقالت نعم قال وتشهدين أن محمدا رسول الله قالت نعم قال وتشهدين أن الجنة حق والنار حق قالت نعم قال وتشهدين أن الله يبعثك من بعد الموت قالت نعم قال فاعتقها فانها مؤمنة فخرجوا وهم ينتحلون ذلك قال معقل ثم جلست الى ميمون ابن مهران فقلت يا أبا أيوب لو قرأت لنا سورة ففسرتها قال فقرأ اذا الشمس كورت حتى اذا بلغ مطاع ثم أمين قال ذاكم جبريل والخيبة لمن يقول ان ايمانه كايمان جبريل .. ورواه حنبل عن أحمد ورواه أيضاً عن ابن أبي مليكة قال لقد أتي على برهة من الدهر وما أراني أدرك قوما يقول أحدهم اني مؤمن

يستكمل الايمان ثم مارضي حتى قال ايمانى على ايمان جبريل وميكائيل وما زال بهم الشيطان حتى قال أحدهم انى مؤمن وان نكح أخته وأمه وبنته والله لقد أدركت كذا وكذا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مامات أحد منهم الا وهو يخشى النفاق على نفسه وقد ذكر هذا المعنى عنه البخارى فى صحيحه قال أدركت ثلاثين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه مامنهم أحد يقول ايمانه كايمان جبريل ٠٠ وروى البغوي عن عبد الله بن محمد عن ابن مجاهد قال كنت عند عطاء ابن أبي رباح فجاء ابنه يعقوب فقال ياأبتاه ان أصحابا يزعمون ان ايمانهم كايمان جبريل فقال يابنى ليس ايمان من أطاع الله كايمان من عصى الله ٠٠ قلت قوله عن المرجئة أنهم يقولون ان الصلاة والزكاة ليستا من الدين قد يكون قول بعضهم فانهم كلهم يقولون ليستا من الايمان وأما من الدين فقد حكى عن بعضهم انه يقول ليستا من الدين ولا نفرق بين الايمان والدين ومنهم من يقول بل هما من الدين ويفرق بين اسم الايمان واسم الدين وهذا هو المعروف من أقوالهم التى يقولونها عن أنفسهم ولم أر أنا فى كتاب أحد منهم أنه قال الاعمال ليست من الدين بل يقولون ليست من الايمان وكذلك حكى أبو عبيد عمن ناظره منهم فان أبا عبيد وغيره يحتجون بان الاعمال من الدين فذكر قوله (اليوم أكملت لكم دينكم) انها نزلت في حجة الوداع قال أبو عبيد فأخبر انه انما كمل الدين الآن فى آخر الاسلام في حجة النبى صلى الله عليه وسلم وزعم هؤلاء انه كان كاملا قبل ذلك بعشرين سنة من أول مانزل عليه الوحي بمكة حين دعا الناس الى الاقرار حتى قال لقد اضطر بعضهم حين أدخلت عليه هذه الحجة الى أن قال ان الايمان ليس بجميع الدين ولكن الدين ثلاثة أجزاء الايمان جزء والفرائض جزء والنوافل جزء ٠٠ قلت هذا الذى قاله هذا هو مذهب القوم قال أبو عبيد وهذا غير مانطق به الكتاب ألا تسمع الى قوله (ان الدين عند الله الاسلام) وقال (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) وقال (ورضيت لكم الاسلام دينا) فاخبر أن الاسلام هو الدين برمته وزعم هؤلاء انه ثلث الدين ٠٠ قلت انما قالوا ان الايمان ثلث ولم يقولوا ان الايمان ثلث الدين لكنهم فرقوا بين مسمى الايمان ومسمى الدين وسنذكر ان شاء الله تعالى الكلام في مسمى هذا ومسمى هذا فقد يحكى عن بعضهم انه يقول ليستا من الدين ولايفرق بين اسم الايمان والدين ومنهم من يقول بل كلاهما من الدين ويفرق بين اسم الايمان واسم الدين والشافعى رضي الله عنه كان معظما لعطاء بن أبي رباح ويقول ليس فى التابعين اتبع للحديث منه وكذلك أبو حنيفة قال ما رأيت مثل عطاء وقد أخذ الشافعي هذه الحجة عن عطاء فروى ابن أبي حاتم فى مناقب الشافعي حدثنا أبي حدثنا ميمون حدثنا أبوعثمان بن الشافعى سمعت أبي يقول ليلة للحميدي مايحتج عليهم يعنى أهل الارجاء بآية أحج من قوله (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) ٠٠ وقال الشافعي رضى الله عنه فى كتاب الأم فى باب النية في الصلاة يحتج بان لا تجزى صلاة الا بنية بحديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات ٠ ثم قال وكان الاجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون الايمان قول وعمل ونية لا يجزي

واحد من الثلاث الا بالآخر .. وقال حنبل حدثنا الحميدي قال وأخبرت ان ناسا يقولون من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئاً حتى يموت ويصلى مستدبر القبلة حتي يموت فهو مؤمن مالم يكن جاحداً اذا علم ان تركه ذلك فيه ايمانه اذا كان مقراً بالفرائض واستقبال القبلة فقلت هذا الكفر الصراح وخلاف كتاب الله وسنة رسوله وعلماء المسلمين قال الله تعالي ﴿ وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ الآية .. وقال حنبل سمعت أبا عبد الله احمد بن حنبل يقول من قال هذا فقد كفر بالله ورد على الله أمره وعلى الرسول ماجاء به .. قلت وأما احتجاجهم بقوله للأمة اعتقها فانها مؤمنة فهو من حججهم المشهورة وبه احتج بن كلاب وكان يقول الايمان هوالتصديق والقول جميعاً فكان قوله أقرب من قول جهم وأتباعه وهذا لا حجة فيه لأن الايمان الظاهر الذي تجرى عليه الاحكام في الدنيا لا يستلزم الايمان فى الباطن الذي يكون صاحبه من أهل السعادة فى الآخرة فان المنافقين الذين قالوا (آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) هم في الظاهر مؤمنون يصلون مع الناس ويصومون ويحجون ويغزون والمسلمون يناكحونهم ويوارثونهم كما كان المنافقون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يحكم النبي صلى الله عليه وسلم فى المنافقين بحكم الكفار المظهرين للكفر لا فى مناكحتهم ولا موارثتهم ولا نحو ذلك بل لما مات عبد الله بن أبي بن سلول وهو من أشهر الناس بالنفاق ورثه ابنه عبد الله وهومن خيار المؤمنين وكذلك سائر من كان يموت منهم يرثه ورثتهالمؤمنون واذا ماتلاحدهم وارث ورثوه مع المسلمين .. وقد تنازع الفقهاء فى المنافق الزنديق الذي يكتم زندقته هل يرثويورث على قولين والصحيح انه يرث ويورث وان علم فى الباطن انه منافق كما كان الصحابة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأن الميراث مبناه على الموالاة الظاهرة لا على المحبة التى فى القلوب فانه لو علق بذلك لم تمكن معرفته والحكمة اذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها وهو ما أظهره من موالاة المسلمين فقول النبي صلى الله عليه وسلم لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم لم يدخل فيه المنافقون وان كانوا في الآخرة في الدرك الاسفل من النار بل كانوا يورثون ويرثون وكذلك كانوا فى الحقوق والحدود كسائر المسلمين وقد أخبر الله عنهم انهم يصلون ويزكون ومع هذا لم يقبل ذلك منهم فقال ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون ﴾ وقال ﴿ ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالي يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا ﴾ وفى صحيح مسلم عن النبى صلي الله عليه وسلم قال تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها الا قليلا وكانوا يخرجون مع النبي صلى الله عليه وسلم فى المغازيكاخرج ابن أبي فى غزوة بني المصطلق وقال فيها (لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) . وفي الصحيحين عن زيد بن أرقم قال خرجنا مع النبى صلى الله عليه وسلم في سفر أصابالناس فيها شدة فقال عبد الله بن أبي لاصحابه لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله وقال لئن رجعنا الي

المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأرسل الي عبد الله بن أبي فسأله فاجتهد يمينه ما فعل وقالوا كذب زيد يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقع في نفسي مما قالوا شدة حتى أنزل الله تصديقي في (اذا جاءك المنافقون) فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ليستغفر لهم فلووا رؤسهم وفي غزوة تبوك استنفرهم النبي صلى الله عليه وسلم كما استنفر غيرهم فخرج بعضهم معه وبعضهم تخلفوا وكان في الذين خرجوا معه من هم بقتله في الطريق هموا بحل حزام ناقته ليقع في واد هناك فجاءه الوحي فأسر الي حذيفة أسماءهم ولذلك يقال هو صاحب السر الذي لا يعلمه غيره كما ثبت ذلك في الصحيح ومع هذا ففي الظاهر تجري عليهم أحكام أهل الايمان وبهذا يظهر الجواب عن شبهات كثيرة تورد في هذا المقام فان كثيراً من المتأخرين ما بقي في المظهرين للاسلام عندهم إلا عدل أو فاسق واعرضوا عن حكم المنافقين والمنافقون ما زالوا ولا يزالون الى يوم القيامة ٠٠ والنفاق شعب كثيرة وقد كان الصحابة يخافون النفاق على أنفسهم ففي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان وفي لفظ لمسلم وان صام وصلى وزعم أنه مسلم ٠٠ وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها اذا حدث كذب واذا ائتمن خان واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر وكان النبي صلى الله عليه وسلم أولا يصلي عليهم ويستغفر لهم حتى نهاه الله عن ذلك فقال (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) وقال (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) فلم يكن يصلي عليهم ولا يستغفر لهم ولكن دماؤهم وأموالهم معصومة لا يستحل منهم ما يستحله من الكفار الذين لا يظهرون أنهم مؤمنين بل يظهرون الكفر دون الايمان فانه صلى الله عليه وسلم قال أمرت أن أقاتل الناس حتي يشهدوا أن لا اله الا الله وأني رسول الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله ولما قال لأسامة بن زيد أقتلته بعد ما قال لا اله الا الله قال انما قالها تعوذاً قال هلا شققت عن قلبه وقال انى لم أومر ان انقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم وكان اذا استؤذن في قتل رجل يقول أليس يصلي أليس يتشهد فاذا قيل له انه منافق قال ذاك فكان صلي الله عليه وسلم حكمه في دمائهم وأموالهم كحكمه في دماء غيرهم لا يستحل منها شيئاً الا بأمر ظاهر مع انه كان يعلم نفاق كثير منهم وفيهم من لم يكن يعلم نفاقه قال تعالى (وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم) وكان من مات منهم صلي عليه المسلمون الذين لا يعلمون انه منافق ومن علم أنه منافق لم يصل عليه وكان عمر اذا مات ميت لم يصل عليه حتي يصلي عليه حذيفة لأن حذيفة كان قد علم أعيانهم وقد قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بايمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار) فأمر بامتحانهن هنا وقال (الله أعلم بايمانهن) والله تعالى لما أمر في الكفارة بعتق رقبة مؤمنة لم يكن على الناس أن لا يعتقوا الا من يعلموا أن الايمان في

قلبه فان هذا كما لو قيل لهم اعتقلوا الا من علمتم ان الايمان فى قلبه وهم لم يؤمروا أن ينقبوا عن قلوب الناس ولا يشقوا بطونهم فاذا رأوا رجلا يظهر الايمان جاز لهم عتقه وصاحب الجارية لما سأل النبى صلى الله عليه وسلم هل هي مؤمنة انما أراد الايمان الظاهر الذى يفرق به بين المسلم والكافر وكذلك من عليه نذر لم يلزمه أن يعتق الا من علم أن الايمان فى قلبه فانه لا يعلم ذلك مطلقاً بل ولا أحد من الخلق يعلم ذلك مطلقاً .. وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الخلق والله يقول له (وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين) فأولئك انما كان النبى صلى الله عليه وسلم يحكم فيهم كحكمه فى سائر المؤمنين ولو حضرت جنازة أحدهم صلى عليها ولم يكن منهياً عن الصلوة الا على من علم نفاقه والا لزم أن ينقب عن قلوب الناس ويعلم سرائرهم وهذا لا يقدر عليه بشر .. ولهذا لما كشفهم الله بسورة براءة بقوله ومنهم ومنهم صار يعرف نفاق ناس منهم لم يكن يعرف نفاقهم قبل ذلك فان الله وصفهم بصفات علمها الناس منهم وما كان الناس يجزمون بأنها مستلزمة لنفاقهم وان كان بعضهم يظن ذلك وبعضهم يعلمه فلم يكن نفاقهم معلوما عند الجماعة بخلاف حالهم لما نزل القرآن .. ولهذا لما نزلت سورة براءة كتموا النفاق وما بقى يمكنهم من اظهاره أحيانا ما كان يمكنهم قبل ذلك وأنزل الله تعالى (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى بالمدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) فلما توعدوا بالقتل اذا أظهروا النفاق كتموه .. ولهذا لما تنازع الفقهاء فى استتابة الزنديق فقيل يستتاب واستدل من قال ذلك بالمنافقين الذين كان النبى صلى الله عليه وسلم يقبل علانيتهم ويكل أمرهم الى الله فيقال له هذا كان فى أول الامر وبعد هذا أنزل الله (ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) فعلموا أنهم ان أظهروه كما كانوا يظهرونه قتلوا فكتموه والزنديق هو المنافق وانما يقتله من يقتله اذا ظهر منه انه يكتم النفاق قالوا ولا تعلم توبته لأن غاية ماعنده انه يظهر ما كان يظهر وقد كان يظهر الايمان وهو منافق ولو قبلت توبة الزنادقة لم يكن سبيل الى تقتيلهم والقرآن قد توعدهم بالتقتيل .. والمقصود ان النبى صلى الله عليه وسلم انما أخبر عن تلك الأمة بالايمان الظاهر الذي علقت به الاحكام الظاهرة والا فقد ثبت عنه ان سعداً لما شهد لرجل انه مؤمن قال أومسلم وكان يظهر من الايمان ما تظهره الأمة وزيادة فيجب أن يفرق بين أحكام المؤمنين الظاهرة التى يحكم فيها الناس فى الدنيا وبين حكمهم فى الآخرة بالثواب والعقاب فالمؤمن المستحق للجنة لابد أن يكون مؤمناً في الباطن باتفاق جميع أهل القبلة حتى الكرامية الذين يسمون المنافق مؤمناً ويقولون الايمان هو الكلمة يقولون انه لا ينفع فى الآخرة الا الايمان الباطن وقد حكى بعضهم عنهم انهم يجعلون المنافقين من أهل الجنة وغلط عليهم انما نازعوا في الاسم لا فى الحكم بسبب شبهة المرجئة في ان الايمان لا يتبعض ولا يتفاضل ولهذا أكثر ماشترط الفقهاء في الرقبة التى تجزي في الكفارة العمل الظاهر فتنازعوا هل يجزئ الصغير على قولين معروفين للسلف هما روايتان عن أحمد فقيل لايجزئ عتقه لان الايمان قول

وعمل والصغير لم يؤمن بنفسه انما إيمانه تبع لابويه فى أحكام الدنيا ولم يشترط أحد أن يعلم انه مؤمن فى الباطن وقيـل بل يجزئ عتقه لان العتق من الاحكام الظاهرة وهو تبع لابويه فكما انه يرث منهما ويصلى عليه ولا يصلى الا على مؤمن فانه يعتق وكذلك المنافقون الذين لم يظهروا نفاقهم يصلى عليهم اذا ماتوا ويدفنون في مقابر المسلمين من عهد النبي صلى الله عليه وسلم والمقبرة التي كانت للمسلمين فى حياته وحياة خلفائه وأصحابه يدفن فيها كل من أظهر الايمان وان كان منافقاً فى الباطن لم يكن للمنافقين مقبرة يتميزون بها عن المسلمين فى شئ من ديار الاسلام كما يكون لليهود والنصارى مقبرة يتميزون بها ومن دفن فى مقابر المسلمين صلى عليه المسلمون والصلاة لا تجوز على من علم نفاقه بنص القرآن فعلم ان ذلك بناء على الايمان الظاهر والله يتولى السرائر وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلي عليهم ويستغفر لهم حتى نهي عن ذلك وعلل ذلك بالكفر فكان ذلك دليلا على ان كل من لم يعلم انه كافر بالباطن جازت الصلاة عليه والاستغفار له وان كانت فيه بدعة وان كان له ذنوب واذا ترك الامام أو أهل العلم والدين الصـلاة على بعض المتظاهرين ببدعة أو فجور زجرا عنها لم يكن ذلك محرما للصلاة عليه والاستغفار له بل قال النبي صلى الله عليه وسلم فيمن كان يمتنع عن الصلاة عليه وهو الغال وقاتل نفسه والمدين الذي لا وفاء له صلوا على صاحبكم وروى انه كان يستغفر للرجل فى الباطن وان كان في الظاهر يدع ذلك زجراً عن مثـل مذهبه كما روى فى حديث محلم بن جثامة وليس فى الكتاب والسنة المظهرون للاسلام الا قسمان مؤمن أو منافق فالمنـافق في الدرك الاسفل من النار والآخر مؤمن ثم قديكون ناقص الايمـان فلا يتناوله الاسم المطلق وقد يكون تام الايمان وهذا يأتي الكلام عليه ان شاء الله فى مسألة الاسلام والايمان وأسماء الفساق من أهل الملة لكن المقصـود هنا انه لا يجعل أحد بمجرد ذنب يذنبه ولا ببدعة ابتدعها ولو دعا الناس اليها كافراً فى الباطن الا اذا كان منافقاً فأما من كان في قلبه الايمان بالرسـول وما جاء به وقد غلط في بعض ما تأوله من البـدع فهذا ليس بكافر أصلا والخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالا للامة وتكفيرا لها ولم يكن في الصحابة من يكفرهم لا على بن أبي طالب ولا غيره بل حكموا فيهم بحكمهم في المسلمين الظالمين المعتدين كما ذكرت الآثار عنهم بذلك في غير هذا الموضع وكذلك سائر الثنتين وسبعين فرقة من كان منهم منافقاً فهو كافر في الباطن ومن لم يكن منافقاً بل كان مؤمناً بالله ورسوله فى الباطن لم يكن كافراً فى الباطن وان أخطأ فى التأويل كائنا ما كان خطأه وقد يكون في بعضهم شعبة من شعب النفاق ولا يكون فيه النفاق الذي يكون صاحبه في الدرك الاسفل من النار ومن قال ان الثنتين وسبعين فرقة كل واحد منهم يكفر كفراً ينقل عن الملة فقد خالف الكتاب والسنة واجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين بل واجماع الأئمة الاربعة وغير الأربعـة فليس فيهم من كفر كل واحد من الثنتين وسبعين فرقة وانما يكفر بعضهم بعضاً ببعض المقالات كما قد بسط الكلام عليهم فى غير هذا الموضع وانما قال الأئمة بكفر هذا لان هذا فرض مالا يقع فيمتنع أن يكون الرجل لا يفعل شيئاً مما أمر به من الصلاة والزكاة والصيام والحج ويفعل مايقدر عليه من المحرمات مثل الصلاة بلا وضوء والى غير القبلة

ونكاح الامهات وهومع ذلك مؤمن في الباطن بل لا يفعل ذلك الا لعدم الايمان الذي في قلبه ولهذا كان أصحاب أبي حنيفة يكفرون أنواعا ممن يقول كذا وكذا لما فيه من الاستخفاف ويجعلونه مرتدا ببعض هذه الانواع مع النزاع اللفظي الذي بين أصحابه وبين الجمهور في العمل هل هو داخل في اسم الايمان أم لا ولهذا فرض متأخرو الفقهاء مسئلة يمتنع وقوعها وهو ان الرجل اذا كان مقرا بوجوب الصلاة فدعي اليها وامتنع واستتيب ثلاثا مع تهديده بالقتل فلم يصل حتى قتل هل يموت كافراً أو فاسقاً على قولين وهذا الفرض باطل فانه يمتنع فى الفطرة أن يكون الرجل يعتقد ان الله فرضها عليه وانه يعاقبه على تركها ويصبر على القتل ولا يسجد لله سجدة من غير عذر له فى ذلك هذا لا يفعله بشر قط بل ولا يضرب أحد ممن يقر بوجوب الصلاة الاصلى لاينتهي الامر الى القتل وسبب ذلك ان القتل ضرر عظيم لا يصبر عليه الانسان الا لامر عظيم مثل لزومه لدين يعتقد انه ان فارقه هلك فيصبر عليه حتي يقتل وسواء كان الدين حقا أو باطلا أما مع اعتقاده ان الفعل يجب عليه باطناً وظاهراً فلا يكون فعل الصلاة أصعب عليه من احتمال القتل قط ونظير هذا لو قيل ان رجلا من أهل السنة قيل له ترض عن أبي بكر وعمر فامتنع عن ذلك حتي قتل مع محبته لهما واعتقاده فضلهما ومع عدم الاعذار المانعة من الترضي عنهما فهذا لا يقع قط وكذلك لوقيل ان رجلا يشهد أن محمداً رسول الله باطناً وظاهراً وقد طلب منه ذلك وليس هناك رهبة ولا رغبة يمتنع لاجلها فامتنع منها حتى قتل فهذا يمتنع أن يكون فى الباطن يشهد أن محمداً رسول الله ولهذا كان القول الظاهر من الايمان الذي لانجاة للعبد الا به عند عامة السلف والخلف من الأولين والآخرين الا الجهمية جهما ومن وافقه فانه اذا قدر انه معذور لكونه أخرس أو لكونه خائفا من قوم ان أظهر الاسلام آذوه ونحو ذلك فهذا يمكن أن لا يتكلم مع إيمان فى قلبه كالمكره على كلمة الكفر قال الله تعالى (الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) وهذه الآية مما يدل على فساد قول جهم فانه جعل كل من تكلم بالكفر من أهل وعيد الكفار الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان .. فان قيل فقد قال تعالى (ولكن من شرح بالكفر صدرا) قيل وهذا موافق لأولها فانه من كفر من غير اكراه فقد شرح بالكفر صدرا والا تناقض أول الآية وآخرها ولو كان المراد بمن كفر هو الشارح صدره وذلك يكون بلا اكراه لم يستثن المكره فقط بل كان يجب أن يستثنى المكره وغير المكره اذا لم يشرح صدره واذا تكلم بكلمة الكفر طوعا فقد شرح بها صدرا وهي كفر وقد دل على ذلك قوله تعالى (يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزؤا ان الله مخرج ماتحذرون ولئن سئلتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بانهم كانوا مجرمين) فقد أخبر انهم كفروا بعد ايمانهم مع قولهم انا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له بل كنا نخوض ونلعب وبين ان الاستهزاء بآيات الله كفر ولا يكون هذا الا ممن شرح صدره بهذا الكلام ولو كان الايمان فى قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام والقرآن يبين ان ايمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه كقوله تعالي (ويقولون آمنا

بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين) الى قوله (انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) فنفى الايمان عمن تولى عن طاعة الرسول وأخبر ان المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا فبين ان هذا من لوازم الايمان

(فصل) فان قيل فاذا كان الايمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله فمتى ذهب بعض ذلك فيلزم تكفير أهل الذنوب كما تقوله الخوارج أو تخليدهم في النار وسلبهم اسم الايمان بالكلية كما يقوله المعتزلة وكلا هذين القولين شر من قول المرجئة فان المرجئة منهم جماعة من العلماء والعباد المذكورين عند الامة بخير وأما الخوارج والمعتزلة فأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف مطبقون على ذمهم قيل أولا ينبغي أن يعرف ان القول الذي لم يوافق الخوارج والمعتزلة عليه أحد من أهل السنة هو القول بتخليد أهل الكبائر في النار فان هذا القول من البدع المشهورة وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم باحسان وسائر أئمة المسلمين على انه لا يخلد في النار أحد ممن في قلبه مثقال ذرة من ايمان واتفقوا أيضاً على ان نبينا صلى الله عليه وسلم يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته وفي الصحيحين عنه انه قال لكل نبي دعوة مستجابة واني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة وهذه الأحاديث مذكورة في مواضعها وقد نقل بعض الناس عن الصحابة في ذلك خلافا كما روى عن ابن عباس ان القاتل لا توبة له وهذا غلط على الصحابة فانه لم يقل أحد منهم ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يشفع لاهل الكبائر ولا قال انهم يخلدون في النار ولكن ابن عباس في احدى الروايتين عنه قال ان القاتل لا توبة له وعن أحمد بن حنبل في قبول توبة القاتل روايتان أيضاً والنزاع في التوبة غير النزاع في التخليد وذلك ان القتل يتعلق به حق آدمي فلهذا حصل فيه النزاع وأما قول القائل ان الايمان اذا ذهب بعضه ذهب كله فهذا ممنوع وهذا هو الاصل الذي تفرعت عنه البدع في الايمان فانهم ظنوا انه متى ذهب بعضه ذهب كله لم يبق منه شيء ثم قالت الخوارج والمعتزلة هو مجموع ما أمر الله به ورسوله وهو الايمان المطلق كما قاله أهل الحديث قالوا فاذا ذهب شيء منه لم يبق مع صاحبه من الايمان شيء فيخلد في النار وقالت المرجئة على اختلاف فرقهم لا تذهب الكبائر وترك الواجبات الظاهرة منه اذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء فيكون شيئاً واحداً يستوى فيه البر والفاجر ونصوص الرسول وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه كقوله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان ولهذا كان أهل السنة والحديث على انه يتفاضل وجمهورهم يقولون يزيد وينقص ومنهم من يقول يزيد ولا يقول ينقص كما روى عن مالك في احدى الروايتين ومنهم من يقول يتفاضل كعبدالله بن المبارك وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة عن حماد بن سلمة عن أبي جعفر عن جده عمير بن حبيب الخطمي وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الايمان يزيد وينقص قيل له وما زيادته وما نقصانه

قال اذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته واذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه وروي اسمعيل بن عياش عن جرير بن عثمان عن الحارث بن محمد عن أبي الدرداء قال الايمان يزيد وينقص وقال أحمد بن حنبل حدثنا يزيد حدثنا جرير بن عثمان قال سمعت أشياخنا أو بعض أشياخنا ان أبا الدرداء قال ان من فقه العبد أن يتعاهد ايمانه وما نقص منه ومن فقه العبد أن يعلم ايزداد هو أم ينقص وان من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان انى تأتيه وروي اسمعيل بن عياش عن صفوان بن عمرو عن عبد الله بن ربيعة الحضرمي عن أبي هريرة قال الايمان يزيد وينقص وقال أحمد بن حنبل حدثنا يزيد بن هرون حدثنا محمد بن طلحة عن زبيد عن ذر قال كان عمر بن الخطاب يقول لاصحابه هلموا نزداد ايمانا فيذكرون الله عز وجل وقال أبو عبيد في الغريب فى حديث على ان الايمان يبدو لمظة في القلب كلما ازداد الايمان ازدادت اللمظة يروي ذلك عن عثمان بن عبد الله عن عمرو بن هند الجملى • الأصمعي اللمظة مثل النكتة أو نحوها وقال أحمد بن حنبل حدثنا وكيع عن شريك عن هلال عن عبد الله بن عكيم قال سمعت ابن مسعود يقول فى دعائه اللهم زدنا ايمانا ويقينا وفقها وروي سفيان الثورى عن جامع بن شداد عن الاسود ابن هلال قال كان معاذ بن جبل يقول لرجل اجلس بنا نؤمن نذكر الله تعالى وروي أبو اليمان حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد ان عبد الله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من أصحابه فيقول قم بنا نؤمن ساعة فنجلس فى مجلس ذكر وهذه الزيادة اثبتها الصحابة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن كله وصح عن عمار بن ياسر انه قال ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان الانصاف من نفسه والانفاق من الاقتار وبذل السلام للعالم ذكره البخارى فى صحيحه وقال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا ايمانا والآثار فى هذا كثيرة رواها المصنفون في هذا الباب عن الصحابة والتابعين فى كتب كثيرة معروفة والزيادة قد نطق بها القرآن فى عدة آيات كقوله تعالى (انما المؤمنون الذين اذاذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا) وهذه زيادة اذا تليت عليهم الآيات أي وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول وهذا أمر يجده المؤمن اذا تليت عليه الآيات زاد فى قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الايمان مالم يكن حتى كأنه لم يسمع الآية الا حينئذ ويحصل فى قلبه من الرغبة فى الخير والرهبة من الشر مالم يكن فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته وهذا زيادة الايمان وقال تعالى (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فازدادوا يقيناً وتوكلا على الله وثباتا على الجهاد وتوحيداً بأن لا يخافوا المخلوق بل يخافون الخالق وحده وقال تعالى (واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الي رجسهم) وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بان الله أنزلها بل زادتهم ايمانا بحسب مقتضاها فان كانت أمراً بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة وان كانت نهيا عن شئ انتهوا عنه فكرهوه ولهذا قال (وهم يستبشرون) والاستبشار غير مجرد التصديق وقال تعالى (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما

أنزل اليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه) والفرح بذلك من زيادة الايمان قال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا)وقال تعالى(ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله)وقال تعالى (وما جعلنا أصحاب النار الاملائكة وما جعلنا عدتهم الافتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا) وقال تعالى (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم) وهذه نزلت لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الحديبية فجعل السكينة موجبة لزيادة الايمان والسكينة طمأنينة في القلب غيرعلم القلب وتصديقه ولهذا قال يوم حنين (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها) وقال تعالى(ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها) ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار وانما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو فلما أنزل السكينة فى قلوبهم مرجعهم من الحديبية ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم دل على ان الايمان المزيد حال للقلب وصفة له وعمل مثل طمانينته وسكونه ويقينه واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة كما يكون بالعلم والريب المنافى لليقين يكون ريباً فى العلم وريباً في طمأنينة القلب ولهذا جاء فى الدعاء المأثور اللهم اقسم لنا من خشيتك ماتحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ماتبلغنا به الى جنتك ومن اليقين ماتهون به علينا مصائب الدنيا وفى حديث الصديق الذي رواه أحمد والترمذي وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال سلوا الله العافية واليقين فما أعطي أحد بعد اليقين شيئاً خيراً من العافية فسلوهما الله تعالى فاليقين عندالمصائب بعد العلم بان الله قدرها سكينة القلب وطمأنينته وتسليمه وهذا من تمام الايمان بالقدر خيره وشره كما قال تعالى(ماأصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه)قال علقمة ويروى عن ابن مسعود هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم وقوله تعالى (يهد قلبه) هداه لقلبه هو زيادة فى ايمانه كما قال تعالي(والذين اهتدوا زادهم هدى) وقال (انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)ولفظ الايمان أكثر مايذكر فى القرآن مقيداً فلا يكون ذلك اللفظ متناولا لجميع ما أمر الله به بل يجعل موجباً للوازمه وتمام ماأمر به وحينئذ يتناوله الاسم المطلق قال تعالى (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير وما لكم لاتؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الي النور)وقال تعالى في آخر السورة (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم) • وقد قال بعض المفسرين فى الآية الاولى انها خطاب لقريش وفي الثانية انها خطاب لليهود والنصاري وليس كذلك فان الله لم يقل قط للكفار (ياأيها الذين آمنوا) ثم قال بعد ذلك (لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شئ من فضل الله) وهذه السورة مدنية باتفاق لم يخاطب بها المشركين بمكة وقد قال (وما لكم لاتؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين) وهذا لايخاطب به كافر وكفار مكة لم يكن أخذ ميثاقهم وانما أخذ ميثاق المؤمنين ببيعتهم له فان كل من كان مسلماً مهاجراً كان يبايع النبي صلى

الله عليه وسلم كما بايعه الانصار ليلة العقبة وانما دعاهم الى تحقيق الايمان وتكميله باداء ما يجب من تمامه باطناً وظاهراً كما نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم فى كل صلاة وان كان قد هدى المؤمنين للاقرار بما جاء به الرسول جملة لكن الهداية المفصلة فى جميع مايقولونه ويفعلونه في جميع أمورهم لم تحصل وجميع هذه الهداية المفصلة الخاصة هي من الايمان المأمور به وبذلك يخرجهم الله من الظلمات الى النور

﴿ فصل ﴾ وزيادة الايمان الذى أمر الله به والذي يكون من عباده المؤمنين من وجوه أحدها الاجمال والتفصيل فيما أمروا به فانه وان وجب على جميع الخلق الايمان بالله ورسوله ووجب على كل أمة التزام مايأمر به رسولهم مجملا فمعلوم أنه لايجب فى أول الامر ما وجب بعد نزول القرآن كله ولا يجب على كل عبد من الايمان المفصل مماأخبر به الرسول مايجب على من بلغه غيره فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها لزمه من الايمان المفصل بذلك مالايلزم غيره ولو آمن الرجل بالله وبالرسول باطناً وظاهراً ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين مات مؤمناً بما وجب عليه من الايمان وليس ماوجب عليه ولا ماوقع عنه مثل ايمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها بل ايمان هذا أكمل وجوبا ووقوعا فان ما وجب عليه من الايمان أكمل وما وقع منه أكمل وقوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) أي في التشريع بالامر والنهى ليس المراد أن كل واحد من الامة وجب عليه مايجب على سائر الامة وانه فعل ذلك بل في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه وصف النساء بأنهن ناقصات عقل ودين وجعل نقصان عقلها ان شهادة امرأتين شهادة رجل واحد ونقصان دينها انها اذا حاضت لاتصوم ولاتصلي وهذا النقصان ليس هو نقص مما أمرت فلا تعاقب على هذا النقصان لكن من أمر بالصلاة والصوم ففعله كان دينه كاملا بالنسبة الى هذه الناقصة الدين .. الوجه الثانى الاجمال والتفصيل فيما وقع منهم فمن آمن بما جاء به الرسول مطلقاً فلم يكذبه قط لكن أعرض عن معرفة أمره ونهيه وخبره وطلب العلم الواجب عليه فلم يعلم الواجب عليه ولم يعمله بل اتبع هواه وأخر طلب علم ما أمر به فعمل به وأخر طلب علمه فعلمه وآمن به ولم يعمل به فهؤلاء وان اشتركوا فى الوجوب لكن من طلب علم التفصيل وعمل به فايمانه أكمل ممن عرف مايجب عليه والتزمه وأقر به لكنه لم يعمل بذلك كله وهذا المقر بما جاء به الرسول المعترف بذنبه الخائف من عقوبته على ترك العمل أكمل ايمانا ممن لم يطلب معرفة ماأمره به الرسول ولا عمل بذلك ولا هو خائف أن يعاقب بل هو فى غفلة عن تفصيل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم مع انه مقر بنبوته باطناً وظاهراً فكل ماعلم القلب ماأخبر به الرسول فصدقه وما أمر به فالتزمه كان ذلك زيادة فى ايمانه على من لم يحصل له ذلك وان كان معه التزام عام واقرار عام وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها فآمن بها كان ايمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الاسماء بل آمن بها ايمانا مجملا أو عرف بعضها وكلما ازداد الانسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته كان ايمانه به أكمل .. الثالث ان العلم والتصديق نفسه يكون بعضه أقوي من بعض وأثبت وأبعد عن الشك والريب وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه كما أن الحس الظاهر بالشيء الواحد مثل رؤية الناس للهلال وان اشتركوا فيها فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض

وكذلك سماع الصوت الواحد وشم الرائحة الواحدة وذوق النوع الواحد من الطعام فكذلك معرفة القلب وتصديقه يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة والمعاني التي يؤمن بها من معاني أسماء الرب وكلامه يتفاضل الناس في معرفتها أعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها ٠٠ الرابع ان التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذى لايستلزم عمله فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذى لايعمل به واذا كان شخصان يعلمان أن الله حق ورسوله حق والجنة حق والنار حق وهذا علمه أوجب له محبة الله وخشيته والرغبة فى الجنة والهرب من النار والآخر علمه لم يوجب ذلك فعلم الاول أكمل فان قوة المسبب دل على قوة السبب وهذه الامور نشأت عن العلم فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه فاذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم ليس المخبر كالمعاين فان موسى لما أخبره ربه أن قومه عبدوا العجل لم يلق الالواح فلما رآهم قد عبدوه ألقاها وليس ذلك لشك موسى في خبر الله لكن المخبر وان جزم بصدق المخبر فقد لايتصور المخبر به في نفسه كما يتصوره اذا عاينه بل يكون قلبه مشغولا عن تصور المخبر به وان كان مصدقا به ومعلوم انه عند المعاينة يحصل له من تصور المخبر به مالم يكن عند الخبر فهذا التصديق أكمل من ذلك التصديق ٠٠ الخامس ان أعمال القلوب مثل محبة الله ورسوله وخشية الله تعالى ورجائه ونحو ذلك هي كلها من الايمان كما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفاق السلف وهذه يتفاضل الناس فيها تفاضلا عظيما ٠٠ السادس أن الاعمال الظاهرة مع الباطنة هي أيضاً من الايمان والناس يتفاضلون فيها ٠٠ السابع ذكر الانسان بقلبه ماأمره الله به واستحضاره لذلك بحيث لا يكون غافلا عنه أكمل ممن صدق به وغفل عنه فان الغفلة تضاد كمال العلم والتصديق والذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين ٠٠ ولهذا قال عمر بن حبيب من الصحابة اذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته واذا غفلنا ونسينا وضيعنا فتلك نقصانه وكان معاذ ابن جبل يقول لأصحابه اجلسوا بنا ساعة نؤمن قال تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) وقال تعالى (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) وقال تعالى (سيذّكر من يخشى ويتجنبها الاشقى) ثم كلما تذكر الانسان ماعرفه قبل ذلك وعمل به حصل له معرفة شئ آخر لم يكن عرفه قبل ذلك وعرف من معاني أسماء الله وآياته مالم يكن عرفه قبل ذلك كما فى الأثر من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم وهذا أمر يجده فى نفسه كل مؤمن ٠٠ وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل الذى يذكر ربه والذى لايذكر ربه مثل الحي والميت قال تعالى (واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً) وذلك انها تزيدهم علم مالم يكونوا قبل ذلك علموه وتزيدهم عملا بذلك العلم وتزيدهم تذكراً لما كانوا نسوه وعملا بتلك التذكرة وكذلك مايشاهده العباد من الآيات في الآفاق وفى أنفسهم قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أي ان القرآن حق ثم قال تعالى (أولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد) فان الله شهيد في القرآن بما أخبر به فآمن به المؤمن ثم أراهم فى الآفاق وفى أنفسهم من الآيات مايدل على مثل ماأخبر به في القرآن فبينت لهم هذه الآيات ان القرآن حق مع ماكان قد حصل

لهم قبل ذلك وقال تعالى (أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) فالآيات المخلوقة والمتلوة فيها تبصرة وفيها تذكرة تبصرة من العمى وتذكرة من الغفلة فيبصر من لم يكن عرف حتى يعرف ويذكر من عرف ونسى والانسان يقرأ السورة مرات حتى سورة الفاتحة ويظهر له فى أثناء الحال من معانيها مالم يكن خطر له قبل ذلك حتى كأنها تلك الساعة نزلت فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله وهذا موجود فى كل من قرأ القرآن بتدبر بخلاف من قرأه مع الغفلة ثم كلما فعل شيئاً مما أمر به استحضر أنه أمر به فصدق الامر فحصل له فى تلك الساعة من التصديق فى قلبه ما كان غافلا عنه وان لم يكن مكذبا •• الثامن ان الانسان قد يكون مكذبا ومنكراً لامور لايعلم أن الرسول أخبر بها وأمر بها ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر بل قلبه جازم بانه لايخبر الا بصدق ولا يأمر الا بحق ثم يسمع الآية أو الحديث أو يتدبر ذلك أو يفسر له معناه أو يظهر له ذلك بوجه من الوجوه فيصدق بما كان مكذبا به ويعرف ما كان منكراً وهذا تصديق جديد وايمان جديد ازداد به ايمانه ولم يكن قبل ذلك كافراً بل جاهلا وهذا وان أشبه المجمل والمفصل لكون صاحب المجمل قد يكون قلبه سليما عن تكذيب وتصديق لشئ من التفاصيل وعن معرفة وانكار لشئ من ذلك فيأتيه التفصيل بعد الاجمال على قلب ساذج وأما كثير من الناس بل من أهل العلوم والعبادات فيقوم بقلوبهم من التفصيل أمور كثيرة تخالف ماجاء به الرسول وهم لايعرفون انها تخالف فاذا عرفوا رجعوا وكل من ابتدع في الدين قولا أخطأ فيه أو عمل عملا أخطأ فيه وهو مؤمن بالرسول أو عرف ما قاله وآمن به لم يعدل عنه هو من هذا الباب وكل مبتدع قصده متابعة الرسول فهو من هذا الباب فمن علم ماجاء به الرسول وعمل به أكمل ممن أخطأ ذلك ومن علم الصواب بعد الخطأ وعمل به فهو أكمل ممن لم يكن كذلك

﴿ فصل ﴾ وقد أثبت فى القرآن اسلاما بلا ايمان فى قوله تعالى (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً) •• وقد ثبت فى الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص قال أعطي النبي صلى الله عليه وسلم رهطاً وفى رواية قسم قسما وترك فيهم من لم يعطه وهو أعجبهم الي فقلت يارسول الله مالك عن فلان فوالله اني لأراه مؤمنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مسلماً أقولها ثلاثا ويرددها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا ثم قال انى لاعطي الرجل وغيره أحب الي منه مخافة أن يكبه الله فى النار وفى رواية فضرب بين عنقى وكتفي وقال أقتال أى سعد فهذا الاسلام الذى نفى الله عن أهله دخول الايمان في قلوبهم هل هو إسلام يثابون عليه أم هو من جنس اسلام المنافقين فيه قولان مشهوران للسلف والخلف احدهما انه اسلام يثابون عليه ويخرجهم من الكفر والنفاق وهذا مروى عن الحسن وابن سيرين وابراهيم النخعي وابي جعفر الباقر وهو قول حماد بن زيد وأحمد بن حنبل وسهل بن عبد الله التسترى وأبى طالب المكي وكثير من أهل الحديث والسنة والحقائق قال أحمد ابن حنبل حدثنا مؤمل عن عمار بن زيد قال

سمعت هشاما يقول كان الحسن ومحمد يقولان مسلم ويهابان مؤمن وقال أحمد بن حنبل حدثنا أبو سلمة الخزاعي قال قال مالك وشريك وأبو بكر بن عياش وعبد العزيز بن أبي سلمة وحماد بن سلمة وحماد بن زيد الايمان المعرفة والاقرار والعمل الا ان حماد بن زيد يفرق بين الاسلام والايمان يجعل الايمان خاصا والاسلام عاما . والقول الثاني ان هذا الاسلام هو الاستسلام خوف السبي والقتل مثل اسلام المنافقين قال وهؤلاء كفار فان الايمان لم يدخل فى قلوبهم ومن لم يدخل الايمان فى قلبه فهو كافر وهذا اختيار البخاري ومحمد بن نصر المروزى والسلف مختلفون فى ذلك قال محمد بن نصر حدثنا اسحاق أنبأنا جرير عن مغيرة قال أتيت ابراهيم النخعي فقلت ان رجلا خاصمني يقال له سعيد العنبرى فقال ابراهيم ليس بالعنبري ولكنه زبيدى قوله (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) فقال هو الاستسلام فقال ابراهيم لا هو الاسلام وقال حدثنا محمد بن يحيى حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن مجاهد قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا قال استسلمنا خوف السبي والقتل ولكن هذا منقطع سفيان لم يدرك مجاهداً والذين قالوا ان هذا الاسـلام هو كاسلام المنافقين لا يثابون عليه قالوا لان الله نفى عنهم الايمان ومن نفى عنه الايمان فهو كافر وقال هؤلاء الاسلام هو الايمان وكل مسلم مؤمن وكل مؤمن مسلم ومن جعل الفساق مسلمين غير مؤمنين لزمه أن لايجعلهم داخلين فى قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة) وفى قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة) وأمثال ذلك فانهم انما دعوا باسم الايمان لا باسم الاسـلام فمن لم يكن مؤمناً لم يدخل فى ذلك وجواب هذا أن يقال الذين قالوا من السلف انهم خرجوا من الايمان الى الاسلام لم يقولوا انه لم يبق معهم من الايمان شئ بل هذا قول الخوارج والمعتزلة وأهل السنة الذين قالوا هذا يقولون الفساق يخرجون من النار بالشفاعة وان معهم ايمان يخرجون به من النار لكن لايطلق عليهم اسم الايمان لان الايمان المطلق هو الذى يستحق صاحبه الثواب ودخول الجنة وهؤلاء ليسوا من أهله وهم يدخلون فى الخطاب بالايمان لان الخطاب بذلك هو لمن دخل فى الايمان وان لم يستكمله فانه انما خوطب ليفعل تمام الايمان فكيف يكون قد أتمه قبل الخطاب والا كنا قد تبينا ان هذا المأمور من الايمان قبل الخطاب وانما صار من الايمان بعد ان أمروا به فالخطاب بياأيها الذين آمنوا غير قوله (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) ونظائره فان الخطاب بياأيها الذين آمنوا يدخل فيه من أظهر الايمان وان كان منافقا فى الباطن يدخل فيه فى الظاهر فكيف لايدخل فيه من لم يكن منافقاً وان لم يكن من المؤمنين حقاً وحقيقة ان من لم يكن من المؤمنين حقاً يقال فيه انه مسلم ومعه ايمان يمنعه الخلود في النار وهذا متفق عليه بين أهل السنة لكن هل يطلق عليه اسم الايمان هذا هو الذي تنازعوا فيـه فقيل يقال مسلم ولا يقال مؤمن وقيل بل يقال مؤمن والتحقيق أن يقال انه مؤمن ناقص الايمان مؤمن بايمانه فاسق بكبيرته ولا يعطي الاسم المطلق فان الكتاب والسنة نفيا عنه الاسم المطلق واسم الايمان يتناوله فيما أمر الله به ورسوله لان ذلك ايجاب عليه وتحريم عليه وهو لازم له كما يلزمه غيره وانما الكلام في اسم المدح المطلق وعلى هذا فالخطاب بالايمان يدخل فيه

ثلاث طوائف يدخل فيه المؤمن حقاً ويدخل فيه المنافق فى أحكامه الظاهرة وان كانوا فى الآخرة فى الدرك الاسفل من النار وهوفي الباطن ينفى عنه الاسلام والايمان وفى الظاهر يثبت له الاسلام والايمان الظاهر ويدخل فيه الذين أسلموا ولم تدخل حقيقة الايمان فى قلوبهم لكن معهم جزء من الايمان واسلام يثابون عليه ثم قد يكونون مفرطين فيما فرض عليهم وليس معهم من الكبائر مايعاقبون عليه كأهل الكبائر لكن يعاقبون على ترك المفروضات وهؤلاء كالاعراب المذكورين فى الآية وغيرهم فانهم قالوا آمنا من غير قيام منهم بما أمروا به باطناً وظاهراً فلا دخلت حقيقة الايمان في قلوبهم ولا جاهدوا فى سبيل الله وقد كان دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم الى الجهاد وقد يكونون من أهل الكبائر المعرضين للوعيد كالذين يصلون ويزكون ويجاهدون ويأتون الكبائر وهؤلاء لا يخرجون من الاسلام بل هم مسلمون ولكن بينهم نزاع لفظى هل يقال انهم مؤمنون كما سنذكره ان شاء الله وأما الخوارج والمعتزلة فيخرجونهم من اسم الايمان والاسلام فان الايمان والاسلام عندهم واحد فاذا خرجوا عندهم من الايمان خرجوا من الاسلام لكن الخوارج تقول هم كفار والمعتزلة تقول لا مسلمون ولا كفار ينزلونهم منزلة بين المنزلتين والدليل على ان الاسلام المذكور فى الآية هو اسلام يثابون عليه وانهم ليسوا منافقين انه قال (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) ثم قال (وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً) فدل انهم اذا أطاعوا الله ورسوله مع هذا الاسلام أجرهم الله على الطاعة والمنافق عمله حابط فى الآخرة وأيضاً فانه وصفهم بخلاف صفات المنافقين وصفهم بكفر فى قلوبهم وانهم يبطنون خلاف مايظهرون كما قال تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) الآيات (وقال اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) فالمنافقون يصفهم فى القرآن بالكذب وانهم يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم وبان فى قلوبهم من الكفر مايعاقبون عليه وهؤلاء لم يصفهم بشئ من ذلك لكن لما ادعوا الايمان قال للرسول قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئاً) .. ونفي الايمان المطلق لايستلزم أن يكونوا منافقين كما فى قوله (يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين) ثم قال (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذ تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً) ومعلوم انه ليس من لم يكن كذلك يكون منافقاً من أهل الدرك الاسفل من النار بل لا يكون قد أتى بالايمان الواجب فنفى عنه كما ينفى سائر الاسماء عمن ترك بعض مايجب فيها فكذلك الاعراب لم يأتوا بالايمان الواجب فنفى عنهم لذلك وان كانوا مسلمين معهم من الايمان مايثابون عليه وهذا حال أكثر الداخلين فى الاسلام ابتداء بل حال أكثر من لم يعرف حقائق الايمان فان الرجل اذا قوتل حتى أسلم كما كان الكفار يقاتلون حتى

يسلموا أو أسلم بعد الاسر وسمع بالاسلام فجاء فأسلم فانه مسلم ملتزم طاعة الرسول ولم تدخل الى قلبه المعرفة بحقائق الايمان فان هذا انما يحصل لمن تيسرت له أسباب ذلك اما بفهم القرآن واما بمباشرة أهل الايمان والاقتداء بما يصدر عنهم من الاقوال والاعمال واما بهداية خاصة من الله يهديه بها والانسان قد يظهر له من محاسن الاسلام مايدعوه الى الدخول فيه وان كان قد ولد عليه وتربى بين أهله فانه يحبه فقد ظهر له بعض محاسنه وبعض مساوى الكفار وكثير من هؤلاء قد يرتاب اذا سمع الشبه القادحة فيه ولا يجاهد فى سبيل الله فليس هو داخلا فى قوله (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) وليس هو منافقاً فى الباطن مضمراً للكفر فلا هو من المؤمنين حقاً ولا هو من المنافقين ولا هو أيضاً من أصحاب الكبائر بل يأتى بالطاعات الظاهرة ولا يأتي بحقائق الايمان التى يكون بها من المؤمنين حقاً فهذا معه ايمان وليس هو من المؤمنين حقاً ويثاب على مافعل من الطاعات ولهذا قال تعالى (ولكن قولوا أسلمنا) ولهذا قال (يمنون عليك أن أسلموا قل لاتمنوا على اسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين) يعنى فى قوله آمنا يقول ان كنتم صادقين فالله يمن عليكم أن هداكم للايمان وهذا يقتضي انهم قد يكونون صادقين في قولهم آمنا ثم صدقهم اما أن يراد به اتصافهم بأنهم آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون واما أن يراد به انهم لم يكونوا كالمنافقين بل معهم ايمان وان لم يكن لهم أن يدعوا مطلق الايمان وهذا أشبه والله أعلم لان النسوة الممتحنات قال فيهن (فان علمتوهن مؤمنات فلا ترجعوهن الي الكفار) ولا يمكن نفي الريب عنهن في المستقبل ولان الله انما كذب المنافقين لم يكذب غيرهم وهؤلاء لم يكذبهم ولكن قال لم تؤمنوا كما قال لايؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه وقوله لايزني الزاني حين يزنى وهو مؤمن ولا يؤمن من لايأمن جاره بوائقه وهؤلاء ليسوا منافقين .. وسياق الآية يدل على أن الله ذمهم لكونهم منوا باسلامهم لجهلهم وجفائهم وأظهروا مافى أنفسهم مع علم الله به فان الله تعالى قال (قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم مافى السموات وما فى الارض) فلو لم يكن في قلوبهم شئ من الدين لم يكونوا يعلمون الله بدينهم فان الاسلام الظاهر يعرفه كل أحد ودخلت الباء في قوله أتعلمون الله بدينكم لأنه ضمن معنى يخبرون ويحدثون كأنه قال أتخبرونه وتحدثونه بدينكم وهو يعلم مافي السموات ومافى الارض وسياق الآية يدل على أن الذين أخبروا به الله هو ماذكره الله عنهم من قولهم آمنا فانهم أخبروا عما فى قلوبهم .. وقد ذكر المفسرون انه لما نزلت هاتان الآيتان أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلفون انهم مؤمنون صادقون فنزل قوله تعالى (قل أتعلمون الله بدينكم) وهذا يدل على انهم كانوا صادقين أولا فى دخولهم في الدين لانه لم يتجدد لهم بعد نزول الآية جهاد حتي يدخلوا فى الآية انما هو كلام قالوه وهو سبحانه قال ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ولفظ لما ينفى به مايقرب حصوله ويحصل غالباً فقوله (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) وقد قال السدي نزلت هذه الآية في أعراب مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وهم الذين ذكرهم الله في سورة الفتح وكانوا يقولون

آمنا بالله ليأمنوا على أنفسهم فلما استنفروا الى الحديبية تخلفوا فنزلت فيهم هذه الآية وعن مقاتل كانت منازلهم بين مكة والمدينة وكانوا اذا مرت بهم سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا آمنا ليأمنوا على دمائهم وأموالهم فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحديبية استنفرهم فلم ينفروا معه وقال مجاهد نزلت فى أعراب بني أسد بن خزيمة ووصف غيره حالهم فقالوا قدموا المدينة فى سنة مجدبة فأظهروا الاسلام ولم يكونوا مؤمنين وأفسدوا طريق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارهم وكانوا يمنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون أتيناك بالأثقال والعيال فنزلت فيهم هذه الآية وقد قال قتادة فى قوله (يمنون عليك أن أسلموا قل لاتمنوا علىّ اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين) قال منوا على النبى صلى الله عليه وسلم حين جاؤا فقالوا انا أسلمنا بغير قتال لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان فقال الله لنبيه (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان) وقال مقاتل بن حيان هم أعراب بنى أسد بن خزيمة قالوا يارسول الله أتيناك بغير قتال وتركنا العشائر والاموال وكل قبيلة من العرب قاتلتك حتي دخلوا كرها في الاسلام فلنا بذلك عليك حق فأنزل الله تعالى (يمنون عليك أن أسلموا قل لاتمنوا علىّ اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين) فله بذلك المن عليكم وفيهم أنزل (ولا تبطلوا أعمالكم)ويقال من الكبائر التى ختمت بنار كل موجبة من ركبها ومات عليها لم يتب منها ٠٠ وهذا كله يبين انهم لم يكونوا كفارا في الباطن ولا كانوا قد دخلوا فيما يجب من الايمان وسورة الحجرات قد ذكرت هذه الاصناف فقال(ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون) ولم يصفهم بكفر ولا نفاق لكن هؤلاء يخشي عليهم الكفر والنفاق ولهذا ارتد بعضهم لانهم لم يخالط الايمان بشاشة قلوبهم وقال بعد ذلك(ياأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)وهذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة وكان قد كذب فيما أخبر قال المفسرون نزلت هذه الآية في الوليد بن عقبة بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بني المصطلق ليقبض صدقاتهم وقد كانت بينه وبينهم عداوة فى الجاهلية فسار بعض الطريق ثم رجع فقال انهم منعوا الصدقة وأرادوا قتلى فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث اليهم فنزلت هذه الآية وهذه الآية معروفة من وجوه كثيرة ثم قال تعالى فى تمامها (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم) وقال تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى) الآية ثم نهاهم عن أن يسخر بعضهم ببعض وعن اللمز والتنابز بالالقاب وقال (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) وقد قيل معناه لاتسميه فاسقاً ولا كافراً بعد ايمانه وهذا ضعيف بل المراد بئس الاسم أن تكونوا فساقا بعد ايمانكم كما قال تعالى في الذي كذب(ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) فسماه فاسقاً ٠٠ وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال سباب المسلم فسوق وقتاله كفر يقول فاذا سابيتم المسلم وسخرتم منه ولمزتموه استحققتم أن تسموا فساقا وقد قال فى آية القذف(ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون) يقول فاذا أتيتم بهذه الامور التى تستحقون بها ان تسموا فساقا كنتم قد استحققتم اسم الفسوق بعد

الايمان والا فهم في تنابزهم ماكانوا يقولون فاسق كافر فان النبى صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وبعضهم يلقب بعضاً وقد قال طائفة من المفسرين في هذه الآية لا تسميه بعد الاسلام بذنبه قبل الاسلام كقوله لليهودى اذا أسلم يايهودي وهذا مروى عن ابن عباس وطائفة من التابعين كالحسن وسعيد بن جبير وعطاء الخراساني والقرظى وقال عكرمة هو قول الرجل ياكافر يامنافق وقال عبد الرحمن بن زيد هو تسميته بالاعمال كقوله يازانى ياسارق يافاسق وفي تفسير العوفى عن ابن عباس قال هو تعيير التائب بسيئات كان قد عملها ومعلوم ان اسم الكفر واليهودية والزانى والسارق وغير ذلك من السيئات ليست هي اسم الفاسق فعلم ان قوله بئس الاسم الفسوق لم يرد به تسمية المسبوب باسم الفاسق فان تسميته كافراً أعظم بل ان الساب يصير فاسقاً لقوله سباب المسلم فسوق وقتاله كفر ثم قال ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون فجعلهم ظالمين اذا لم يتوبوا من ذلك وان كانوا يدخلون في اسم المؤمنين ثم ذكر النهي عن الغيبة ثم ذكر النهي عن التفاخر بالاحساب وقال (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ثم ذكر قول الاعراب آمنا فالسورة تنهي عن هذه المعاصى والذنوب التى فيها تعد على الرسول وعلى المؤمنين فالاعراب المذكورون فيها من جنس المنافقين وأهل السباب والفسوق والمنادين من وراء الحجرات وأمثالهم ليسوا من المنافقين ولهذا قال المفسرون انهم الذين استنفروا عام الحديبية وأولئك وان كانوا من أهل الكبائر فلم يكونوا فى الباطن كفاراً منافقين قال ابن اسحق لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم العمرة عمرة الحديبية استنفر من حول المدينة من أهل البوادى والاعراب ليخرجوا معه خوفا من قومه أن يعرضوا له بحرب أو بصد فتثاقل عنه كثير منهم فهم الذين عنى الله بقوله (سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا) أي ادع الله أن يغفر لنا تخلفنا عنك (يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم) أي مايبالون استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم وهذا حال الفاسق الذى لا يبالى بالذنب والمنافقون قال فيهم (واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) ولم يقل مثل هذا فى هؤلاء الاعراب بل الآية دليل على انهم لو صدقوا فى طلب الاستغفار نفعهم استغفار الرسول ثم قال (ستدعون الى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليما) فوعدهم الله بالثواب على طاعة الداعى الى الجهاد وتوعدهم بالتولى عن طاعته وهذا كخطاب أمثالهم من أهل الذنوب والكبائر بخلاف من هو كافر في الباطن فانه لا يستحق الثواب بمجرد طاعة الامر حتى يؤمن أولا ووعيده ليس على مجرد توليه عن الطاعة في الجهاد فان كفره أعظم من هذا فهذا كله يدل على ان هؤلاء من فساق الملة فان الفسق يكون تارة بترك الفرائض وتارة بفعل المحرمات وهؤلاء لما تركوا مافرض الله عليهم من الجهاد وحصل عندهم نوع من الريب الذى أضعف ايمانهم لم يكونوا من الصادقين الذين وصفهم وان كانوا صادقين فى انهم فى الباطن متدينين بدين الاسلام وقول المفسرين لم يكونوا مؤمنين نفى لما نفاه الله عنهم من الايمان كما نفاه عن الزاني والسارق والشارب وعمن لا يأمن جاره بوائقه وعمن لا يحب لاخيه من

الخير مايجيب لنفسه وعمن لا يجيب الى حكم الله ورسوله وأمثال هؤلاء وقد يحتج على ذلك بقوله بئس الاسم الفسوق بعد الايمان كما قال سباب المسلم فسوق وقتاله كفر فذم من استبدل اسم الفسوق بعد الايمان فدل على ان الفاسق لا يسمى مؤمناً فدل ذلك على ان هؤلاء الاعراب من جلس أهل الكبائر لا من جلس المنافقين ٠٠ وأما مانقل من انهم أسلموا خوف القتل والسبا فهكذا كان اسلام غير المهاجرين والانصار أسلموا رغبة ورهبة كاسلام الطلقاء من قريش بعد ان قهرهم النبي صلى الله عليه وسلم واسلام المؤلفة قلوبهم من هؤلاء ومن أهل نجد وليس كل من أسلم لرغبة أو رهبة كان من المنافقين الذين هم فى الدرك الاسفل من النار بل يدخلون فى الاسلام والطاعة وليس فى قلوبهم تكذيب ومعاداة للرسول ولا استنارت قلوبهم بنور الايمان واستبصروا فيه وهؤلاء قديحسن اسلام أحدهم فيصير من المؤمنين كأكثر الطلقاء وقديبقى من فساق الملة ومنهم من يصير منافقاً مرتابا اذا قال له منكر ونكير ماتقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هاه هاه لاأدرى سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته وقد تقدم قول من قال انهم أسلموا بغير قتال فهؤلاء كانوا أحسن اسلاما من غيرهم وان الله انما ذمهم لكونهم منوا بالاسلام وأنزل فيهم ولا تبطلوا أعمالكم وانهم من جلس أهل الكبائر وأيضاً قوله (ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) ولما انما ينتفى بها ماينتظر ويكون حصوله مترقبا كقوله (أم حسبتم أن تدخلوا الجنــة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) وقوله (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) فقوله ولما يدخل الايمان فى قلوبكم يدل على ان دخول الايمان منتظر منهم فان الذى يدخل في الاسلام ابتداء لا يكون قد حصل فى قلبه الايمان لكنه يحصل فيما بعد كما في الحديث كان الرجل يسلم أول النهار رغبة فى الدنيا فلا يجئ آخر النهار الا والاسلام أحب اليه مما طلعت عليه الشمس ولهذا كان عامة الذين أسلموا رغبة ورهبة دخل الايمان في قلوبهم بعد ذلك وقوله (ولكن قولوا أسلمنا) أمر لهم بأن يقولوا ذلك والمنافق لايؤمر بشئ ثم قال (وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً) والمنافق لا تنفعه طاعة الله ورسوله حتى يؤمن أولا ٠٠ وهذه الآية مما احتج بها أحمد بن حنبل وغيره على انه يستثني في الايمان دون الاسلام وان أصحاب الكبائر يخرجون من الايمان الى الاسلام قال الميمونى سألت أحمد بن حنبل عن رأيه في أنا مؤمن ان شاء الله فقال أقول مؤمن ان شاء الله وأقول مسلم ولا استثنى قال قلت لاحمد تفرق بين الاسلام والايمان فقال لى نعم فقلت له بأي شئ تحتج قال لى (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) وذكر أشياء وقال الشالنجي سألت أحمد عمن قال أنا مؤمن عند نفسى من طريق الاحكام والمواريث ولا أعلم ماأنا عند الله قال ليس بمرجئ ٠٠ وقال أبو أيوب سليمان بن داود الهاشمى الاستثناء جائز ومن قال أنا مؤمن حقا ولم يقل عند الله ولم يستثن فذلك عنـدي جائز وليس بمرجئ وبه قال أبو خيثمة وابن أبي شيبة وذكر الشالنجى انه سأل أحمد بن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبه بجهده أى يطلب الذنب بجهده الا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم هل يكون مصراً من كانت هذه حاله قال هو مصر مثل قوله لايزنى الزاني حين يزني وهو مؤمن يخرج من الايمان ويقع فى الاســلام ومن نحو

قوله ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ومن نحو قول ابن عباس في قوله ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون فقلت له ماهذا الكفر قال كفر لا ينقل عن الملة مثل الايمان بعضه دون بعض فكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك أمر لايختلف فيه وقال ابن أبي شيبة لايزنى الزانى حين يزني وهو مؤمن لا يكون مستكمل الايمان يكون ناقصاً من ايمانه .. قال الشالنجي وسألت أحمد عن الايمان والاسلام فقال الايمان قول وعمل والاسلام اقرار قال وبه قال أبو خيثمة وقال ابن أبى شيبة لا يكون اسلام الا بايمان ولا ايمان الا باسلام واذا كان على المخاطبة فقال قد قبلت الايمان فهو داخل فى الاسلام واذا قال قد قبلت الاسلام فهو داخل فى الايمان .. وقال محمد بن نصر المروزي وحكي غير هؤلاء أنه سأل أحمد بن حنبل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم لايزنى الزاني حين يزني وهو مؤمن فقال من أتى هذه الاربعة أو مثلهن أو فوقهن فهو مسلم ولا أسميه مؤمناً ومن أتى دون ذلك يريد دون الكبائر أسميه مؤمناً ناقص الايمان .. قلت أحمد بن حنبل كان يقول تارة بهذا الفرق وتارة كان يذكر الاختلاف ويتوقف وهو المتأخر عنه قال أبو بكر الأثرم فى السنة سمعت أبا عبد الله يسأل عن الاستثناء فى الايمان ما تقول فيه فقال أما أنا فلا أعيبه أى من الناس من يعيبه قال أبو عبد الله اذا كان يقول ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص فاستثنى مخافة واحتياطاً ليس كما يقولون على الشك انما يستثنى للعمل قال أبو عبد الله قال الله تعالي (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) أي ان هذا استثناء بغير شك وقال النبي صلى الله عليه وسلم وانا ان شاء الله بكم لاحقون أي لم يكن يشك في هذا وقد استثناء وذكر قول النبى صلى الله عليه وسلم وعليها نبعث ان شاء الله يعنى من القبر وذكر قول النبى صلى الله عليه وسلم انى لأرجو أن أكون أخشاكم لله قال هذا كله تقوية للاستثناء فى الايمان .. قلت لأبى عبد الله وكأنك لا ترى بأسا أن لا يستثني فقال اذا كان ممن يقول الايمان قول وعمل يزيد وينقص فهو أسهل عندى ثم قال أبو عبد الله ان قوما تضعف قلوبهم عن الاستثناء كالتعجب منهم وسمعت أبا عبد الله وقيل له شبابة أى شئ تقول فقال شبابة كان يدعى الارجاء قال وحكى عن شبابة قول أخبث من هذه الاقاويل ما سمعت عن أحمد بمثله قال أبو عبد الله قال شبابة اذا قال فقد عمل بلسانه كما يقولون فاذا قال فقد عمل بجارحته أى بلسانه حين تكلم به ثم قال أبو عبد الله هذا قول خبيث ما سمعت أحداً يقول به ولا بلغنى قيل لأبي عبد الله كنت كتبت عن شبابة شيئاً فقال نعم كنت كتبت عنه قديماً يسيراً قبل أن نعلم أنه يقول بهذا قلت لابى عبد الله (١) كتبت عنه قال لا ولا حرف قيل لابى عبد الله يزعمون ان سفيان كان يذهب الى الاستثناء في الايمان فقال هذا مذهب سفيان المعروف به الاستثناء قلت لابي عبد الله من يرويه عن سفيان فقال كل من حكي عن سفيان في هذا حكاية كان يستثني قال وقال وكيع عن سفيان الناس عندنا مؤمنون في الاحكام والمواريث ولا ندرى ما هم عند الله قلت لابى عبد الله فأنت بأى شئ تقول فقال نحن نذهب الى الاستثناء قلت

---

(١) بياض فى الاصل ولعله أبعد هذا

لابى عبد الله فأما اذا قال أنا مسلم فلا يستثنى فقال نعم لا يستثنى اذا قال أنا مسلم قلت لابى عبد الله أقول هذا مسلم وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده وأنا أعلم انه لا يسلم الناس منه فذكر حديث معمر عن الزهرى فنرى ان الاسلام الكلمة والايمان العمل قال أبو عبد الله حدثناه عبدالرزاق عن معمر عن الزهرى قيل لابى عبد الله فتقول الايمان يزيد وينقص فقال حديث النبى صلى الله عليه وسلم يدل على ذلك فذكر قوله اخرجوا من كان فى قلبه مثقال كذا اخرجوا من كان فى قلبه مثقال كذا فهو يدل على ذلك ٠٠ وذكر عند أبى عبد الله عيسى الاحمر وقوله فى الارجاء فقال نعم وذاك خبيث القول ٠٠ وقال أبو عبد الله حدثنا مؤمل حدثنا حماد بن زيد سمعت هشاما يقول كان الحسن ومحمد يقولان مسلم ويهابان مؤمن ٠٠ قلت لابى عبد الله رواه غير سويد قال ما علمت بذلك وسمعت أبا عبد الله يقول الايمان قول وعمل قلت لابى عبد الله فالحديث الذي يروى أعتقها فانها مؤمنة قال ليس كل أحد يقول انها مؤمنة يقولون أعتقها قال ومالك سمعه من هذا الشيخ هلال ابن على لا يقول فانها مؤمنة قال وقد قال بعضهم بانها مؤمنة فهى تقر بذلك فحكمها حكم المؤمنة هذا معناه قلت لابى عبد الله تفرق بين الايمان والاسلام فقال قد اختلف الناس فيه وكان حماد ابن زيد زعموا يفرق بين الايمان والاسلام قيل له مَن المرجئة قال الذين يقولون الايمان قول بلا عمل قلت فأحمد بن حنبل لم يرد قط انه سلب جميع الايمان فلم يبق معه منه شئ كما تقوله الخوارج والمعتزلة فانه قد صرح فى غير موضع بان أهل الكبائر معهم ايمان يخرجون به من النار واحتج بقول النبى صلى الله عليه وسلم اخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان وليس هذا قوله ولا قول أحد من أئمة أهل السنة بل كلهم متفقون على ان الفساق الذين ليسوا منافقين معهم شئ من الايمان يخرجون به من النار هو الفارق بينهم وبين الكفار والمنافقين لكن اذا كان معه بعض الايمان لم يلزم أن يدخل فى الاسم المطلق الممدوح وصاحب الشرع قد نفى الاسم عن هؤلاء فقال لا يزنى الزاني حين يزني وهو مؤمن وقال لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه من الخير مايحب لنفسه وقال لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه واقسم على ذلك مرات وقال المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم والمعتزلة ينفون عنه اسم الايمان بالكلية واسم الاسلام أيضاً ويقولون ليس معه شئ من الايمان والاسلام ويقولون ننزله منزلة بين منزلتين فهم يقولون انه يخلد فى النار لا يخرج منها بالشفاعة وهذا هو الذى أنكر عليهم والا لو نفوا مطلق الاسم وأثبتوا معه شيئاً من الايمان يخرج به من النار لم يكونوا مبتدعة وكل أهل السنة متفقون على انه قد سلب كمال الايمان الواجب فزال بعض ايمانه الواجب لكنه من أهل الوعيد وانما ينازع فى ذلك من يقول الايمان لا يتبعض من الجهمية والمرجئة فيقولون انه كامل الايمان فالذي ينفى اطلاق الاسم يقول الاسم المطلق مقرون بالمدح واستحقاق الثواب كقولنا متق وبر و على الصراط المستقيم فاذا كان الفاسق لا تطلق عليه هذه الاسماء فكذلك اسم الايمان وأما دخوله فى الخطاب فلأن المخاطب باسم الايمان كل من معه شئ منه لانه أمر لهم فمعاصيهم لا تسقط عنهم وأما ماذكره أحمد في الاسلام فاتبع فيه الزهري حيث قال

فكانوا يرون الاسلام الكلمة والايمان العمل فى حديث سعد بن أبي وقاص وهذا على وجهين فانه قد يراد به الكلمة بتوابعها من الاعمال الظاهرة وهذا هو الاسلام الذي بينه النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت وقدتراد الكلمة فقط من غير فعل الواجبات الظاهرة وليس هذا هوالذى جعله النبي صلى الله عليه وسلم الاسلام لكن قديقال أسلام الاعراب كان من هذا فيقال الاعراب وغيرهم كانوا اذا أسلموا على عهد النبى صلى الله عليه وسلم الزموا بالاعمال الظاهرة الصلاة والزكاة والصيام والحج ولم يكن أحد يترك بمجرد الكلمة بل كان من أظهر المعصية يعاقب عليها وأحمد ان كان أراد فى هذه الرواية ان الاسلام هو الشهادتان فقط فكل من قالها فهو مسلم فهذه احدى الروايات عنه والرواية الاخري لا يكون مسلماً حتى يأتي بها ويصلى فاذا لم يصل كان كافراً والثالثة انه كافر بترك الزكاة أيضاً والرابعة انه يكفر بترك الزكاة اذا قاتل الامام عليها دون ما اذا لم يقاتله وعنده انه لو قال أنا أؤديها ولا أدفعها الى الامام لم يكن للامام أن يقتله وكذلك عنه رواية انه يكفر بترك الصيام والحج اذاعزم انه لا يحج أبداً ومعلوم انه على القول بكفرتارك المبانى يمتنع أن يكون الاسلام مجرد الكلمة بل المراد انهاذا أتى بالكلمة دخل فى الاسلام وهذا صحيح فانه يشهد له بالاسلام ولا يشهد له بالايمان الذى فى القلب ولا يستثنى فى هذا الاسلام لانه أمر مشهور لكن الاسلام الذى هوأداء الخمس كما أمر به يقبل الاستثناء فالاسلام الذي لايستثنى فيه الشهادتان باللسان فقط فانها لا تزيد ولا تنقص فلا استثناء فيه وقد صار الناس فى مسمى الاسلام على ثلاثة أقوال قيل هو الايمان وهو اسمان لمسمى واحد وقيل هو الكلمة وهذان القولان لهما وجه سنذكره لكن التحقيق ابتداء هو مابينه النبى صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الاسلام والايمان ففسر الاسلام بالاعمال الظاهرة والايمان بالايمان بالاصول الخمسة فليس لنا اذاجمعنا بين الاسلام والايمان ان نجيب بغير ما أجاب به النبي صلى الله عليه وسلم وأما اذا افرد اسم الايمان فانه يتضمن الاسلام واذا أفرد الاسلام فقد يكون مع الاسلام مؤمنا بلا نزاع وهذا هو الواجب وهل يكون مسلماً ولا يقال له مؤمن قد تقدم الكلام فيه وكذلك هل يستلزم الاسلام للايمان هذا فيه النزاع المذكور وسنبينه والوعد الذى في القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب انما هو معلق باسم الايمان وأما اسم الاسلام مجرداً فما علق به فى القرآن دخول الجنة لكنه فرضه وأخبر انه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه وبالاسلام بعث الله جميع النبيين قال تعالى (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) وقال (ان الدين عند الله الاسلام) وقال نوح (ياقوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيرى بايات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الي ولا تنظرون فان توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) وقد أخبر انه لم ينج من العذاب الا المؤمنين فقال (قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول منهم ومن آمن وما آمن معه الا قليل) وقال (وأوحي الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن) وقال نوح (وما أنا بطارد الذين آمنوا) وكذلك أخبر عن ابراهيم ان دينه الاسلام

فقال تعالى (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون) وقال (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلا) وبمجموع هذين الوصفين علق السعادة فقال (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون) كما علقه بالايمان باليوم الآخر والعمل الصالح فى قوله (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصاري والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون) وهذا يدل على ان الاسلام الذي هو اخلاص الدين لله مع الاحسان وهو العمل الصالح الذي أمر الله به هو والايمان المقرون بالعمل الصالح متلازمان فان الوعد على الوصفين وعد واحد وهو الثواب وانتفاء العقاب فان انتفاء الخوف علة تقتضي انتفاء مايخافه ولهذا قال لاخوف عليهم ولاهم يحزنون لم يقل لا يخافون فهم لا خوف عليهم وان كانوا يخافون الله ونفى عنهم أن يحزنوا لان الحزن انما يكون على ماض فهم لا يحزنون بحال لا فى القبر ولافي عرصات القيامة بخلاف الخوف فانه قد يحصل لهم قبل دخول الجنة ولاخوف عليهم فى الباطن كما قال تعالى (ألا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) وأما الاسلام المطلق المجرد فليس فى كتاب الله تعليق دخول الجنة به كما فى كتاب الله تعليق دخول الجنة بالايمان المطلق المجرد كقوله (سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) وقال (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) وقد وصف الخليل ومن اتبعه بالايمان كقوله (فآمن له لوط) ووصفه بذلك فقال (فأى الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون) وقال تعالى (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) ووصفه بأعلى طبقات الايمان وهو أفضل البرية بعد محمد صلى الله عليه وسلم والخليل انما دعا بالرزق للمؤمنين خاصة فقال (وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) وقال (واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) وقال موسى (ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) بعد قوله (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأهم أن يفتنهم) وقال (وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين) وقد ذكرنا البشرى المطلقة للمؤمنين فى قوله (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشري للمسلمين) وقد وصف الله السحرة بالاسلام والايمان معا فقالوا (آمنا برب العالمين رب موسى وهارون) وقالوا (وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) وقالوا (انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) وقالوا (ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) ٠ ووصف الله أنبياء بني اسرائيل بالاسلام فى قوله (انا أنزلنا التوراة فيها هدي ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) والانبياء كلهم مؤمنون ٠٠ ووصف الحواريين بالايمان والاسلام فقال تعالى (واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون

قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) . وحقيقة الفرق أن الاسلام دين والدين مصدر دان يدين ديناً اذا خضع وذل ودين الاسلام الذى ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فأصله فى القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ماسواه فمن عبده وعبد معه الهاً آخر لم يكن مسلماً ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً والاسلام هو الاستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له هكذا قال أهل اللغة اسلم الرجل اذا استسلم فالاسلام في الاصل من باب العمل عمل القلب والجوارح .. وأما الايمان فأصله تصديق واقرار ومعرفة فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب والاصل فيه التصديق والعمل تابع له فلهذا فسر النبى صلى الله عليه وسلم الايمان بايمان القلب وبخضوعه وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وفسر الاسلام باستسلام مخصوص وهو المباني الخمس وهكذا فى سائر كلامه صلى الله عليه وسلم يفسر الايمان بذلك النوع ويفسر الاسلام بهذا وذلك النوع أعلى .. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم الاسلام علانية والايمان فى القلب فان الاعمال الظاهرة يراها الناس وأما مافى القلب من تصديق ومعرفة وحب وخشية ورجاء فهذا باطن لكن له لوازم قد تدل عليه واللازم لايدل الا اذا كان ملزوما فلهذا كان من لوازمه مايفعله المؤمن والمنافق فلا يدل (١) فنى حديث عبد الله بن عمرو وأبي هريرة جميعاً أن النبى صلى الله عليه وسلم قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم ففسر المسلم بأمر ظاهر وهو سلامة الناس منه وفسر المؤمن بأمر باطن وهو أن يأمنوه على دمائهم وأموالهم وهذه الصفة أعلى من تلك فان من كان مأمونا سلم الناس منه وليس كل من سلموا منه يكون مأمونا فقديترك أذاهم وهم لايأمنون اليه خوفا أن يكون ترك أذاهم لرغبة ورهبة لا لايمان فى قلبه وفى حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم ماالاسلام قال اطعام الطعام ولين الكلام قال فما الايمان قال السماحة والصبر فاطعام الطعام عمل ظاهر يفعله الانسان لمقاصد متعددة وكذلك لين الكلام وأما السماحة والصبر فخلقان فى النفس قال تعالى (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) وهذا أعلى من ذاك وهو أن يكون صباراً شكوراً فيه سماحة بالرحمة للانسان وصبر على المكاره وهذا ضد الذي خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا فان ذاك ليس فيه سماحة عند النعمة ولا صبر عند المصيبة وتمام الحديث فأي الاسلام أفضل قال من سلم المسلمون من لسانه ويده قال يارسول الله أى المؤمنين أكمل ايمانا قال أحسنهم خلقاً قال يارسول الله أى القتل أشرف قال من أريق دمه وعقر جواده قال يارسول الله فأى الجهاد أفضل قال الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله قال يارسول الله فأى الصدقة أفضل قال جهد المقل قال يارسول الله فأى الصلاة أفضل قال طول القنوت قال يارسول الله فأى الهجرة أفضل قال من هجر السوء وهذا محفوظ عن عبيد بن عمير تارة يروى مرسلا وتارة روي مسنداً وفى رواية أي الساعات أفضل قال جوف الليل الغابر وقوله أفضل الايمان السماحة والصبر

(١) بياض بالاصل

يروى من وجه آخر عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم ٠٠ وهكذا فى سائر الاحاديث انما يفسر الاسلام بالاستسلام لله بالقلب مع الاعمال الظاهرة كما فى الحديث المعروف الذي رواه أحمد عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال والله يارسول الله ماأتيتك حتى حلفت عدد أصابعي هذه أن لا آتيك فبالذى بعثك بالحق مابعثك به قال الاسلام قال وما الاسلام قال أن تسلم قلبك لله وأن توجه وجهك الي الله وأن تصلى الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة اخوان نصيران لايقبل الله من عبد أشرك بعد اسلامه وفي رواية قال أن تقول أسلمت وجهي لله وتخليت وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وكل مسلم على مسلم محرم وفي لفظ تقول أسلمت نفسى لله وخليت وجهي اليه ٠٠ وروى محمد بن نصر من حديث خالد بن معدان عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان للاسلام ضوءاً ومناراً كمنار الطريق من ذلك ان تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وتسلم على بني آدم اذا لقيتهم فان ردوا عليك ردت عليك وعليهم الملائكة وان لم يردوا عليك ردت عليك الملائكة ولعنتهم ان سكت عنهم وتسليمك على اهل بيتك اذا دخلت عليهم فمن انتقص منهن شيئاً فهو سهم فى الاسلام تركه ومن تركهن فقد نبذ الاسلام وراء ظهره وقد قال تعالى (ياايها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) قال مجاهد وقتادة نزلت فى المسلمين يأمرهم بالدخول فى شرائع الاسلام كلها وهذا لا ينافي قول من قال نزلت فيمن أسلم من أهل الكتاب أو فيمن لم يسلم لان هؤلاء كلهم مأمورون أيضاً بذلك والجمهور يقولون فى السلم أي فى الاسلام وقالت طائفة هو الطاعة وكلاهما مأثور عن ابن عباس وكلاهما حق فان الاسلام هو الطاعة كما تقدم انه من باب الاعمال ٠٠ وأما قوله كافة فقد قيل المراد ادخلوا كلكم وقيل المراد به ادخلوا في الاسلام جميعه وهذا هو الصحيح فان الانسان لايؤمر بعمل غيره وانما يؤمر بما يقدر عليه وقوله ادخلوا خطاب لهم كلهم فقوله كافة ان أريد به مجتمعين لزم أن يترك الانسان الاسلام حتى يسلم غيره فلا يكون الاسلام مأموراً به الا بشرط الغير له كالجمعة وهذا لايقوله مسلم وان أريد بكافة أى ادخلوا جميعكم فكل أوامر القرآن كقوله (آمنوا بالله ورسوله وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) كلها من هذا الباب وماقيل فيها كافة وقوله تعالى (قاتلوا المشركين كافة) أى قاتلوهم كلهم لاتدعوا مشركا حتى تقاتلوه فانها أنزلت بعد نبذ العهود ليس المراد قاتلوهم مجتمعين أو جميعكم فان هذا لايجب بل يقاتلون بحسب المصلحة والجهاد فرض على الكفاية فاذا كانت فرائض الاعيان لم يؤكد المأمورين فيها بكافة فكيف يؤكد بذلك فى فروض الكفاية وانما المقصود تعميم المقاتلين وقوله (كما يقاتلونكم كافة) احتمالان ٠٠ والمقصود ان الله أمر بالدخول فى جميع الاسلام كما دل عليه هذا الحديث فكل ماكان من الاسلام وجب الدخول فيه فان كان واجباً على الاعيان لزمه فعله وان كان واجباً على الكفاية اعتقد وجوبه وعزم عليه اذا تعين أو أخذ بالفضل ففعله وان كان مستحباً اعتقد حسنه وأحب فعله وفي حديث جرير أن رجلا قال يارسول الله صف لى الاسلام قال تشهد أن لااله الا الله وتقر بما جاء من عند الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت قال أقررت فى قصة

طويلة فيها انه وقع في أخاقيق جرذان وانه قتل وكان جائعا وملكان يدسان فى شدقه من ثمار الجنة فقوله وتقر بما جاء من عند الله هو الاقرار بأن محمداً رسول الله فانه هو الذى جاء بذلك وفى الحديث الذى يرويه أبو سليمان الداراني حديث الوفد الذين قالوا نحن المؤمنون قال فما علامة ايمانكم قالوا خمس عشرة خصلة خمس أمرتنا رسلك أن نعمل بهن وخمس أمرتنا رسلك أن نؤمن بهن وخمس تخلقنا بها فى الجاهلية ونحن عليها فى الاسلام الا أن تكره منها شيئاً قال فما الخمس التي أمرتكم رسلى أن تعملوا بها قالوا أن نشهد أن لااله الا الله وأن محمداً رسول الله ونقيم الصلاة ونؤتى الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت قال وما الخمس التى أمرتكم أن تؤمنوا بها قالوا أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت قال وما الخمس التى تخلقتم بها في الجاهلية وثبتم عليها فى الاسلام قالوا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضى بمر القضاء والصدق فى مواطن اللقاء وترك الشماتة بالاعداء فقال النبى صلى الله عليه وسلم علماء حكماء كادوا من صدقهم أن يكونوا أنبياء فقال صلى الله عليه وسلم وأنا أزيدكم خمساً فتتم لكم عشرون خصلة ان كنتم كما تقولون فلا تجمعوا مالا تأكلون ولا تبنوا مالا تسكنون ولا تنافسوا فيما أنتم عنه منتقلون واتقوا الله الذي اليه ترجعون وعليه تعرضون وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون فقد فرقوا بين الخمس التى يعمل بها فجعلوها الاسلام والخمس التى يؤمن بها فجعلوها الايمان وجميع الاحاديث المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم تدل على مثل هذا وفى الحديث الذى رواه أحمد من حديث أيوب عن أبى قلابة عن رجل من أهل الشام عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له أسلم تسلم قال وما الاسلام قال أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك قال فأي الاسلام أفضل قال الايمان قال وما الايمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت قال فأى الايمان أفضل قال الهجرة قال وما الهجرة قال أن تهجر السوء قال فاى الهجرة أفضل قال الجهاد قال وما الجهاد قال أن تجاهد الكفار اذا لقيتهم ولا تغل ولا تجبن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عملان هما أفضل الاعمال الا من عمل بمثلهما قالها ثلاثا حجة مبرورة أو عمرة وقوله هما أفضل الاعمال أى بعد الجهاد لقوله ثم عملان ففى الحديث جعل الايمان خصوصاً فى الاسلام والاسلام أعم منه كما جعل الهجرة خصوصاً فى الايمان والايمان أعم منه وجعل الجهاد خصوصاً من الهجرة والمهاجر أعم منه فالاسلام أن تعبد الله وحده لاشريك له مخلصاً له الدين وهذا دين الله الذى لايقبل من أحد غيره لا من الاولين ولا من الآخرين ولا تكون عبادته مع ارسال الرسل الينا الا بما أمرت به رسله لا بما يضاد ذلك فان ضد ذلك معصية وقد ختم الله الرسل بمحمد صلى الله عليه وسلم فلا يكون مسلماً الا من شهد أن لااله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله .. وهذه الكلمة بها يدخل الانسان في الاسلام فمن قال الاسلام الكلمة وأراد هذا فقد صدق ثم لابد من التزام ماأمر به الرسول من الاعمال الظاهرة كالمبانى الخمس ومن ترك من ذلك شيئاً نقص اسلامه بقدر مانقص من ذلك كما في الحديث من انتقص منهن شيئاً فهو سهم من الاسلام تركه وهذه الاعمال اذا عملها الانسان مخلصاً لله تعالى فانه يثيبه عليها ولا يكون ذلك الا مع اقراره بقلبه

أنه لااله الا الله وأن محمداً رسول الله فيكون معه من الايمان هذا الاقرار وهذا الاقرار لايستلزم أن يكون صاحبه معه من اليقين مالا يقبل الريب ولا أن يكون مجاهداً ولا سائر مايتميز به المؤمن عن المسلم الذي ليس بمؤمن وخلق كثير من المسلمين باطناً وظاهراً معهم هذا الاسلام بلوازمه من الايمان ولم يصلوا الى اليقين والجهاد فهؤلاء يثابون على اسلامهم واقرارهم بالرسول مجملا قد لايعرفون انه جاء بكتاب وقد لايعرفون انه جاءه ملك ولانه أخبر بكذا واذا لم يبلغهم أن الرسول أخبر بذلك لم يكن عليهم الاقرار المفصل به لكن لابد من الاقرار بأنه رسول الله وانه صادق في كل ما يخبر به عن الله ثم الايمان الذى يمتاز به فيه تفصيل وفيه طمأنينة ويقين فهذا متميز بصفته وقدره فى الكمية والكيفية فان أولئك معهم من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وتفصيل المعاد والقدر مالا يعرفه هؤلاء وأيضاً ففي قلوبهم من اليقين والثبات ولزوم التصديق لقلوبهم ماليس مع هؤلاء وأولئك هم المؤمنون حقاً وكل مؤمن لا بد أن يكون مسلماً فان الايمان يستلزم الاعمال وليس كل مسلم مؤمناً هذا الايمان المطلق لان الاستسلام لله والعمل له لا يتوقف على هذا الايمان الخاص وهذا الفرق يجده الانسان من نفسه ويعرفه من غيره فعامة الناس اذا أسلموا بعد كفر وولدوا على الاسلام والتزموا شرائعه وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله فهم مسلمون ومعهم ايمان مجمل ولكن دخول حقيقة الايمان الي قلوبهم انما يحصل شيئاً فشيئاً ان أعطاهم الله ذلك والا فكثير من الناس لا يصلون لا الي اليقين ولا الي الجهاد ولو شككو الشكوا ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا وليسوا كفاراً ولا منافقين بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرء الريب ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الاهل والمال وهؤلاء ان عرفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة وان ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم فان لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب والاصاروا مرتابين وانتقلوا الى نوع من النفاق وكذلك اذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من أهل الوعيد ولهذا لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم عامة أهلها فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق فلو مات هؤلاء قبل الامتحان لماتوا على الاسلام ودخلوا الجنة ولم يكونوا من المؤمنين حقا الذين ابتلوا فظهر صدقهم قال تعالى ﴿ أم حسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ وقال تعالى ﴿ ماكان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ وقال ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ ولهذا ذم المنافقين بأنهم دخلوا فى الايمان ثم خرجوا منه بقوله تعالى ﴿ ان المنافقين لكاذبون اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله الى قوله ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ وقال فى الآية الاخري ﴿ يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة الى قوله قل بالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بانهم كانوا مجرمين ﴾ فقد أمره ان يقول لهم قد كفرتم بعد ايمانكم وقول من يقول عن مثل هذه الآيات انهم كفروا بعد ايمانهم بلسانهم مع كفرهم أولا بقلوبهم لا يصح لان الايمان باللسان مع

كفر القلب قد قارنه الكفر فلا يقال قد كفرتم بعد ايمانكم فانهم لم يزالوا كافرين في نفس الامر وان أريد انكم أظهرتم الكفر بعد اظهاركم الايمان فهم لم يظهروا للناس الا لخواصهم وهم مع خواصهم ما زالوا هكذا بل لما نافقوا وحذروا ان تنزل سورة تبين ما فى قلوبهم من النفاق وتكلموا بالاستهزاء صاروا كافرين بعد ايمانهم ولا يدل اللفظ على انهم ما زالوا منافقين وقد قال تعالى ﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا الا ان أغناهم الله ورسوله من فضله فان يتوبوا يك خيراً لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليما فى الدنيا والآخرة ﴾ فهنا قال كفروا بعد اسلامهم فهذا الاسلام قد يكون من جنس اسلام الاعراب فيكون قوله بعد ايمانهم وبعد اسلامهم سواء وقد يكونون ما زالوا منافقين فلم يكن لهم حال كان معهم فيها من الايمان شئ لكنهم أظهروا الكفر والردة .. ولهذا دعاهم الى التوبة فقال فان يتوبوا يك خيراً لهم وان يتولوا بعد التوبة عن التوبة يعذبهم عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة وهذا انما هو لمن أظهر الكفر فيجاهده الرسول باقامة الحد والعقوبة .. ولهذا ذكر هذا فى سياق قوله ﴿ جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ ولهذا قال في تمامها ﴿ وما لهم في الارض من ولى ولا نصير ﴾ .. وهؤلاء الصنف الذين كفروا بعد اسلامهم غير الذين كفروا بعد ايمانهم فان هؤلاء حلفوا بالله ما قالوا وقد قالوا كلمة الكفر التى كفروا بها بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوه وهو يدل على أنهم سعوا في ذلك فلم يصلوا الى مقصودهم فانه لم يقل هموا بما لم يفعلوا لكن بما لم ينالوا فصدر منهم قول وفعل قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب ﴾ فاعترفوا واعتذروا ولهذا قيل ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة ﴾ فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفراً بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر فبين أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد ايمانه فدل على انه كان عندهم ايمان ضعيف ففعلوا هذا المحرم الذى عرفوا أنه محرم ولكن لم يظنوه كفراً وكان كفراً كفروا به فانهم لم يعتقدوا جوازه وهكذا قال غير واحد من السلف في صفة المنافقين الذين ضرب لهم المثل فى سورة البقرة انهم أبصروا ثم عموا وعرفوا ثم انكروا وآمنوا ثم كفروا ولذلك قال قتادة ومجاهد ضرب المثل لاقبالهم على المؤمنين وسماعهم ما جاء به الرسول وذهاب نورهم قال مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون الي ما كانوا عليه .. وأما قول من قال المراد بالنور ما حصل فى الدنيا من حقن دمائهم وأموالهم فاذا ماتوا سلبوا ذلك الضوء كما سلب ذلك النور ضوءه فلفظ الآية يدل على خلاف ذلك فانه قال ﴿ وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾ ويوم القيامة يكونون فى العذاب كما قال تعالى ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴾

الآية وقد قال غير واحد من السلف ان المنافق يعطى يوم القيامة نوراً ثم يطفأ ولهذا قال تعالى (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعي بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا) قال المفسرون اذا رأى المؤمنون نور المنافقين يطفأ سألوا الله أن يتم لهم نورهم ويبلغهم به الجنة قال ابن عباس ليس أحد من المسلمين الا يعطى نوراً يوم القيامة فأما المنافق فيطفى نوره والمؤمن يشفق مما رأي من اطفاء نور المنافق فهو يقول ربنا أتمم لنا نورنا وهو كما قال فقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وهو ثابت من وجوه أخر عن النبي صلى الله عليه وسلم ورواه مسلم من حديث جابر وهو معروف من حديث ابن مسعود وهو أطولها ومن حديث أبى موسى في الحديث الطويل الذى يذكر فيه انه ينادى يوم القيامة ليتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هذه الامة فيها منافقوها فيأتيهم الله فى صورة غير صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فاذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله في صورته التى يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه وفى رواية فيكشف عن ساقه وفي رواية فيقول هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها فيقولون نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه الا أذن له بالسجود ولا يبقي من كان يسجد أنفاً ورياء الا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه فبين أن المنافقين يحشرون مع المؤمنين فى الظاهر كما كانوا معهم فى الدنيا ثم وقت الحقيقة هؤلاء يسجدون لربهم وأولئك لا يتمكنون من السجود فانهم لم يسجدوا فى الدنيا له بل قصدوا الرياء للناس والجزاء فى الآخرة هو من جنس العمل في الدنيا فلهذا أعطوا نوراً ثم طفىء لانهم فى الدنيا دخلوا فى الايمان ثم خرجوا ..

ولهذا ضرب الله لهم المثل بهذا بذلك وهذا المثل هو لمن كان فيهم آمن ثم كفر وهؤلاء الذين يعطون في الآخرة نوراً ثم يطفى . ولهذا قال فهم لا يرجعون قال قتادة ومقاتل لا يرجعون عن ضلالهم وقال السدى لا يرجعون الى الاسلام يعنى فى الباطن والا فهم يظهرونه وهذا المثل انما يكون في الدنيا وهذا المثل مضروب لبعضهم وهم الذين آمنوا ثم كفروا وأما الذين لم يزالوا منافقين فضرب لهم المثل الآخر وهو قوله (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق) وهذا أصح القولين فان المفسرين اختلفوا هل المثلان مضروبان لهم كلهم أو هذا المثل لبعضهم على قولين والثانى هو الصواب لأنه قال أو كصيب وانما يثبت بها أحد الامرين فدل ذلك على أنهم مثلهم هذا وهذا فانهم لا يخرجون عن المثلين بل بعضهم يشبه هذا وبعضهم يشبه هذا ولو كانوا كلهم يشبهون المثلين لم يذكر أو بل يذكر الواو العاطفة وقول من قال أو ههنا للتخيير كقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين ليس بشىء لان التخيير يكون فى الامر لا يكون في الخبر وهذا خبر وكذلك قول من قال أو بمعنى الواو أو لتشكيك المخاطبين أو الابهام عليهم ليس بشىء فان الله يريد بالامثال البيان والتفهيم لا يريد التشكيك والابهام .. والمقصود تفهيم المؤمنين حالهم ويدل على ذلك انه قال فى المثل الاول (صم بكم عمى) وقال فى الثانى (يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق

حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شئ قدير) فبين فى المثل الثانى انهم يسمعون ويبصرون ولوشاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم وفى الاول كانوا يبصرون ثم صاروا في ظلمات لايبصرون صم بكم عمى وفى الثاني اذا أصابهم البرق مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا فلهم حالان حال ضياء وحال ظلام والاولون بقوا في الظلمة فالاول حال من كان فى ضوء فصار فى ظلمة والثانى حال من لم يستقر لافي ضوء ولافى ظلمة بل تختلف عليه الاحوال التي توجب مقامه واسترابته يبين هذا انه سبحانه ضرب للكفار أيضاً مثلين بحرف أو فقال (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتي اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) فالاول مثل الكفر الذى يحسب صاحبه أنه على حق وهو على باطل كمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فانه لا يعلم ولا يعلم انه لا يعلم فلهذا مثل بسراب بقيعة والثاني مثل الكفر الذي لا يعتقد صاحبه شيئاً بل هو فى ظلمات بعضها فوق بعض من عظم جهله لم يكن معه اعتقاد انه على حق بل لم يزل جاهلا ضالا في ظلمات متراكمة .. وأيضاً فقد يكون المنافق والكافر تارة متصفاً بهذا الوصف فيكون التقسيم فى المثلين لنوع الاشخاص ولتنوع أحوالهم وبكل حال فليس ما ضرب له هذا المثل هو مماثل لما ضرب له هذا المثل لاختلاف المثلين صورة ومعنى ولهذا لم يضرب للايمان الا مثل واحد لأن الحق واحد فضرب مثله بالنور وأولئك ضرب لهم المثل بضوء لا حقيقة له كالسراب بالبقيعة أو بالظلمات المتراكمة وكذلك المنافق يضرب له المثل بمن أبصر ثم عمى أو هو مضطرب يسمع ويبصر مالا ينتفع به فتبين أن من المنافقين من كان آمن ثم كفر باطناً وهذا مما استفاض به النقل عند أهل العلم بالحديث والتفسير والسيرة انه كان رجال قد آمنوا ثم نافقوا وكان يجري ذلك لاسباب منها أمر القبلة لما حولت ارتد عن الايمان لاجل ذلك طائفة وكانت محنة امتحن الله بها الناس قال تعالي (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الالنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) قال أي اذا حولت والمعنى أن الكعبة هي القبلة التي كان فى علمنا أن نجعلها قبلتكم فان الكعبة ومسجدها وحرمها أفضل بكثير من بيت المقدس وهى بيت العتيق وقبلة ابراهيم وغيره من الانبياء ولم يأمر الله قط أحداً أن يصلى الي بيت المقدس لا موسى ولا عيسى ولا غيرهما فلم نكن لنجعلها قبلة دائمة ولكن جعلناها أولا قبلة لنمتحن بتحويلك منها الناس فيتبين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه فكان فى شرعها هذه الحكمة .. وكذلك أيضا لما انهزم المسلمون يوم أحد وشج وجه النبى صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته ارتد طائفة نافقوا قال تعالى (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم موءمنين ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) وقال تعالى (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم الموءمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا

قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون) فقوله وليعلم الذين نافقوا ظاهر فيمن أحدث نفاقا وهو يتناول من لم ينافق قبل ومن نافق ثم جدد نفاقا ثانياً وقوله هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يبين أنهم لم يكونوا قبل ذلك أقرب منهم بل إما أن يتساويا وإما أن يكونوا للايمان أقرب وكذلك كان فان ابن أبي لما انخزل عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد انخزل ثلث الناس قالوا كانوا نحو ثلاثمائة وهؤلاء لم يكونوا قبل ذلك كلهم منافقين في الباطن اذ لم يكن لهم داع الى النفاق فان ابن أبي كان مظهرا لطاعة النبي صلى الله عليه وسلم والايمان به وكان كل يوم جمعة يقوم خطيباً في المسجد يأمر باتباع النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن مافي قلبه يظهر الا لقليل من الناس ان ظهر وكان معظما في قومه كانوا قد عزموا على أن يتوجوه ويجعلوه مثل الملك عليهم فلما جاءت النبوة بطل ذلك فحمله الحسد على النفاق والا فلم يكن هو في الباطن على دين يدعو اليه وانما كان هذا في اليهود فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم بدينه وقد ظهر حسنه ونوره مالت اليه القلوب لاسيما لما نصره الله يوم بدر ونصره من يهود بني قينقاع صار معه الدين والدنيا فكان المقتضى للايمان في عامة الانصار قائماً وكان كثير منهم يعظم ابن أبي تعظيما كثيراً ويواليه ولم يكن ابن أبي أظهر مخالفة توجب الامتياز فلما انخزل يوم أحد وقال يدع رأيي ورأيه ويأخذ برأي الصبيان أو كما قال انخزل معه خلق كثير منهم من لم ينافق قبل ذلك .. وفي الجملة في الاخبار عمن نافق بعد ايمانه ما يطول ذكره هنا فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم ايمان هو الضوء الذي ضرب الله به المثل فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق ماتوا على هذا الاسلام الذي يثابون عليه ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين امتحنوا فثبتوا على الايمان ولا من المنافقين حقاً الذين ارتدوا عن الايمان بالمحنة وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا وأكثرهم اذا ابتلوا بالمحن التي يتضعضع فيها أهل الايمان ينقص ايمانهم كثيراً وينافق كثير منهم ومنهم من يظهر الردة اذا كان العدو غالباً وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة واذا كانت العافية أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين وهم مؤمنون بالرسول باطناً وظاهراً لكن ايماناً لا يثبت على المحنة . ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم وهؤلاء من الذين قالوا آمنا فقيل لهم قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم أي الايمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقاً فان هذا هو الايمان اذا أطلق في كتاب الله تعالى كما دل عليه الكتاب والسنة ولهذا قال تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الايمان في القلوب والريب يكون في علم القلب وفي عمل القلب بخلاف الشك فانه لا يكون الا في العلم ولهذا لا يوصف باليقين الا من اطمأن قلبه علما وعملا والا فاذا كان عالماً بالحق ولكن المصيبة او الخوف اورثه جزعا عظيما لم يكن صاحب يقين قال تعالى (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) وكثيراً مايعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ثم يتوب الله عليه وقد يرد على قلبه بعض مايوجب النفاق ويدفعه الله عنه والمؤمن يبتلى بوساوس الشيطان بوساوس الكفر التي

يضيق بها صدره كما قالت الصحابة يارسول الله ان احدنا ليجد فى نفسه مالئن يخر من السماء الى الارض أحب اليه من أن يتكلم به فقال ذاك صريح الايمان وفى رواية مايتعاظم أن يتكلم به قال الحمد لله الذى رد كيده الى الوسوسة أي حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب هو من صريح الايمان كالمجاهد الذى جاءه العدو فدافعه حتى غلبه فهذا عظيم الجهاد والصريح الخالص كاللبن الصريح وانما صار صريحاً لما كرهوا تلك الوساوس الشيطانية ودفعوها نخلص الايمان فصار صريحاً ..
ولابد لعامة الخلق من هذه الوساوس فمن الناس من يجيبها فيصير كافرا أو منافقاً ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يجيبها الا اذا طلب الدين فاما أن يصير مؤمناً واما أن يصير منافقا ولهذا يعرض للناس من الوساوس فى الصلاة مالا يعرض لهم اذا لم يصلوا لان الشيطان يكثر تعرضه للعبد اذا أراد الانابة الى ربه والتقرب اليه والاتصال به فلهذا يعرض للمصلين مالا يعرض لغيرهم ويعرض للخاصة أهل العلم والدين أكثر مايعرض للعامة ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ماليس عند غيرهم لانه لم يسلك شرع الله ومنهاجه بل هو مقبل على هواه فى غفلة عن ذكر ربه وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين الي ربهم بالعلم والعبادة فانه عدوهم يطلب صدهم عن الله قال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) ولهذا أمر قاريء القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فان قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الايمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء وقال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا) وقال تعالى (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) وقال تعالى (هدى للمتقين) وقال تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون) وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه فالشيطان يريد بوسواسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن فأمر الله القاريء اذا قرأ القرآن أن يستعيذ منه قال تعالى (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) فان المستعيذ بالله مستجير به لاجيء اليه مستغيث به من الشيطان فالعائذ بغيره مستجير به فاذا عاذ العبد بربه متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه ولذلك قال الله تعالى (ادفع بالتي هى أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ومايلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم) .. وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال انى لاعلم كلمة لو قالها لذهب عنه مايجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه عنه وعند مايعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند ارادة العبد للحسنات وعند مايأمره الشيطان بالسيئات .. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لايزال الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق الله فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته فأمر بالاستعاذة عند ما يطلب الشيطان أن يوقعه في شر أو يمنعه من خير كما يفعل العدو مع عدوه وكلما كان الانسان أعظم رغبة فى العلم والعبادة وأقدر على ذلك من غيره بحيث

تكون قوته على ذلك أقوى ورغبته وارادته فى ذلك أتم كان مايحصل له ان سلمه الله من الشيطان أعظم وكان مايفتتن به ان تمكن منه الشيطان أعظم .. ولهذا قال الشعبي كل أمة علماؤها شرارها الا المسلمين فان علماءهم خيارهم .. وأهل السنة فى الاسلام كالاسلام في الملل وذلك ان كل أمة غير المسلمين فهم ضالون وانما يضلهم علماؤهم فعلماؤهم شرارهم والمسلمون على هدى وانما يتبين الهدي بعلمائهم فعلماؤهم خيارهم وكذلك أهل السنة أئمتهم خيار الامة وأئمة أهل البدع أضر على الامة من أهل الذنوب .. ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الخوارج ونهى عن قتال الولاة الظلمة وأولئك لهم نهمة في العلم والعبادة فصار يعرض لهم من الوساوس التى تضلهم وهم يظنونها هدي فيطيعونها مالا يعرض لغيرهم ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصابيح الهدى وينابيع العلم كما قال ابن مسعود لاصحابه كونوا ينابيع العلم مصابيح الحكمة سرج الليل جدد القلوب أحلاس البيوت خلقان الثياب تعرفون فى أهل السماء وتخفون على أهل الارض

﴿ فصل ﴾ ومما ينبغي أن يعلم أن الالفاظ الموجودة فى القرآن والحديث اذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج فى ذلك الي الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ولهذا قال الفقهاء الاسماء ثلاثة أنواع نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف في قوله (وعاشروهن بالمعروف ونحو ذلك) وروى عن ابن عباس أنه قال تفسير القرآن على أربعة أوجه تفسير تعرفه العرب من كلامها وتفسير لايعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لايعلمه الا الله من ادعى علمه فهو كاذب فاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك قد بين الرسول صلى الله عليه وسلم مايراد بها في كلام الله ورسوله وكذلك لفظ الخمر وغيرها ومن هناك يعرف معناها فلو أراد أحد أن يفسرها بغير مابينه النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل منه وأما الكلام في اشتقاقها ووجه دلالتها فذاك من جنس علم البيان وتعليل الاحكام هو زيادة فى العلم وبيان حكمة ألفاظ القرآن لكن معرفة المراد بها لايتوقف على هذا واسم الايمان والاسلام والنفاق والكفر هي أعظم من هذا كله فالنبي صلى الله عليه وسلم قد بين المراد بهذه الالفاظ بيانا لا يحتاج معه الى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك فلهذا يجب الرجوع فى مسميات هذه الاسماء الى بيان الله ورسوله فانه شاف كاف بل معاني هذه الاسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة بل كل من تأمل ماتقوله الخوارج والمرجئة فى معنى الايمان علم بالاضطرار أنه مخالف للرسول ويعلم بالاضطرار أن طاعة الله ورسوله من تمام الايمان وانه لم يكن يجعل كل من أذنب ذنباً كافراً ويعلم أنه لو قدر أن قوما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم نحن نؤمن بما جئتنا به بقلوبنا من غير شك ونقر بألسنتنا بالشهادتين الا أنا لانطيعك فى شيء مما أمرت به ونهيت عنه فلا نصلى ولا نصوم ولا نحج ولا نصدق الحديث ولا نؤدى الامانة ولا نفى بالعهد ولا نصل الرحم ولا نفعل شيئاً من الخير الذي أمرت به ونشرب الخمر وننكح ذوات المحارم بالزنا الظاهر ونقتل من قدرنا عليه من أصحابك

وأمتك ونأخذ أموالهم بل نقتلك أيضاً ونقاتلك مع أعدائك هل كان يتوهم عاقل أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم أنتم مؤمنون كاملو الايمان وأنتم من أهل شفاعتي يوم القيامة ويرجي لكم أن لا يدخل أحد منكم النار بل كل مسلم يعلم بالاضطرار أنه يقول لهم أنتم أكفر الناس بما جئت به ويضرب رقابهم ان لم يتوبوا من ذلك وكذلك كل مسلم يعلم أن شارب الخمر والزاني والقاذف والسارق لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يجعلهم مرتدين يجب قتلهم بل القرآن والنقل المتواتر عنه يبين أن هؤلاء لهم عقوبات غير عقوبة المرتد عن الاسلام كما ذكر الله في القرآن جلد القاذف والزاني وقطع السارق وهذا متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم ولو كانوا مرتد لقتلهم فكلا القولين مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسول صلى الله عليه وسلم .. وأهل البدع انما دخل عليهم الداخل لانهم أعرضوا عن هذه الطريق وصاروا يبنون دين الاسلام على مقدمات يظنون صحتها إما في دلالة الالفاظ وإما في المعاني المعقولة ولا يتأملون بيان الله ورسوله وكل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله فانها تكون ضلالا ولهذا تكلم أحمد في رسالته المعروفة في الرد على من يتمسك بما يظهر له من القرآن من غير استدلال ببيان الرسول والصحابة والتابعين وكذلك ذكر في رسالته الى أبي عبد الرحمن الجرجاني في الرد على المرجئة وهذه طريقة سائر أئمة المسلمين لايعدلون عن بيان الرسول اذا وجدوا الى ذلك سبيلا ومن عدل عن سبيلهم وقع في البدع التي مضمونها أنه يقول على الله ورسوله مالا يعلم أو غير الحق وهذا مما حرمه الله ورسوله وقال تعالى في الشيطان (انما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) وقال تعالى (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لايقولوا على الله الا الحق) وهذا من تفسير القرآن بالرأى الذى جاء فيه الحديث من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار .. مثال ذلك ان المرجئة لما عدلوا عن معرفة كلام الله ورسوله أخذوا يتكلمون في مسمى الايمان والاسلام وغيرهما بطرق ابتدعوها مثل أن يقولوا الايمان في اللغة هو التصديق والرسول انما خاطب الناس بلغة العرب لم يغيرها فيكون مراده بالايمان التصديق ثم قالوا والتصديق انما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب فالاعمال ليست من الايمان ثم عمدتهم في أن الايمان هو التصديق قوله (وما أنت بمؤمن لنا) أي بمصدق لنا .. فيقال لهم اسم الايمان قد تكرر ذكره في القرآن أكثر من ذكر سائر الالفاظ وهو أصل الدين وبه يخرج الناس من الظلمات الى النور ويفرق بين السعداء والاشقياء ومن يوالى ومن يعادى والدين كله تابع لهذا وكل مسلم محتاج الى معرفة ذلك فيجوز أن يكون الرسول قد أهمل بيان هذا ووكله الى هاتين المقدمتين ومعلوم أن الشاهد الذى استشهدوا به على أن الايمان هو التصديق انه من القرآن ونقل معنى الايمان متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أعظم من تواتر لفظ الكلمة فان الايمان يحتاج الى معرفة جميع الامة فينقلونه بخلاف كلمة من سورة فأكثر المؤمنين لم يكونوا يحفظون هذه السورة فلا يجوز أن يجعل بيان أصل الدين مبنيا على مثل هذه المقدمات ولهذا كثر النزاع والاضطراب بين الذين عدلوا عن صراط الله المستقيم وسلكوا السبل وصاروا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ومن الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءتهم البينات فهذا كلام عام

مطلق .. ثم يقال هاتان المقدمتان كلاهما ممنوعة فمن الذى قال ان لفظ الايمان مرادف للفظ التصديق وهب أن المعنى يصح اذا استعمل فى هذا الموضع فلم قلت انه يوجب الترادف ولو قلت ماأنت بمسلم لنا ماأنت بمؤمن لنا صح المعنى لكن لم قلت ان هذا هو المراد بلفظ مؤمن واذا قال الله أقيموا الصلاة ولو قال القائل أتموا الصلاة ولازموا الصلاة التزموا الصلاة افعلوا الصلاة كان المعنى صحيحاً لكن لايدل هذا على معنى أقيموا فكون اللفظ يرادف اللفظ يراد دلالته على ذلك ثم يقال ليس هو مرادفا له وذلك من وجوه .. أحدها أن يقال للمخبر اذا صدقته صدقه ولا يقال آمنه وآمن به بل يقال آمن له كما قال (فآمن له لوط) وقال (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه) وقال فرعون(آمنتم له قبل أن آذن لكم) وقالوا لنوح (أنؤمن لك واتبعك الارذلون) وقال تعالى (قل أذُنُ خيرٍ لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين، وقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) وقال(وان لم تؤمنوا لى فاعتزلون) .. فان قيل فقد يقال ما أنت بمصدق لنا .. قيل اللام تدخل على ما يتعدي بنفسه اذا ضعف عمله اما بتأخيره أو بكونه اسم فاعل أو مصدراً أو باجتماعهما فيقال فلان يعبد الله ويخافه ويتقيه ثم اذا ذكر باسم الفاعل قيل هو عابد لربه متق لربه خائف لربه وكذلك تقول فلان يرهب الله ثم تقول هو راهب لربه واذا ذكرت الفعل وأخرته تقويه باللام كقوله (وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) وقدقال (فاياي فارهبون) فعداه بنفسه وهناك ذكر اللام فان هنا قوله فاياي أتم من قوله فى وقوله هنالك لربهم أتم من قوله ربهم فان الضمير المنفصل المنصوب أكمل من ضمير الجر بالباء وهناك اسم ظاهر فتقويته باللام أولى وأتم من تجريده ومن هذا قوله (ان كنتم للرؤيا تعبرون) ويقال عبرت رؤياه وكذلك قوله (وانهم لنا لغائظون) وانما يقال غظته لايقال غظت له ومثله كثير فيقول القائل ماأنت بمصدق لنا أدخل فيه اللام كونه اسم فاعل والا فانما يقال صدقته لايقال صدقت له ولوذكروا الفعل لقالوا ماصدقتنا وهذا بخلاف لفظ الايمان فانه تعدي الى الخبر باللام دائماً لايقال آمنته قط وانما يقال آمنت له كما يقال أقررت فكان تفسيره بلفظ الاقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق مع أن بينهما فرقا .. الثانى انه ليس مرادفا للفظ التصديق فى المعنى فان كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له فى اللغة صدقت كما يقال كذبت فمن قال السماء فوقنا قيل له صدق كما يقال كذب وأما لفظ الايمان فلا يستعمل الا في الخبر عن غائب لم يوجد في الكلام ان من أخبر عن مشاهدة كقوله طلعت الشمس وغربت انه يقال آمنا كما يقال صدقناه ولهذا المحدثون والشهود ونحوهم يقال صدقناهم وما يقال آمنا لهم فان الايمان مشتق من الامن فانما يستعمل فى خبر يؤتمن عليه المخبر كالأمر الغائب الذى يؤتمن عليه المخبر ولهذا لم يوجد قط فى القرآن وغيره لفظ آمن له الا فى هذا النوع والاثنان اذا اشتركا فى معرفة الشيء يقال صدق أحدهما صاحبه ولا يقال آمن له لانه لم يكن غائباً عنه ائتمنه عليه ولهذا قال(فآمن له لوط، أنؤمن لبشرين مثلنا، آمنتم له، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) فيصدقهم فيما أخبروا به مما غاب عنه وهو مأمون عنده على ذلك فاللفظ متضمن مع التصديق معنى الائتمان والامانة كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق ولهذا قالوا(ماأنت بمؤمن لنا) أى

لانقر بخبرنا ولا نثق به ولا نطمئن اليه ولو كنا صادقين لانهم لم يكونوا عنـده ممن يؤتمن على ذلك فلو صدقوا لم يأمن لهم .. الثالث ان لفظ الايمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب كلفظ التصديق فانه من المعلوم فى اللغة أن كل مخبر يقال له صدقت أو كذبت ويقال صدقناه أو كذبناه ولا يقال لكل مخبر آمنا له أو كذبناه ولا يقال أنت مؤمن له أو مكذب له بل المعروف في مقابلة الايمان لفظ الكفر يقال هو مؤمن أو كافر والكفر لايختص بالتكذيب بل لو قال أنا أعلم أنك صادق لكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك لكان كفره أعظم فلو كان الكفر المقابل للايمان ليس هو التكذيب فقط علم أن الايمان ليس هو التصـديق فقط بل اذا كان الكفر يكون تكذيبا ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعا بلا تكذيب فلابد أن يكون الايمان تصديقاً مع موافقة وموالاة وانقياد لايكفى مجرد التصديق فيكون الاسلام جزء مسمى الايمان كما كان الامتناع من الانقياد مع التصـديق جزء مسمى الكفر فيجب أن يكون كل مؤمن مسلماً منقاداً للأمر وهذا هو العمل .. فان قيل فالرسول صلى الله عليه وسـلم فسر الايمان بما يؤمن به .. قيل فالرسول ذكر مايؤمن به لم يذكر مايؤمن له وهو نفسه يجب أن يؤمن به ويؤمن له فالايمان به من حيث ثبوته غيب عنا أخبرنا بها وليس كل غيب آمنا به علينا أن نطيعه وأما ما يجب من الايمان له فهو الذى يوجب طاعته والرسول يجب الايمان به وله فينبغي أن يعرف هذا وأيضاً فان طاعته طاعة لله وطاعة الله من تمام الايمان به .. الرابع ان من الناس من يقول الايمان أصله في اللغة من الامن الذي هو ضد الخوف فآمن أي صار داخلا فى الامن وأنشدوا ...... وأما المقدمة الثانية فيقال انه اذا فرض انه مرادف للتصديق فقولهم ان التصديق لا يكون الا بالقلب أو اللسان عنـه جوابان .. أحدهما المنع بل الافعال تسمي تصديقاً كما ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه قال العينان تزنيان وزناهما النظر والاذن تزني وزناها السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشى والقلب يتمنى ذلك ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه وكذلك قال أهل اللغة وطوائف من السلف والخلف قال الجوهري والصديق مثال الفسيق الدائم التصديق ويكون الذى يصدق قوله بالعمل وقال الحسن البصرى ليس الايمان بالتحلى ولا بالتمنى ولكنه ماوقر فى القلوب وصدقته الاعمال وهذا مشهور عن الحسن يروى عنه من غير وجه كما رواه عباس الدورى حدثنا حجاج حدثنا أبو عبيدة الناجي عن الحسن قال ليس الايمان بالتحلى ولا بالتمنى ولكن ماوقر في القلب وصدقته الاعمال من قال حسنا وعمل غير صالح رد الله عليه قوله ومن قال حسنا وعمل صالحاً رفعه العمل ذلك بأن الله يقول (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعـه) ورواه ابن بطة من الوجهين وقوله ليس الايمان بالتمني يعنى الكلام وقوله بالتحلى يعنى أن يصير حلية ظاهرة له فيظهره من غير حقيقة من قلبه ومعناه ليس هو مايظهر من القول ولا من الحلية الظاهرة ولكن ماوقر فى القلب وصدقته الاعمال فالعمل يصدق أن في القلب ايمانا واذا لم يكن عمل كذب أن فى قلبه ايمانا لان ما فى القلب مسـتلزم للعمل الظاهر وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم وقد روى محمـد بن نصر المروزى باسناده أن عبد الملك بن مروان كتب الى سـعيد بن جبير

يسأله عن هـذه المسائل فأجابه عنها ٠٠ سألت عن الايمان فالايمان هو التصديق أن يصـدق العبد بالله وملائكته وما أنزل من كتاب وما أرسل من رسول وباليوم الآخر وسألت عن التصـديق والتصديق أن يعمل العبد بما صدق به من القرآن وما ضعف عن شيء منه وفرط فيه عرف أنه ذنب واستغفر الله وتاب منه ولم يصر عليه فذلك هو التصديق وتسأل عن الدين فالدين هو العبادة فانك لن تجد رجلا من أهل الدين ترك عبادة أهل دين ثم لا يدخل في دين آخر الا صار لادين له وتسأل عن العبادة والعبادة هي الطاعة ذلك انه من أطاع الله فيما أمره به وفيما نهاه عنه فقد آثر عبادة الله ومن أطاع الشيطان في دينه وعمله فقد عبد الشيطان ألا ترى أن الله قال للذين فرطوا (ألم أعهد اليكم يابني آدم أن لاتعبدوا الشيطان) وانما كانت عبادتهم الشيطان انهم أطاعوه في دينهم ٠٠ وقال أسد بن موسى حدثنا الوليد بن مسـلم عن الاوزاعي حدثنا حسان بن عطية قال الايمان في كتاب الله صار الي العمل قال الله تعالى (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الآية ثم صيرهم الى العمل فقال (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) قال وسمعت الاوزاعي يقول قال الله تعالى (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين) والايمان بالله باللسان والتصـديق به العمل ٠٠ وقال معمر عن الزهري كنا نقول الاسـلام بالاقرار والايمان بالعمل والايمان قول وعمل قرينان لاينفع أحدهما الا بالآخر وما من أحد الا يوزن قوله وعمله فان كان عمله أوزن من قوله صعد الى الله وان كان كلامه أوزن من عمله لم يصـعد الى الله ورواه أبو عمر الطلمنكي باسناده المعروف وقال معاوية بن عمرو عن أبي اسحاق الفزاري عن الاوزاعي قال لايستقيم الايمان الا بالقول ولا يستقيم الايمان والقول الا بالعمل ولا يستقيم الايمان والقول والعمل الا بنية موافقة للسـنة ٠٠ وكان من مضى من سلفنا لايفرقون بين الايمان والعمل العمل من الايمان والايمان من العمل وانما الايمان اسم يجمع كما يجمع هذه الاديان اسمها ويصـدقه العمل فمن آمن بلسانه وعرف بقلبه وصـدق بعمله فتلك العروة الوثقى التي لاانفصام لها ومن قال بلسانه ولم يعرف بقلبـه ولم يصدق بعمله كان في الآخرة من الخاسرين ٠٠ وهذا معروف عن غير واحـد من السلف والخلف انهم يجعلون العمل مصدقا للقول ورووا ذلك عن النبي صلى الله عليه وسـلم كما رواه معاذ بن أسد حدثنا الفضيل بن عياض عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد أن أبا ذر سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال الايمان الاقرار والتصديق بالعمل ثم تلا (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب الى قوله وأولئك هم المتقون) قلت حديث أبي ذر هذا مروي من غير وجه فان كان هذا اللفظ هو لفظ الرسول فلا كلام وان كانوا رووه بالمعـني دل على انه من المعروف في لغتهم انه يقال صـدق قوله بعمله وكذلك قال شيخ الاسـلام الهروي الايمان تصديق كله ٠٠ وكذلك الجواب الثاني انه اذا كان أصـله التصديق فهو تصديق مخصوص كما ان الصلاة دعاء مخصوص والحج قصد مخصوص والصيام امساك مخصوص وهذا التصديق له لوازم صارت لوازمه داخلة في مسماه عند الاطلاق فان انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم ويبقى النزاع لفظياً هل الايمان دال على العمل بالتضمن أو باللزوم ومما ينبغي أن يعرف أن

اكثر التنازع بين اهل السنة فى هذه المسئلة هو نزاع لفظي والا فالقائلون بان الايمان قول من الفقهاء كحماد بن ابي سليمان وهو اول من قال ذلك ومن اتبعه من اهل الكوفة وغيرهم متفقون مع جميع علماء السنة على ان اصحاب الذنوب داخلون تحت الذم والوعيد وان قالوا ان ايمانهم كامل كايمان جبرائيل فهم يقولون ان الايمان بدون العمل المفروض ومع فعل المحرمات يكون صاحبه مستحقاً للذم والعقاب كما تقوله الجماعة ويقولون أيضاً بأن من أهل الكبائر من يدخل النار كما تقوله الجماعة والذين ينفون عن الفاسق اسم الايمان من أهل السنة متفقون على أنه لا يخلد فى النار فليس بين فقهاء الملة نزاع فى أصحاب الذنوب اذا كانوا مقرين باطناً وظاهراً بما جاء به الرسول وما تواتر عنه أنهم من أهل الوعيد وأنه يدخل النار منهم من أخبر الله ورسوله بدخوله اليها ولا يخلد منهم فيها أحد ولا يكونون مرتدين مباحى الدماء ولكن الاقوال المنحرفة قول من يقول بتخليدهم فى النار كالخوارج والمعتزلة وقول غلاة المرجئة الذين يقولون ما نعلم أن أحداً منهم يدخل النار بل نقف في هذا كله .. وحكى عن بعض غلاة المرجئة الجزم بالنفى العام ويقال للخوارج الذي نفى عن السارق والزاني والشارب وغيرهم الايمان هو لم يجعلهم مرتدين عن الاسلام بل عاقب هذا بالجلد وهذا بالقطع ولم يقتل أحداً الا الزانى المحصن ولم يقتله قتل المرتد فان المرتد يقتل بالسيف بعد الاستتابة وهذا يرجم بالحجارة بلا استتابة فدل ذلك على انه وان نفى عنهم الايمان فليسوا عنده مرتدين عن الاسلام مع ظهور ذنوبهم وليسوا كالمنافقين الذين كانوا يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر فأولئك لم يعاقبهم الا على ذنب ظاهر .. وبسبب الكلام فى مسألة الايمان تنازع الناس هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى أحكامها لا في معنى الاسماء وهكذا قالوا في اسم الصلاة والزكاة والصيام والحج أنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوي لكن زاد في أحكامها ومقصودهم أن الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهي بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الي عرف الشارع حقيقة .. والتحقيق ان الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها كقوله تعالى (ولله على الناس حج البيت) فذكر حجاً خاصاً وهو حج البيت وكذلك قوله (فمن حج البيت أو اعتمر) فلم يكن لفظ الحج متناولا لكل قصد بل لقصد مخصوص دل عليه اللفظ نفسه من غير تغيير اللغة والشاعر اذا قال

وأشهد من عوف حلولا كثيرة يحجون سب الزبرقان المزعفرا

كان متكلما باللغة .. وقد قيل لفظة يحج سب الزبرقان المزعفرا . ومعلوم أن ذلك الحج المخصوص دلت عليه الاضافة فكذلك الحج المخصوص الذي أمر الله به دلت عليه الاضافة أو التعريف باللام فاذا قيل الحج فرض عليك كانت لام العهد تبين أنه حج البيت وكذلك الزكاة هي اسم لما تزكو به النفس وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها والاحسان الى الناس من أعظم ما تزكو به النفس كما قال تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) وكذلك ترك الفواحش مما تزكو به قال تعالى (ولولا

فضل الله عليكم ورحمته مازكا منكم من أحد أبداً) وأصل زكاتها بالتوحيد واخلاص الدين لله قال تعالى (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) وهي عند المفسرين التوحيد .. وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم مقدار الواجب وسماها الزكاة المفروضة فصار لفظ الزكاة اذا عرف باللام ينصرف اليها لاجل العهد ومن الاسماء مايكون أهل العرف نقلوه وينسبون ذلك الى الشارع مثل لفظ التيمم فان الله تعالى قال (فتيمموا صعيداً طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) فلفظ التيمم استعمل فى معناه المعروف فى اللغة فانه أمر بتيمم الصعيد ثم أمر بمسح الوجوه والايدي منه فصار لفظ التيمم فى عرف الفقهاء يدخل فيه هذا المسح وليس هو لغة الشارع بل الشارع فرق بين تيمم الصعيد وبين المسح الذي يكون بعده ولفظ الايمان أمر به مقيداً بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الاسلام بالاستسلام لله رب العالمين وكذلك لفظ الكفر مقيداً ولكن لفظ النفاق قد قيل انه لم تكن العرب تكلمت به لكنه مأخوذ من كلامهم فان نفق يشبه خرج ومنه نفقت الدابة اذا ماتت ومنه نافق اليربوع والنفق في الارض قال تعالى (فان استطعت أن تبتغى نفقاً فى الارض) فالمنافق هو الذي خرج من الايمان باطنا بعد دخوله فيه ظاهراً وقيد النفاق بأنه نفاق من الايمان ومن الناس من يسمى من خرج عن طاعة الملك منافقا عليه لكن النفاق الذى في القرآن هو النفاق على الرسول نخطاب الله ورسوله للناس بهذه الاسماء كخطاب الناس بغيرها وهو خطاب مقيد خاص لا مطلق يحتمل أنواعا .. وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال إنها منقولة ولا أنه زيد فى الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو انما قال أقيموا الصلاة بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفاً الى الصلاة التي يعرفونها لم ينزل لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه . ولهذا قال من قال فى لفظ الصلاة انه عام للمعنى اللغوى أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوى والشرعي ونحو ذلك فأقوالهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبراً أو أمراً فالخبر كقوله (أرأيت الذي ينهى عبداً اذا صلى) وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار إما أبو جهل أو غيره قد نهي النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وقال لئن رأيته يصلى لأطأن عنقه فلما رآه ساجداً رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبيه فاذا قيل أرأيت الذي ينهى عبداً اذا صلى فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا اجمال في اللفظ ولا عموم ثم انه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبى صلى الله عليه وسلم لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأتمون بالنبى صلى الله عليه وسلم فاذا قيل لهم أقيموا الصلاة عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل انه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفى النهار فكانت أيضا فلم يخاطبوا باسم من هذه الاسماء الا ومسماه معلوم عندهم فلا اجمال فى ذلك ولا يتناول كل مايسمى حجاً ودعاء وصوما فان هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد .. وكذلك الايمان والاسلام وقد كان معنى ذلك عندهم من أظهر الامور وانما سأل جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وهم يسمعون وقال هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم ليبين لهم كمال هذه الاسماء وحقائقها التى ينبغي أن

تقصد لئلا يقتصروا على أدنى مسمياتها وهذا كما في الحديث الصحيح انه قال ليس المسكين هذا الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غناء يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس الحافاً فهم كانوا يعرفون المسكين وانه المحتاج وكان ذلك مشهوراً عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال فبين النبى صلى الله عليه وسلم ان الذى يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه تزول مسكنته باعطاء الناس له والسؤال له بمنزلة الحرفة وهو وان كان مسكيناً يستحق من الزكاة اذا لم يعط من غيرها كفايته فهو اذا وجد من يعطيه كفايته لم يبق مسكيناً وانما المسكين المحتاج الذى لا يسأل ولا يعرف فيعطى فهذا هو الذى يجب أن يقدم فى العطاء فانه مسكين قطعاً وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله وكذلك قوله الاسلام هو الخمس يريد ان هذا كله واجب داخل فى الاسلام فليس للانسان أن يكتفى بالاقرار بالشهادتين وكذلك الايمان يجب أن يكون على هذا الوجه المفصل لا يكتفى فيه بالايمان المجمل ولهذا وصف الاسلام بهذا .. وقد اتفق المسلمون على أنه من لم يأت بالشهادتين فهو كافر وأما الاعمال الاربعة فاختلفوا في تكفير تاركها ونحن اذا قلنا أهل السنة متفقون على انه لا يكفر بالذنب فانما يريد به المعاصى كالزنا والشرب وأما هذه المبانى ففى تكفير تاركها نزاع مشهور وعن أحمد فى ذلك نزاع واحدى الروايات عنه انه يكفر من ترك واحدة منها وهو اختيار أبي بكر وطائفة من أصحاب مالك كابن حبيب وعنه رواية ثانية لا يكفر الا بترك الصلاة والزكاة فقط ورواية ثالثة لا يكفر الا بترك الصلاة والزكاة اذا قاتل الامام عليها ورابعة لا يكفر الا بترك الصلاة وخامسة لا يكفر بترك شئ منهن . وهذه أقوال معروفة للسلف قال الحكم بن عتيبة من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر ومن ترك الزكاة متعمداً فقد كفر ومن ترك الحج متعمداً فقد كفر ومن ترك صوم رمضان متعمداً فقد كفر وقال سعيد بن جبير من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر بالله ومن ترك الزكاة متعمداً فقد كفر بالله ومن ترك صوم رمضان متعمداً فقد كفر بالله وقال الضحاك لا ترفع الصلاة الا بالزكاة وقال عبد الله بن مسعود من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له رواهن أسد بن موسى وقال عبد الله بن عمرو من شرب الخمر ممسياً أصبح مشركا ومن شربه مصبحاً أمسى مشركا فقيل لابراهيم النخعي كيف ذلك قال لانه يترك الصلاة قال أبو عبد الله الاخنس فى كتابه من شرب المسكر فقد تعرض لترك الصلاة ومن ترك الصلاة فقد خرج من الايمان ومما يوضح ذلك ان جبريل لما سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الاسلام والايمان والاحسان كان فى آخر الامر بعد فرض الحج والحج انما فرض سنة تسع أو عشر .. وقد اتفق الناس على انه لم يفرض قبل ست من الهجرة ومعلوم ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأمر الناس بالايمان ولم يبين لهم معناه الى ذلك الوقت بل كانوا يعرفون أصل معناه وهذه المسائل لبسطها موضع آخر .. والمقصود هنا ان من نفي عنه الرسول اسم الايمان أو الاسلام فلا بد أن يكون قد ترك بعض الواجبات فيه وان بقي بعضها ولهذا كان الصحابة والسلف يقولون انه يكون فى العبد ايمان ونفاق قال أبو داود السجستانى حدثنا أحمد بن حنبل حدثنا وكيع عن الاعمش عن شقيق عن أبى المقدام عن أبي يحيي قال سئل حذيفة

عن المنافق قال الذي يصف الاسلام ولا يعمل به وقال أبو داود حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن الاعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة قال القلوب أربعة قلب أغلف فذلك قلب الكافر وقلب مصفح وذلك قلب المنافق وقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب فيه ايمان ونفاق فمثل الايمان فيه كمثل شجرة يمدها ماء طيب ومثل النفاق مثل قرحة يمدها قيح ودم فأيهما غلب عليه غلب وقد روى مرفوعا وهو في المسند مرفوعا وهذا الذي قاله حذيفة يدل عليه قوله تعالى (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان) فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب فلما كان يوم أحد غلب نفاقهم فصاروا الي الكفر أقرب وروى عبد الله بن المبارك عن عوف بن أبي جميلة عن عبد الله بن عمرو بن هند عن على بن أبي طالب قال ان الايمان يبدو لمظة بيضاء في القلب فكلما ازداد العبد ايمانا ازداد القلب بياضا حتي اذا استكمل الايمان أبيض القلب كله وان النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب فكلما ازداد العبد نفاقا ازداد القلب سوادا حتى اذا استكمل النفاق اسود القلب وايم الله لوشققتم عن قلب المؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب المنافق والكافر لوجدتموه اسود وقال ابن مسعود الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل رواه أحمد وغيره وهذا كثير فى كلام السلف يثبتون ان القلب قد يكون فيه ايمان ونفاق والكتاب والسنة يدلان على ذلك فان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر شعب الايمان وذكر شعب النفاق وقال من كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتي يدعها وتلك الشعبة قد يكون معها كثير من شعب الايمان ولهذا قال يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من ايمان فعلم ان من كان معه من الايمان أقل القليل لم يخلد فى النار وان كان معه كثير من النفاق فهو يعذب فى النار على قدر مامعه من ذلك ثم يخرج من النار وعلى هذا فقوله للاعراب (لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) نفى حقيقة دخول الايمان فى قلوبهم وذلك لايمنع أن يكون معهم شعبة منه كما نفاه عن الزاني والسارق ومن لا يحب لاخيه مايحب لنفسه ومن لا يأمن جاره بوائقه وغير ذلك كما تقدم ذكره فان فى القرآن والحديث ممن نفى عنه الايمان لترك بعض الواجبات شئ كثير وحينئذ فنقول من قال من السلف أسلمنا أي استسلمنا خوف السيف وقول من قال هو الاسلام الجميع صحيح فان هذا انما أراد الدخول فى الاسلام والاسلام الظاهر يدخل فيه المنافقون فيدخل فيه من كان في قلبه ايمان ونفاق وقد علم انه يخرج من النار فى قلبه مثقال ذرة من ايمان بخلاف المنافق المحض الذى قلبه كله اسود فهذا هو الذى يكون في الدرك الاسفل من النار ولهذا كان الصحابة يخشون النفاق على أنفسهم ولم يخافوا التكذيب لله ورسوله فان المؤمن يعلم من نفسه انه لا يكذب الله ورسوله يقينا وهذا مستند من قال أنا مؤمن حقا فانه انما أراد بذلك مايعلمه من نفسه من التصديق الجازم ولكن الايمان ليس مجرد التصديق بل لا بد من أعمال قلبية تستلزم أعمال ظاهرة كما تقدم لحب الله ورسوله من الايمان وحب ما أمرالله به وبغض مانهى عنه وهذا من أخص الامور بالايمان ولهذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فى عدة أحاديث ان من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن فهذا يحب الحسنة ويفرح بها ويبغض السيئة ويسوؤه فعلها وان فعلها

بشهوة غالبة وهذا الحب والبغض من خصائص الايمان ومعلوم ان الزاني حين يزني انما يزنى لحب نفسه لذلك الفعل فلو قام بقلبه خشية الله التى تقهر الشهوة أو حب الله الذي يغلبها لم يزن ولهذا قال تعالى عن يوسف عليه السلام (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) فمن كان مخلصاً لله حق الاخلاص لم يزن وانما يزني لخلوه عن ذلك وهذا هو الايمان الذي ينزع منه لم ينزع منه نفس التصديق ولهذا قيل هو مسلم وليس بمؤمن فان المسلم المستحق للثواب لابدأن يكون مصدقا والا كان منافقاً لكن ليس كل من صدق قام بقلبه من الاحوال الايمانية الواجبة مثل كمال محبة الله ورسوله ومثل خشية الله والاخلاص له في الاعمال والتوكل عليه بل يكون الرجل مصدقا بما جاء به الرسول وهو مع ذلك يرائى بأعماله ويكون أهله وماله أحب اليه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله وقد خوطب بهذا المؤمنون فى آخر الامر في سورة براءة فقيل لهم (ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال أقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ان الله لا يهدى القوم الفاسقين) ومعلوم ان كثيراً من المسلمين أو أكثرهم بهذه الصفة وقد ثبت انه لا يكون الرجل مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وانما المؤمن من لم يرتب وجاهد بماله ونفسه فى سبيل الله فمن لم تقم بقلبه الاحوال الواجبة في الايمان هو الذى نفى عنه الرسول الايمان وان كان معه التصديق والتصديق من الايمان ولا بد أن يكون مع التصديق شئ من حب الله وخشية الله والا فالتصديق الذى لا يكون معه شئ من ذلك ليس ايمانا البتة بل هو كتصديق فرعون واليهود وابليس وهذا هو الذي أنكره السلف على الجهمية قال الحميدى سمعت وكيعاً يقول أهل السنة يقولون الايمان قول وعمل والمرجئة يقولون الايمان قول والجهمية يقولون الايمان المعرفة وفى رواية أخرى عنه وهذا كفر قال محمد بن عمر الكلابي سمعت وكيعاً يقول الجهمية شر من القدرية قال وقال وكيع المرجئة الذين يقولون الاقرار يجزى من العمل ومن قال هذا فقد هلك ومن قال النية تجزي من العمل فهو كفر وهو قول جهم وكذلك قال أحمد بن حنبل ولهذا كان القول ان الايمان قول وعمل عند أهل السنة من شعائر السنة وحكي غير واحد الاجماع على ذلك وقد ذكرنا عن الشافعي رضى الله عنه ما ذكره من الاجماع على ذلك قوله في الام وكان الاجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون ان الايمان قول وعمل ونية لا يجزى واحد من الثلاثة الا بالآخر وذكر ابن أبى حاتم فى مناقبه سمعت حرملة يقول اجتمع حفص الفرد ومصلان الاباضى عند الشافعي فى دار الجروى فتناظرا معه فى الايمان فاحتج مصلان فى الزيادة والنقصان يعنى وخالفه حفص الفرد فحمى الشافعي وتقلد المسئلة على ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص فطحن حفص الفرد وقطعه وروى أبوعمر الطلمنكي باسناده المعروف عن موسى بن هارون الحمال قال أملى علينا اسحاق بن راهويه ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص لاشك ان ذلك كما وصفنا وانما عقلنا هذا بالروايات الصحيحة والآثار العامة المحكمة وآحاد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين وهلم جرا على ذلك وكذلك بعد التابعين من أهل العلم على شئ واحد

لا يختلفون فيه وكذلك فى عهد الاوزاعى بالشام وسفيان الثوري بالعراق ومالك بن أنس بالحجاز ومعمر باليمن على ما فسرنا وبينا ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص وقال اسحق من ترك الصلاة متعمداً حتى ذهب وقتها الظهر الى المغرب والمغرب الى نصف الليل فانه كافر بالله العظيم يستتاب ثلاثة أيام فان لم يرجع وقال تركها لا يكون كفراً ضربت عنقه يعنى تركها وقال ذلك وأما اذا صلى وقال ذلك فهذه مسئلة اجتهاد قال واتبعهم على ماوصفنا من بعدهم من عصرنا هذا أهل العلم الا من باين الجماعة واتبع الاهواء المختلفة فأولئك قوم لا يعبأ الله بهم لما باينوا الجماعة ٠٠ قال أبو عبيد القاسم بن سلام الامام وله كتاب مصنف فى الايمان قال هذه تسمية من كان يقول الايمان قول وعمل يزيد وينقص ٠٠ من أهل مكة عبيد بن عمير الليثي عطاء بن أبي رباح مجاهد بن جبر ابن أبي مليكة عمرو بن دينار ابن أبي نجيح عبيد الله بن عمر عبد الله بن عمرو بن عثمان عبد الملك بن جريج نافع بن جبير داود بن عبد الرحمن العطار عبد الله بن رجاء ٠٠ ومن أهل المدينة محمد بن شهاب الزهري ربيعة بن أبي عبد الرحمن أبو حازم الاعرج سعيد بن ابراهيم بن عبد الرحمن يحيي بن سعيد الانصارى هشام بن عروة بن الزبير عبد الله بن عمر العمرى مالك بن أنس محمد بن أبي ذئب سليمان بن بلال عبد العزيز بن عبد الله يعني الماجشون عبد العزيز بن أبى حازم ٠٠ ومن أهل اليمن طاوس اليماني وهب بن منبه معمر بن راشد عبد الرزاق بن همام ٠٠ ومن أهل مصر والشام مكحول الاوزاعي سعيد بن عبد العزيز الوليد بن مسلم يونس بن يزيد الايلى يزيد بن أبي حبيب يزيد بن شريح سعيد بن أبي أيوب الليث بن سعد عبد الله بن أبي جعفر معاوية بن صالح حيوة بن شريح عبد الله بن وهب ٠٠ وممن سكن العواصم وغيرها من الجزيرة ميمون بن مهران يحيي بن عبد الكريم معقل بن عبيد الله عبيد الله بن عمرو الرقى عبد الملك بن مالك المعاذ بن عمران محمد بن سلمة الحراني أبو اسحق الفزارى مخلد بن الحسين على بن بكار يوسف بن اسباط عطاء بن مسلم محمد بن كثير الهيثم بن جميل ٠٠ ومن أهل الكوفة علقمة الاسود بن يزيد أبو وائل سعيد بن جبير الربيع بن خيثم عامر الشعبي ابراهيم النخعي الحكم بن عيينة طلحة بن مصرف منصور بن المعتمر سلمة بن كهيل مغيرة الضبي عطاء بن السائب اسمعيل بن أبي خالد أبو حيان يحيي بن سعيد سليمان بن مهران الاعمش يزيد بن أبي زياد سفيان بن سعيد الثورى سفيان بن عيينة الفضيل بن عياض أبو المقدام ثابت بن العجلان ابن شبرمة ابن أبي ليلى زهير شريك بن عبد الله الحسن بن صالح حفص بن غياث أبو بكر بن عياش أبو الاحوص وكيع بن الجراح عبد الله بن نمير أبو اسامة عبد الله ابن ادريس زيد بن الحباب الحسين بن على الجعفى محمد بن بشر العبدي يحيي بن آدم ومحمد ويعلى وعمرو بنو عبيد ٠٠ ومن أهل البصرة الحسن بن أبي الحسن محمد بن سيرين قتادة بن دعامة بكر بن عبد الله المزنى أيوب السختياني يونس بن عبيد عبد الله بن عون سليمان التيمي هشام بن حسان الدستوائى شعبة ابن الحجاج حماد بن سلمة حماد بن زيد أبو الاشهب يزيد بن ابراهيم أبو عوانة وهيب بن خالد عبد الوارث بن سعيد معتمر بن سليمان التيمي يحيي بن سعيد القطان عبد الرحمن بن مهدى بشر بن المفضل يزيد بن ذريع المؤمل بن اسمعيل خالد بن الحارث معاذ بن معاذ أبو عبد الرحمن المقرى ٠٠ ومن

أهل واسط هشيم بن بشير خالد بن عبد الله على بن عاصم يزيد بن هرون صالح بن عمر عاصم بن على .. ومن أهل المشرق الضحاك بن مزاحم أبو جمرة نصر بن عمران عبد الله بن المبارك النضر بن شميل جرير بن عبد الحميد الضبى .. قال أبو عبيد هؤلاء جميعا يقولون الايمان قول وعمل يزيد وينقص وهو قول أهل السنة المعمول به عندنا .. قلت ذكر من الكوفيين من قال ذلك أكثر مما ذكر من غيرهم لان الارجاء في أهل الكوفة وكان أول من قاله حماد بن أبي سليمان فاحتاج علماؤها ان يظهروا انكار ذلك فكثر منهم من قال ذلك كما ان التجهم وتعطيل الصفات لما كان ابتداء حدوثه من خراسان كثر من علماء خراسان ذلك الوقت من الانكار على الجهمية ما لم يوجد لمن لم تكن هذه البدعة في بلده ولاسمع بها كما جاء فى حديث ان لله عند كل بدعة يكاد بها الاسلام وأهله من يتكلم بعلامات الاسلام فاغتنموا تلك المجالس فان الرحمة تنزل على أهلها أو كما قال .. واذا كان من قول السلف ان الانسان يكون فيه ايمان ونفاق فكذلك في قولهم انه يكون فيه ايمان وكفر ليس هو الكفر الذي ينقل عن الملة كما قال ابن عباس وأصحابه فى قوله تعالى(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قالوا كفر لا ينقل عن الملة وقد اتبعهم على ذلك احمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة .. قال الامام محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلات اختلف الناس فى تفسير حديث جبرائيل هذا فقال طائفة من أصحابنا قول النبي صلى الله عليه وسلم الايمان ان تؤمن بالله وما ذكر معه كلام جامع مختصر له غور وقد أوهمت المرجئة فى تفسيره فتأولوه على غير تأويله قلة معرفة منهم بلسان العرب وغور كلام النبي صلى الله عليه وسلم الذى قد أعطي جوامع الكلم وفواتحه واختصر له الحديث اختصارا أما قوله الايمان ان تؤمن بالله فان توحده وتصدق به بالقلب واللسان وتخضع له ولامره باعطاء العزم للأداء لما أمر مجانباً للاستنكاف والاستكبار والمعاندة فاذا فعلت ذلك لزمت محابه واجتنبت مساخطه وأما قوله وملائكته فان تؤمن بمن سمى الله لك منهم في كتابه وتؤمن بان لله ملائكة سواهم لا يعرف أساميهم وعددهم الا الذى خلقهم وأما قوله وكتبه فان تؤمن بما سمى الله من كتبه فى كتابه من التوراة والانجيل والزبور خاصة وتؤمن بان لله سوي ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه لا يعرف أسماءها وعددها الا الذي أنزلها وتؤمن بالفرقان وإيمانك به غير إيمانك بسائر الكتب إيمانك بغيره من الكتب اقرارك به بالقلب واللسان وايمانك بالفرقان اقرارك به واتباعك ما فيه وأما قوله ورسله فان تؤمن بما سمي الله في كتابه من رسله وتؤمن بان لله سواهم رسلا وأنبياء لا يعلم أسماءهم الا الذي أرسلهم وتؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وايمانك به غير ايمانك بسائر الرسل ايمانك بسائر الرسل اقرارك بهم وايمانك بمحمد اقرارك به وتصديقك إياه دائباً على ماجاء به فاذا اتبعت ماجاء به أديت الفرائض وأحللت الحلال وحرمت الحرام ووقفت عند الشبهات وسارعت في الخيرات وأما قوله واليوم الآخر فان تؤمن بالبعث بعد الموت والحساب والميزان والثواب والعقاب والجنة والنار وبكل ما وصف الله به يوم القيامة وأما قوله وتؤمن بالقدر خيره وشره فان تؤمن بان ما أصابك لم يكن ليخطئك وان ما أخطأك لم يكن ليصيبك ولا تقل لو كان كذا لم يكن كذا ولولا كذا وكذا لم يكن كذا

وكذا قال فهذا هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر

(فصل) ومما يسأل عنه انه اذا كان ما أوجبه الله من الأعمال الظاهرة أكثر من هـذه الخمس فلما ذا قال الاسلام هذه الخمس وقد أجاب بعض الناس بان هذه أظهر شعائر الاسلام وأعظمها وبقيام العبد بها يتم استسلامه وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده والتحقيق ان النبى صلى الله عليه وسلم ذكر الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطلقاً الذي يجب لله عبادة محضة على الأعيان فيجب على كل من كان قادراً عليه ليعبد الله بها مخلصاً له الدين وهذه هي الخمس وما سوى ذلك فانما يجب بأسباب لمصالح فلا يعم وجوبها جميع الناس بل إمّا أن يكون فرضاً على الكفاية كالجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وما يتبع ذلك من امارة وحكم وفتيا واقراء وتحديث وغـير ذلك وإمّا أن يجب بسبب حقاً للآدميين يختص به من وجب له وعليه وقد يسقط باسقاطه ٠٠٠٠واذا حصلت المصلحة أو الابراء إمّا بابرائه وإمّا بحصول المصلحة لحقوق العباد مثل قضاء الديون ورد الغصوب والعواري والودائع والانصاف من المظالم من الدماء والأموال والاعراض انما هى حقوق الآدميين واذا أبرؤا منها سقطت وتجب على شخص دون شخص في حال دون حال لم تجب عبادة محضة لله على كل عبـد قادر ولهذا يشترك فيها المسلمون واليهود والنصارى بخلاف الخمسة فانها من خصائص المسلمين وكذلك مايجب من صلة الأرحام وحقوق الزوجة والأولاد والجيران والشركاء والفقراء وما يجب من أداء الشهادة والفتيا والقضاء والامارة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد كل ذلك يجب بأسباب عارضة على بعض الناس دون بعض لجلب منافع ودفع مضار لو حصلت بدون فعل الانسان لم تجب فما كان مشتركا فهو واجب على الكفاية وماكان مختصاً فانما يجب على زيد دون عمرو ولا يشترك الناس في وجوب عمل بعينه على كل أحد قادر سوى الخمس فان زوجة زيد وأقاربه ليس زوجة عمرو وأقاربه فليس الواجب على هذا مثل الواجب على هذا بخلاف صوم شهر رمضان وحج البيت والصـلوات الخمس والزكاة فان الزكاة وان كانت حقاً مالياً فانها واجبة لله والأصناف الثمانية مصارفها ولهذا وجب فيها النية ولم يجز أن يفعلها الغير عنه بلا اذنه ولم تطلب من الكفار وحقوق العباد لا يشترط لها النية ولو أداها غيره عنه بغير اذنه برئت ذمته ويطالب بها الكفار وما يجب حقاً لله تعالى كالكفارات هو بسبب من العبد وفيها شوب العقوبات فان الواجب لله ثلاثة أنواع عبادة محضة كالصـلوات وعقوبات محضة كالحدود وما يشبهها كالكفارات وكذلك كفارات الحج وما يجب بالنذر فان ذلك يجب بسبب فعل من العبد وهو واجب فى ذمته وأما الزكاة فانها تجب حقاً لله في ماله ولهذا يقال ليس فى المال حق سوى الزكاة أي ليس فيـه حق يجب بسبب المال سوى الزكاة وإلاّ ففيه واجبات بغـير سبب المال كما تجب النفقات للأقارب والزوجة والرقيق والبهائم ويجب حمـل العاقلة ويجب قضاء الديون ويجب الاعطاء فى النائبة ويجب اطعام الجائع وكسوة العاري فرضاً على الكفاية الى غير ذلك من الواجبات المالية لكن بسبب عارض والمال شرط فى وجوبها كالاستطاعة فى الحج فان البدن سبب الوجوب والاستطاعة شرط والمال فى الزكاة هو السبب والوجوب معـه حق لو لم يكن فى

بلده من يستحقها حملها الى بلد أُخرى ومي حق وجب لله تعالى ولهذا قال من قال من الفقهاء أن التكليف شرط فيها فلا تجب على الصغير والمجنون وأما عامة الصحابة والجمهور كمالك والشافعي وأحمد فأوجبوها في مال الصغير والمجنون لان مالهما من جنس مال غيرهما ووليهما يقوم مقامهما بخلاف بدنهما فانه انما يتصرف بعقلهما وعقلهما ناقص وصار هذا كما يجب العشر فى أرضهما مع انه انما يستحقه الثمانية وكذلك ايجاب الكفارة فى مالهما والصلاة والصيام انما تسقط لعجز العقل عن الايجاب لا سيما اذا انضم الى عجز البدن كالصغير وهذا المعني منتف فى المال فان الولى قام مقامهما فى الفهم كما يقوم مقامهما في جميع ما يجب فى المال وأما بدنهما فلا يجب عليهما فيه شئ

﴿ فصل ﴾ قال محمد بن نصر واستدلوا على أن الايمان هو ما ذكروه بالآيات التى تلوناها عند ذكر تسمية الله الصلاة وسائر الطاعات ايمانا واستدلوا أيضاً بما قص الله من نبأ ابليس حين عصى ربه فى سجدة واحدة أمر أن يسجدها لآدم فأباها فكيف جحد ابليس ربه وهو يقول رب بما أغويتني ويقول رب أنظرنى الى يوم يبعثون ايمانا منه بالبعث وايمانا بنفاذ قدرته في انظاره اياه الى يوم يبعثون وهل جحد أحداً من أنبيائه أو أنكر شيئاً من سلطانه وهو يحلف بعزته وهل كان كفره الا بترك سجدة واحدة أمر بها فأباها .. قال واستدلوا أيضاً بما قص الله علينا من نبأ ابنى آدم اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر الي قوله فأصبح من الخاسرين .. قال وهل جحد ربه وكيف يجحده وهو يقرب القربان قالوا قال الله تعالى (انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) ولم يقل اذا ذكروا بها أقروا بها فقط وقال الذين (آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) يعنى يتبعونه حق اتباعه . فان قيل فهل مع ما ذكرت من سنة ثابتة تبين أن العمل داخل فى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله . قيل نعم عامة السنن والآثار تنطق بذلك منها حديث وفد عبد القيس وذكر حديث شعبة وقرة بن خالد عن أبي جمرة عن ابن عباس كما تقدم ولفظه آمركم بالايمان بالله وحده ثم قال هل تدرون ما الايمان بالله وحده قالوا الله ورسوله أعلم قال شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وان تعطوا خمس ما غنمتم وذكر أحاديث كثيرة توجب دخول الاعمال فى الايمان مثل قوله فى حديث لما سئل صلى الله عليه وسلم .. ثم قال أبو عبد الله محمد بن نصر اختلف أصحابنا فى تفسير قول النبي صلى الله عليه وسلم لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن فقالت طائفة منهم انما أراد النبي صلى الله عليه وسلم ازالة اسم الايمان عنه من غير أن يخرجه من الاسلام ولا يزيل عنه اسمه وفرقوا بين الاسلام والايمان بقوله قالت الاعراب آمنا الآية فقالوا الايمان خاص يثبت الاسم به بالعمل مع التوحيد والاسلام عام يثبت الاسم بالتوحيد والخروج من ملل الكفر واحتجوا بحديث سعد بن أبي وقاص وذكره عن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى رجالا ولم يعط رجلا منهم شيئاً فقلت

«١» بياض بالاصل في الموضعين

يا رسول الله أعطيت فلانا وفلانا ولم تعط فلانا وهو مؤمن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مسلم أعادها ثلاثا والنبي صلى الله عليه وسلم يقول أو مسلم ثم قال اني لاعطى رجالا وأمنع آخرين وهم أحب الي منهم مخافة أن يكبوا على وجوههم في النار ٠ قال الزهري فنرى أن الاسلام الكلمة والايمان العمل ٠٠ قال محمد بن نصر واحتجوا بانكار عبد الله بن مسعود على من شهد لنفسه بالايمان فقال أنا مؤمن من غير استثناء وكذلك أصحابه من بعده وجل علماء الكوفة واحتجوا بحديث أبي هريرة يخرج منه الايمان فان رجع رجع اليه وبما أشبه ذلك من الأخبار وبما روى عن الحسن ومحمد بن سيرين انهما كانا يقولان مسلم ويهابان مؤمن واحتجوا بقول أبي جعفر الذي حدثناه اسحق بن ابراهيم أنبأنا وهب ابن جرير بن حازم حدثني أبي عن فضيل بن يسار عن أبي جعفر محمد بن علي انه سئل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن فقال أبو جعفر هذا الاسلام ودوردارة واسعة وهذا الايمان ودوردارة صغيرة في وسط الكبيرة فاذا زني أو سرق خرج من الايمان الى الاسلام ولا يخرجه من الاسلام الا الكفر بالله واحتجوا بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص حدثنا بذلك يحيي بن يحيي حدثنا ابن لهيعة عن شريح بن هانئ عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص وذكر عن حماد بن زيد أنه كان يفرق بين الايمان والاسلام فجعل الايمان خاصاً والاسلام عاما قال فلنا في هؤلاء إسوة وبهم قدوة مع ما يثبت ذلك من النظر وذلك أن الله جعل اسم المؤمن اسم ثناء وتزكية ومدحة أوجب عليه الجنة فقال (وكان بالمؤمنين رحيما تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً) وقال (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً) وقال (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) وقال (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) وقال (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الي النور) وقال (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار) ٠٠ قال ثم أوجب الله النار على الكبائر فدل بذلك على أن اسم الايمان زائل عمن أتى كبيرة ٠ قالوا ولم نجده أوجب الجنة باسم الاسلام فثبت أن اسم الاسلام له ثابت على حاله واسم الايمان زائل عنه ٠ فان قيل لهم في قولهم هذا ليس الايمان ضد الكفر قالوا الكفر ضد لأصل الايمان لان للايمان أصلاوفروعا فلا يثبت الكفر حتى يزول أصل الايمان الذي هوضد الكفر ٠٠فان قيل لهم فالذي زعمتم أن النبي صلي الله عليه وسلم أزال عنهم اسم الايمان هل فيه من الايمان شئ قالوا نعم أصله ثابت ولولا ذلك لكفروا ألم تسمع الى ابن مسعود أنكر على الذي شهد أنه مؤمن ثم قال لكنا نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله يخبرك أنه قد آمن من جهة أنه صدق وأنه لا يستحق اسم المؤمن اذا كان يعلم أنه مقصر لانه لايستحق هذا الاسم عنده الا من أدي ما وجب عليه وانتهى عما حرم عليه من الموجبات للنار التى هي الكبائر ٠ قالوا فلما أبان الله ان هذا الاسم يستحقه من قد استحق الجنة وأن الله قد أوجب الجنة عليه وعلمنا أنه قد آمنا وصدقنا لأنه لا يخرج من التصديق الا بالتكذيب ولسنا بشاكين ولا مكذبين وعلمنا أنا عاصون

له مستوجبون للعذاب وهو ضد الثواب الذى حكم الله به للمؤمنين على اسم الايمان علمنا أنا قد آمنا وأمسكنا عن الاسم الذي أثبت الله عليه الحكم بالجنة وهو من الله اسم ثناء وتزكية وقد نهانا الله أن نزكي أنفسنا وأمرنا بالخوف على أنفسنا وأوجب لنا العذاب بعصياننا فعلمنا أنا لسنا بمستحقين بأن نتسمي مؤمنين اذ أوجب الله على اسم الايمان الثناء والبركة والرأفة والرحمة والمغفرة والجنة وأوجب على الكبائر النار وهذان حكمان متضادان • فان قيل فكيف أمسكتم عن اسم الايمان أن تسموا به وأنتم تزعمون ان أصل الايمان في قلوبكم وهو التصديق بأن الله حق وما قاله صدق • قالوا ان الله ورسوله وجماعة المسلمين سموا الاشياء بما غلب عليها من الاسماء فسموا الزاني فاسقاً والقاذف فاسقاً وشارب الخمر فاسقاً ولم يسموا واحداً من هؤلاء متقياً ولا ورعا وقد أجمع المسلمون ان فيه أصل التقوى والورع وذلك أنه يتقى ان يكفر أو يشرك بالله شيئاً وكذلك يتقى الله أن يترك الغسل من الجنابة أو الصلاة ويتقى أن يأتي أمه فهو فى جميع ذلك متق وقد أجمع المسلمون من الموافقين والمخالفين أنهم لا يسمونه متقياً ولا ورعا اذا كان يأتي بالفجور فلما أجمعوا أن أصل التقى والورع ثابت فيه وأنه قد يزيد فيه فروعا بعد الاصل كتورعه عن اتيان المحارم ثم لا يسمونه متقياً ولا ورعا مع اتيانه بعض الكبائر بل سموه فاسقاً وفاجراً مع علمهم أنه قد أتى بعض التقى والورع فمنعهم من ذلك أن اسم التقى اسم ثناء وتزكية وأن الله قد أوجب عليه المغفرة والجنة قالوا فلذلك لا نسميه مؤمناً ونسميه فاسقاً زانياً وان كان فى قلبه أصل اسم الايمان لأن الايمان اسم أثني الله به على المؤمنين وزكاهم به وأوجب عليه الجنة فمن ثم قلنا مسلم ولم نقل مؤمن قالوا ولو كان أحد من المسلمين الموحدين يستحق أن لا يكون فى قلبه ايمان ولا اسلام لكان أحق الناس بذلك أهل النار الذين دخلوها فلما وجدنا النبي صلى الله عليه وسلم يخبر أن الله يقول أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ثبت أن شر المسلمين في قلبه ايمان ولما وجدنا الامة تحكم عليه بالاحكام التي ألزمها الله للمسلمين ولا يكفرونهم ولا يشهدون لهم بالجنة ثبت أنهم مسلمون اذ أجمعوا أن يمضوا عليهم أحكام المسلمين وأنهم لا يستحقون أن يسموا مؤمنين اذ كان الاسلام ثبتا للملة التى يخرج بها الانسان من جميع الملل فتزول عنه أسماء الملل لا اسم الاسلام وتثبت أحكام الاسلام عليه وتزول عنه أحكام جميع الملل • فان قال لهم قائل لم لم تقولوا كافر ان شاء الله تريدون به كمال الكفر كما قلتم مؤمن ان شاء الله تريدون به كمال الايمان •• قالوا لأن الكافر منكر للحق والمؤمن أصل إيمانه الاقرار والانكار لا أول له ولا آخر فتنتظر به الحقائق والايمان أصله التصديق والاقرار ينتظر به حقائق الاداء لما أقر والتحقيق لما صدق ومثل ذلك كمثل رجلين عليهما حق لرجل فسأل أحدهما حقه فقال ليس لك عندى حق فأنكر وجحد فلم يبق له منزلة يحقق بها ما قال اذا جحد وأنكر وسأل الآخر حقه فقال نعم لك على كذا وكذا فليس اقراره بالذى يصل اليه بذلك حقه دون أن يوفيه فهو منتظر له أن يحقق ما قال بالاداء وتصديق اقراره بالوفاء ولو أقر ثم لم يؤد اليه حقه كان كمن جحده في المعنى اذا استويا في الترك للاداء فتحقيق ما قال أن يؤدى اليه حقه فان أدى جزءاً منه حقق بعض ما قال ووفى ببعض ما أقر به

وكلما أدى جزءا ازداد تحقيقاً لما أقر به وعلى المؤمن الاداء أبداً بما أقر به حتى يموت فمن ثم قلنا مؤمن ان شاء الله ولم نقل كافر ان شاء الله ٠٠ قال محمد بن نصر وقالت طائفة أخرى من أصحاب الحديث بمثل مقالة هؤلاء الا أنهم سموه مسلماً لخروجه من ملل الكفر ولاقراره بالله وبما قال ولم يسموه مؤمناً وزعموا أنهم مع تسميتهم اياه بالاسلام كافر لا كافر بالله ولكن كافر من طريق العمل وقالوا كفر لا ينقل عن الملة وقالوا محال أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن والكفر ضد الايمان فلا يزول عنه اسم الايمان الا واسم الكفر لازم له لأن الكفر ضد الايمان الا ان الكفر كفران كفر هو جحد بالله وبما قال فذاك ضده الاقرار بالله والتصديق به وبما قال وكفر هو عمل فهو ضد الايمان الذى هو عمل ألا ترى الى ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه قالوا فاذا لم يؤمن فقد كفر ولا يجوز غير ذلك الا أنه كفر من جهة العمل اذ لم يؤمن من جهة العمل لأنه لا يضيع مافرض عليه ويركب الكبائر الا من قلة خوفه وقلة تعظيمه لله ووعيده فقد ترك من الايمان التعظيم الذى عنه الخوف والورع عن الخوف فأقسم النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يؤمن اذا لم يأمن جاره بوائقه ٠ ثم قد روى جماعة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سباب المسلم فسوق وقتاله كفر وأنه قال اذا قال المسلم لاخيه يا كافر فلم يكن كذلك باء بالكفر فقد سماه النبي صلى الله عليه وسلم بقتاله أخاه كافراً وبقوله له يا كافر كافراً وهذه الكلمة دون الزنى والسرقة قالوا فأما قول من احتج علينا فزعم انا اذا سميناه كافراً لزمنا أن نحكم عليه بحكم الكافرين بالله فنستتيبه ونبطل الحدود عنه لانه اذا كفر فقد زالت عنه أحكام المؤمنين وحدودهم وفي ذلك اسقاط الحدود واحكام المؤمنين على كل من أتى كبيرة فانا لم نذهب في ذلك الى حيث ذهبوا ولكنا نقول للايمان أصل وفرع وضد الايمان الكفر فى كل معنى فاصل الايمان الاقرار والتصديق وفرعه اكمال العمل بالقلب والبدن فضد الاقرار والتصديق الذى هو أصل الايمان الكفر بالله وبما قال وترك التصديق به وله وضد الايمان الذي هو عمل وليس هو اقرار كفر ليس بكفر بالله ينقل عن الملة ولكن كفر تضييع العمل كما كان العمل ايماناً وليس هو الايمان الذى هو اقرار بالله فلما كان من ترك الايمان الذى هو اقرار بالله كافراً يستتاب ومن ترك الايمان الذى هو عمل مثل الزكاة والحج والصوم أو ترك الورع عن شرب الخمر والزنا قد زال عنه بعض الايمان ولا يجب أن يستتاب عندنا ولا عند من خالفنا من أهل السنة وأهل البدع ممن قال ان الايمان تصديق وعمل الا الخوارج وحدها فكذلك لا يجب بقولنا كافر من جهة تضييع العمل أن يستتاب ولا يزول عنه الحدود كما لم يكن بزوال الايمان الذى هو عمل استتابته ولا ازالة الحدود عنه اذ لم يزل أصل الايمان عنه فكذلك لا يجب علينا استتابته وازالة الحدود والاحكام عنه باثباتنا له اسم الكفر من قبل العمل اذ لم يأت بأصل الكفر الذى هو جحد بالله أو بما قال قالوا ولما كان العلم بالله ايماناً والجهل به كفراً وكان العمل بالفرائض ايماناً والجهل بها قبل نزولها ليس بكفر لان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقروا بالله أول مابعث الله رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم ولم يعلموا الفرائض التي افترضت

عليهم بعد ذلك فلم يكن جهلهم بذلك كفراً ثم أنزل عليهم الفرائض فكان اقرارهم بها والقيام بها ايمانا وانما يكفر من جحدها لتكذيبه خبر الله ولو لم يأت خبر من الله ماكان بجهلها كافراً وبعد مجيء الخبر من لم يسمع بالخبر من المسلمين لم يكن بجهلها كافراً والجهل بالله فى كل حال كفر قبل الخبر وبعد الخبر قالوا ومن ثم قلنا ان ترك التصديق بالله كفر وان ترك الفرائض مع تصديق الله انه قد أوجبها كفر ليس بكفر بالله انما هو كفر من جهة ترك الحق كما يقول القائل كفرتنى حقى ونعمتى يريد ضيعت حقى وضيعت شكر نعمتي قالوا ولنا فى هذا قدوة بمن روى عنهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين اذ جعلوا للكفر فروعا دون أصله لاينقل صاحبه عن ملة الاسلام كما أثبتوا للايمان من جهة العمل فروعا للاصل لا ينقل تركه عن ملة الاسلام من ذلك قول ابن عباس فى قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال محمد بن نصر حدثنا يحيي حدثنا سفيان بن عيينة عن هشام يعنى ابن حجير عن طاوس عن ابن عباس (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ليس بالكفر الذى يذهبون اليه حدثنا محمد بن يحيي ومحمد بن رافع حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال سئل ابن عباس عن قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال هي به كفر قال ابن طاوس وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله حدثنا اسحاق أنبأنا وكيع عن سفيان عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال هو به كفر وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله وبه أنبأنا وكيع عن سفيان عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال قلت لابن عباس ومن لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر قال هو به كفر وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر وملائكته وكتبه ورسله حدثنا محمد بن يحيي حدثنا عبد الرزاق عن سفيان عن رجل عن طاوس عن ابن عباس قال كفر لا ينقل عن الملة حدثنا اسحاق أنبأنا وكيع عن سفيان عن سعيد المكى عن طاوس قال ليس بكفر ينقل عن الملة حدثنا اسحاق أنبأنا وكيع عن ابن جريج عن عطاء قال كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق قال محمد بن نصر قالوا وقد صدق عطاء قد يسمى الكافر ظالماً ويسمى العاصى من المسلمين ظالماً فظلم ينقل عن ملة الاسلام وظلم لاينقل قال الله تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) وقال (ان الشرك لظلم عظيم) وذكر حديث ابن مسعود المتفق عليه قال لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا أينا لم يظلم نفسه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بذلك ألم تسمعوا الي قول العبد الصالح ان الشرك لظلم عظيم انما هو الشرك حدثنا محمد بن يحيي حدثنا الحجاج بن المنهال عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس ان عمر بن الخطاب كان اذا دخل بيته نشر المصحف فقرأ فدخل ذات يوم فقرأ فأتى على هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسو ايمانهم بظلم) الى آخر الآية فانتعل وأخذ رداءه ثم أتى أبي بن كعب فقال يا أبا المنذر اتيت قبل على هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) وقد ترى انا نظلم ونفعل فقال يا أمير المؤمنين ان هذا ليس بذلك يقول الله (ان الشرك لظلم عظيم) انما ذلك الشرك قال محمد بن نصر وكذلك الفسق فسقان فسق ينقل عن الملة فيسمي الكافر

فاسقاً والفاسق من المسلمين فاسقاً ذكر الله ابليس فقال (ففسق عن أمر ربه) وكان ذلك الفسق منه كفراً وقال الله تعالى (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار) يريد الكفار دل على ذلك قوله (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) وسمي الفاسق من المسلمين فاسقاً ولم يخرجه من الاسلام قال الله تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون) وقال تعالى (فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) فقالت العلماء فى تفسير الفسوق هاهنا هي المعاصى قالوا فلما كان الظلم ظلمين والفسق فسقين كذلك الكفر كفران أحدهما ينقل عن الملة والآخر لا ينقل عن الملة وكذلك الشرك شركان شرك فى التوحيد ينقل عن الملة وشرك فى العمل لا ينقل عن الملة وهو الريا قال الله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) يريد بذلك المرآة بالاعمال الصالحة وقال النبي صلى الله عليه وسلم الطيرة شرك قال محمد بن نصر فهذان مذهبان هما فى الجملة محكيان عن أحمد بن حنبل فى موافقيه من أصحاب الحديث حكي الشالنجى اسماعيل بن سعيد انه سأل أحمد بن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبه بجهده الا انه لم يترك الصلاة والزكاة والصيام هل يكون مصراً من كانت هذه حاله قال هو مصر مثل قوله لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمن يخرج من الايمان ويقع فى الاسلام ومن نحو قوله لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ومن نحو قول ابن عباس في قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) فقلت له ما هذا الكفر فقال كفر لا ينقل عن الملة مثل الايمان بعضه دون بعض وكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه وقال ابن أبي شيبة لا يزني حين يزني وهو مؤمن لا يكون مستكمل الايمان يكون ناقصاً من ايمانه قال وسألت أحمد بن حنبل عن الاسلام والايمان فقال الايمان قول وعمل والاسلام اقرار قال وبه قال أبو خيثمة لا يكون الاسلام الا بايمان ولا ايمان الا باسلام قلت وقد تقدم تمام الكلام بتلازمهما وان كان مسمى أحدهما ليس هو مسمى الآخر وقد حكي غير واحد اجماع أهل السنة والحديث على ان الايمان قول وعمل قال أبو عمر بن عبد البر فى التمهيد أجمع أهل الفقه والحديث على ان الايمان قول وعمل ولا عمل الا بنية والايمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية والطاعات كلها عندهم ايمان الا ما ذكر عن أبي حنيفة وأصحابه فانهم ذهبوا الي ان الطاعات لا تسمى ايمانا قالوا انما الايمان التصديق والاقرار ومنهم من زاد المعرفة وذكر ما احتجوا به الى ان قال وأما سائر الفقهاء من أهل الرأى والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر منهم مالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان الثوري والاوزاعي والشافعي واحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وأبي عبيد القاسم بن سلام وداود بن على والطبري ومن سلك سبيلهم فقالوا الايمان قول وعمل قول باللسان وهو الاقرار والاعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح مع الاخلاص بالنية الصادقة قالوا وكل ما يطاع الله عز وجل به من فريضة ونافلة فهو من الايمان والايمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى وأهل الذنوب عندهم مؤمنون غير مستكملى الايمان من أجل ذنوبهم وانما صاروا ناقصى الايمان بارتكابهم الكبائر ألا ترى الى قول النبي

صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن الحديث يريد مستكمل الايمان ولم يرد به نفي جميع الايمان عن فاعل ذلك بدليل الاجماع على توريث الزاني والسارق وشارب الخمر اذا صلوا الى القبلة وانتحلوا دعوة الاسلام من قراباتهم المؤمنين الذين ليسوا بتلك الاحوال واحتج على ذلك ثم قال وأكثر أصحاب مالك على ان الايمان والاسلام شئ واحد .. قال وأما المعتزلة فالايمان عندهم جماع الطاعات ومن قصر منها عن شئ فهو فاسق لا مؤمن ولا كافر وهؤلاء المتحققون بالاعتزال أصحاب المنزلة بين المنزلتين الى ان قال على ان الايمان يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية جماعة أهل الآثار والفقهاء أهل الفتيا في الامصار وروي ابن القاسم عن مالك ان الايمان يزيد وتوقف في نقصانه وروي عنه عبد الرزاق ومعن بن عيسى وابن نافع انه يزيد وينقص وعلى هذا مذهب الجماعة من أهل الحديث والحمد لله ثم ذكر حجج المرجئة ثم حجج أهل السنة ورد على الخوارج التكفير بالحدود المذكورة للعصاة في الزنا والسرقة ونحو ذلك وبالموارثة وبحديث عبادة من أصاب شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة وقال الايمان مراتب بعضها فوق بعض فليس ناقص الايمان ككامل الايمان قال الله تعالى (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أي حقاً ولذلك قال هم المؤمنون حقاً وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم المؤمن من أمنه الناس والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده يعني حقاً ومن هذا قوله أكمل المؤمنين .. ومعلوم ان هذا لا يكون أكمل حتى يكون غيره أنقص وقوله أوثق عري الايمان الحب في الله والبغض في الله وقوله لا ايمان لمن لا أمانة له يدل على ان بعض الايمان أوثق وأكمل من بعض وذكر الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من أحب لله وأبغض لله الحديث وكذلك ذكر أبو عمر الطلمنكي اجماع أهل السنة على ان الايمان قول وعمل ونية واصابة السنة .. وقال أبو طالب المكي مباني الخمسة يعني الشهادتين والصلوات الخمس والزكاة وصيام شهر رمضان والحج قال وأركان الايمان سبعة يعني الخمسة المذكورة في حديث جبرائيل والايمان بالقدر والايمان بالجنة والنار وكلاهما قد رويت في حديث جبرائيل كما سنذكره ان شاء الله تعالى. قال والايمان بأسماء الله تعالى وصفاته والايمان بكتب الله وأنبيائه والايمان بالملائكة والشياطين يعني والله أعلم الايمان بالفرق بينهما فان من الناس من يجعلهما جنساً واحداً لكن تختلف باختلاف الاعمال كما يختلف الانسان البر والفاجر والايمان بالجنة والنار وانهما قد خلقتا قبل آدم والايمان بالبعث بعد الموت والايمان بجميع أقدار الله خيرها وشرها وحلوها ومرها انها من الله قضاء وقدراً ومشيئة وحكما وان ذلك عدل منه وحكمة بالغة استأثر بعلم غيبها ومعني حقائقها .. قال وقد قال قائلون ان الايمان هو الاسلام وهذا قد أذهب التفاوت والمقامات وهذا يقرب من مذهب المرجئة . وقال آخرون ان الاسلام غير الايمان وهؤلاء قد أدخلوا التضاد والتغاير وهذا قريب من قول الاباضية فهذه مسألة مشكلة تحتاج الى شرح وتفصيل فمثل الاسلام من الايمان كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى في المعنى والحكم فشهادة الرسول غير شهادة الوحدانية فهما شيئان في الاعيان وإحداهما مرتبطة بالاخرى في المعنى والحكم كشئ واحد كذلك الايمان والاسلام أحدهما مرتبط

بالآخر فهما كشئ واحد لا ايمان لمن لا اسلام له ولا اسلام لمن لا ايمان له اذ لا يخلو المسلم من ايمان به يصح اسلامه ولا يخلو المؤمن من اسلام به يحقق ايمانه من حيث اشترط الله للاعمال الصالحة الايمان واشترط للايمان الاعمال الصالحة فقال فى تحقيق ذلك (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه) وقال فى تحقيق الايمان بالعمل (ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) فمن كان ظاهره اعمال الاسلام ولا يرجع الى عقود الايمان بالغيب فهو منافق نفاقا ينقل عن الملة ومن كان عقده الايمان بالغيب ولا يعمل بأحكام الايمان وشرائع الاسلام فهو كافر كفراً لا يثبت معه توحيد ومن كان مؤمناً بالغيب مما أخبرت به الرسل عن الله عاملا بما أمر الله فهو مؤمن مسلم ولولا أنه كذلك لكان المؤمن يجوز أن لا يسمى مسلما ولجاز أن المسلم لا يسمى مؤمناً بالله .. وقد أجمع أهل القبلة على أن كل مؤمن مسلم وكل مسلم مؤمن بالله وملائكته وكتبه قال ومثل الايمان فى الاعمال كمثل القلب فى الجسم لا ينفك أحدهما عن الآخر لا يكون ذو جسم حي لا قلب له ولا ذو قلب بغير جسم فهما شيئان منفردان وهما في الحكم والمعنى منفصلان ومثلهما أيضاً مثل حبة لها ظاهر وباطن وهي واحدة لا يقال حبتان لتفاوت صفتهما فكذلك أعمال الاسلام من الاسلام هو ظاهر الايمان وهو من أعمال الجوارح والايمان باطن الاسلام وهو من أعمال القلوب .. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الاسلام علانية والايمان فى القلب وفي لفظ الايمان سر فالاسلام أعمال الايمان والايمان عقود الاسلام فلا ايمان الا بعمل ولا عمل الا بعقد . ومثل ذلك مثل العلم الظاهر والباطن أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وعمل الجوارح . ومثله قول رسول الله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات أي لا عمل الا بعقد وقصد لان انما تحقيق للشئ ونفي لما سواه فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات وعمل القلوب من النيات فمثل العمل من الايمان كمثل الشفتين من اللسان لا يصح الكلام الا بهما لأن الشفتين تجمع الحروف واللسان يظهر الكلام وفي سقوط أحدهما بطلان الكلام وكذلك فى سقوط العمل ذهاب الايمان ولذلك حين عدد الله نعمه على الانسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان فى قوله (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين) بمعنى ألم نجعله ناظراً متكلما فعبر عن الكلام باللسان والشفتين لأن الكلام الذي جرت به النعمة لا يتم الا بهما ومثل الايمان والاسلام أيضاً كفسطاط قائم فى الارض له ظاهر وأطناب وله عمود فى باطنه فالفسطاط مثل الاسلام له أركان من أعمال العلانية والجوارح وهى الاطناب التى تمسك أرجاء الفسطاط والعمود الذي في وسط الفسطاط مثله كالايمان لا قوام للفسطاط الا به فقد احتاج الفسطاط اليها اذ لا قوام له ولا قوة الا بهما كذلك الاسلام فى أعمال الجوارح لا قوام له الا بالايمان والايمان من أعمال القلوب لا نفع له الا بالاسلام وهو صالح الاعمال وأيضاً فان الله قد جعل ضد الاسلام والايمان واحداً فلولا انهما كشئ واحد فى الحكم والمعنى ما كان ضدهما واحداً فقال (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد ايمانهم) وقال (أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون) فجعل ضدهما الكفر . قال وعلى مثل هذا أخبر الرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان والاسلام من

صنف واحد فقال فى حديث ابن عمر بنى الاسلام على خمس وقال في حديث ابن عباس عن وفد عبد القيس أنهم سألوه عن الايمان فذكر هذه الاوصاف فدل بذلك على انه لا ايمان باطن الا باسلام ظاهر ولا اسلام ظاهر علانية الا بايمان سر وان الايمان والعمل قرينان لا ينفع أحدهما بدون صاحبه .. قال فأما تفرقة النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث جبرائيل بين الايمان والاسلام فان ذلك تفصيل أعمال القلوب وعقودها على ما توجب هـذه المعانى التى وصفناها أن تكون عقوداً من تفصيل أعمال الجوارح مما يوجب الافعال الظاهرة التى وصفها أن تكون علانية لا ان ذلك يفرق بين الاسلام والايمان فى المعنى باختلاف وتضاد ليس فيه دليـل انهما مختلفان في الحكم قال ويجتمعان في عبد واحـد مسلم مؤمن فيكون ما ذكره من عقود القلب وصف قلبه وما ذكره من العلانية وصف جسمه قال وأيضاً فان الأمة مجتمعة ان العبـد لو آمن بجميع ما ذكره من عقود القلب فى حديث جبرائيل من وصف الايمان ولم يعمل بما ذكره من وصف الاسـلام انه لا يسمى مؤمناً وانه ان عمـل بجميع ما وصف به الاسلام ثم لم يعتقد ما وصفه من الايمان انه لا يكون مسلماً وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان الأمة لا تجتمع على ضلالة .. قلت كأنه أراد بذلك اجماع الصحابة ومن اتبعهم أو انه لا يسمى مؤمناً فى الأحكام وانه لا يكون مسـلماً اذا أنكر بعض هذه الأركان أو علم ان الرسول أخبر بها ولم يصـدقه أو انه لم ير خلاف أهل الأهواء خلافاً وإلاّ فأبو طالب كان عارفاً بأقوالهم وهذا والله أعلم مراده فانه عقد الفصل الثالث والثلاثين في بيان تفصيل الاسلام والايمان وشرح عقود معاملة القلب من مذهب أهـل الجماعة وهذا الذى قاله أجرد مما قاله كثير من الناس لكن ينازع فى شيئين أحدهما ان المسلم المستحق للثواب لابد أن يكون معه الايمان الواجب المفصل المذكور في حديث جبرائيل والثانى ان النبي صلى الله عليه وسلم انما يطلق المؤمن دون مسلم في مثل قول النبى صـلى الله عليه وسـلم أو مسلم لكونه ليس من خواص المؤمنـين وأفاضلهم كأنه يقول لكونه ليس من السابقين المقربين بل من المقتصدين الأبرار فهذان مما تنازع فيهما جمهور العلماء ويقولون لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك الرجل أو مسلم لكونه لم يكن من خواص المؤمنين وأفاضلهم كالسابقين المقربين فان هذا لو كان كذلك لكان ينفي الايمان المطلق عن الأبرار المقتصدين المتقين الموعودين بالجنة بلا عذاب اذا كانوا من أصحاب اليمين ولم يكونوا من السابقين والمقربين وليس الأمر كذلك بل كل من أصـحاب اليمين مع السابقين المقربين كلهـم مؤمنون موعودون بالجنة بلا عذاب وكل من كان كذلك فهو باتفاق المسلمين من أهل السنة وأهل البدع ولو جاز أن ينفى الايمان عن شخص لكون غيره أفضل منه ايماناً نفى الايمان عن أكثر أولياء الله المتقين بل وعن كثير من الأنبياء وهذا فى غاية الفساد وهـذا من جنس قول من يقول نفى الاسم لنفى كماله المستحب وقد ذكرنا ان مثل هذا لا يوجد فى كلام الله ورسوله بل هذا الحديث خص من قيل فيه مسلم وليس بمؤمن فلا بد أن يكون ناقصاً عن درجة الأبرار المقتصدين أهـل الجنة ويكون ايمانه ناقصاً عن ايمان هؤلاء فلا يكون قد أتي بالايمان الذى أمر به هؤلاء كله ثم ان كان قادراً على ذلك الايمان وترك الواجب

كان مستحقاً للذم وان قدر انه لا يقـدر على ذلك الايمان الذي اتصف به هؤلاء كان عاجزاً عن مثل ايمانهم ولا يكون هذا وجب عليه فهو وان دخل الجنة لا يكون كمن قدر انه آمن ايماناً مجملا ومات قبل أن يعلم تفصيل الايمان وقبل أن يتحقق به ويعمل بشيء منه فهو يدخل الجنة لكن لا يكون مثل أولئك لكن قد يقال الأبرار أهل اليمين هم أيضاً على درجات كما فى الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خـير وقد قال الله تعالى (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر الآية) فدرجة المؤمن القوى فى الجنة أعلى وان كان كل منهما كمل ما وجب عليه وقد يريد أبو طالب وغيره بقولهم ليس هـذا من خواص المؤمنين هذا المعنى أى ليس ايمانه كايمان من حقق خاصة الايمـان سواء كان من الأبرار أو من المقربين وان لم يكن ترك واجباً لعجزه عنه أو لكونه لم يؤمر به فلا يكون مذموماً ولا يمدح مدح أولئك ولا يلزم أن يكون من أولئك المقربين فيقال وهذا أيضاً لا ينفى عنه الايمان فيقال هو مسـلم لا مؤمن كما يقال ليس بعالم ولا مفت ولا من أهل الاجتهاد وقد قال النبي صلى الله عليه وسـلم لو أنفق أحدكم مثل احد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه وهذا كثير فليس كلما فضل به الفاضل يكون مقدوراً لمن دونه فكذلك من حقائق الايمان ما لا يقدر عليه كثير من الناس بل ولا أكثرهم فهؤلاء يدخلون الجنة وان لم يكونوا ممن تحققوا بحقائق الايمان التى فضل الله بها غيرهم ولا تركوا واجباً عليهـم وان كان واجباً على غيرهم ولهذا كان من الايمان ماهو من المواهب والفضل من الله فانه من جنس العلم والاسلام الظاهر من جنس العمل وقد قال تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقال (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) وقال (هو الذي أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) ومثل هذه السكينة قد لا تكون مقدورة ولكن الله يجعل ذلك في قلبه فضلا منه وجزاء على عمل سابق كما قال (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مسـتقيماً) كما قال (اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به) وكما قال (أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه) ولهذا قيل من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم وهذا الجنس غير مقدور للعباد وان كان مايقدرون عليه من الأعمال الظاهرة والباطنة هو أيضاً بفضل الله واعانته واقداره لهم لكن الأُمور قسمان منه ما جنسه مقدور لهم باعانة الله لهم كالقيام والقعود ومنه ماجنسه غير مقدور لهم اذا قيـل ان الله يعطي من أطاعه قوّة في قلبه وبدنه يكون بها قادراً على مالا يقدر عليه غيره فهذا أيضاً حق وهو من جنس هذا المعنى قال تعالى (إذ يوحي ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا) وقد قال (اذا لقيتم فئة فاثبتوا) فأمرهم بالثبات وهذا الثبات يوحي الى الملائكة انهم يفعلونه بالمؤمنين .. والمقصود انه قد يكون من الايمان ما يؤمر به بعض الناس ويذم على تركه ولا يذم عليه بعض الناس ممن لا يقدر عليه ويفضل الله ذاك بهذا الايمان وان لم يكن المفضـول ترك واجبا فيقال وكذلك فى الاعمال الظاهرة يؤمر القادر على الفعل بما لا يؤمر به العاجز عنه ويؤمر بعض الناس

بما لا يؤمن به غيره لكن الاعمال الظاهرة قد يعطى الانسان مثل أجر العامل اذا كان يؤمن بها ويريدها جهده ولكن بدنه عاجز كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح ان بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم قالوا وهم بالمدينـة قال وهم بالمدينة حبسهم العذر وكما قال تعالى (لايستوى القاعدون من المؤمنين غيرأولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) فاستثنى أولي الضرر وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من دعا الى هدي كان له من الاجر مثل أجور من اتبعه من غير ان ينقص من أجورهم شيئاً ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غـير ان ينقص من أوزارهم شيئاً ٠٠ وفي حديث أبي كبشة الانمارى هما في الاجرسواء وهما فى الوزر سواء رواه الترمذي وصححه ولفظه انما الدنيا لاربعة رجل آتاه الله علماً ومالا فهو يتقى فى ذلك المال ربه ويصل فيه رحمـه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء وعبدرزقه الله ما لا ولم يرزقه علماً يخبط فى ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل وعبد لم يرزقه الله مالا وعلماً فهو يقول لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء ولفظ ابن ماجه مثـل هذه الامة كمثل أربعة نفر رجل آتاه الله مالا وعلمافهو يعمل بعلمه في ماله ينفقه فى حقه ورجل آتاه الله علما ولم يؤته ما لا فهو يقول لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهما فى الاجرسواء ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يختبط في ماله ينفقه في غير حقه ورجل لم يؤته علماً ولا مالا وهو يقول لو كان لى مثل مال هذا عملت مثل الذي يعمل فهما فى الوزر سواء كالشخصين اذا تماثـلا في ايمان القلوب معرفةوتصديقاً وحباً وقوة وحالا ومقاما فقد يتماثلان وان كان لاحدهما من أعمال البدن ما يعجز عنه بدن الآخر كما جاء فى الاثر ان المؤمن قوته في قلبه وضعفه فى جسمه والمنافق قوته فى جسمه وضعفه في قلبه ولهذا قال النبي صـلى الله عليـه وسلم فى الحديث الصحيح ليس الشديد ذو الصرعة انما الشـديد الذى يملك نفسه عند الغضب وقد قال رأيت كانى أنزع على قليب فأخذها ابن أبى قحافة فنزع ذنوبا أو ذنوبين وفى نزعه ضعف والله يغفر له فأخـذها ابن الخطاب فاستحالت فى يده غربا فلم أر عبقريا يفرى فريه حتى صدر الناس بعطن فذكر ان أبا بكر أضعف وسواء أراد قصر مدته أو أراد ضعفه عن مثـل قوة عمر فلا ريب ان أبا بكر أقوى ايمانا من عمر وعمر أقوى عملا منـه كما قال ابن مسعود ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر وقوة الايمان أقوى وأكمل من قوة العمل وصاحب الايمان يكتب له أجر عمل غـيره وما فعله عمر في سيرته مكتوب مثـله لابى بكر فانه هو الذى استخلفه وفي المسند من وجهين عن النبي صلى الله عليه وسلم ان النبي صلى الله عليه وسلم وزن بالامة فرجح ثم وزن أبو بكر بالامة فرجح ثم وزن عمر بالامة فرجح وكان فى حياة النبي صـلى الله عليه وسلم وبعـد موته يحصل لعمر بسبب أبي بكر من الايمان والعلم مالم يكن عنده فهو قد

دعاه الي مافعله من خير واعانه عليه بجهده والمعين على الفعل اذا كان يريده ارادة جازمة كان كفاعله كما ثبت فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من جهز غازيا فقد غزا ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا وقال من دل على خير فله مثل أجر فاعله وقال من فطر صائماً فله مثل أجره وقد روى فى الترمذى من عزى مصابا فله مثل أجره وهذا وغيره مما يبين ان الشخصين قد يتماثلان فى الاعمال الظاهرة بل يتفاضلان ويكون المفضول فيها أفضل عند الله من الآخر لانه أفضل في الايمان الذى فى القلب وأما اذا تفاضلا فى ايمان القلوب فلا يكون المفضول فيها أفضل عند الله البتة وان كان المفضول لم يهبه الله من الايمان ماوهبه للفاضل ولا أعطى قلبه من الاسباب التى بها ينال ذلك الايمان الفاضل ماأعطى المفضول ولهذا فضل الله بعض النبيين على بعض وان كان الفاضل أقل عملا بالبدن كما فضل الله نبينا صلى الله عليه وسلم ومدة نبوته بضع وعشرون سنة على نوح وقد لبث في قومه ألف سنة الاخمسين عاما وفضل أمة محمد وقدعملوا من صلاة العصر الى المغرب على من عمل من أول النهار الى صلاة الظهر وعلى من عمل من صلاة الظهر الى صلاة العصر فأعطى الله أمة محمد أجرين وأعطي كلا من أولئك أجراً أجراً لان الايمان الذى في قلوبهم كان أكمل وأفضل وكان أولئك أكثر عملا وهؤلاء أعظم أجراً وهو فضله يؤتيه من يشاء بالاسباب التي تفضل بها عليهم وخصهم بها وهكذا سائر من يفضله الله تعالى فانه يفضله بالاسباب التى يستحق بها التفضيل بالجزاء كما يخص أحد الشخصين بقوة ينال بها العلم وبقوة ينال بها اليقين والصبر والتوكل والاخلاص وغير ذلك مما يفضله الله به وانما فضله فى الجزاء بما فضل به من الايمان كما قال تعالى (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم قل ان الهدي هدي الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أويحاجوكم عند ربكم قل ان الفضل بيد الله) وقال فى الآية الأخرى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقال (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) وقال (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) وقد بين فى مواضع أسباب المغفرة وأسباب العذاب وكذلك يرزق من يشاء بغير حساب وقد عرف انه قد يخص من يشاء بأسباب الرزق واذا كان من الايمان مايعجز عنه كثير من الناس ويختص الله به من يشاء فذلك مايفضلهم الله به وذلك الايمان ينفي عن غيرهم لكن لا على وجه الذم بل على وجه التفضيل فان الذم انما يكون على ترك مأمور أو فعل محظور لكن على ما ذكره أبو طالب يقال فمثل هؤلاء مسلمون لا مؤمنون باعتبار ويقال انهم مؤمنون باعتبار آخر وعلى هذا ينفى الايمان عمن فاته الكمال المستحب بل الكمال الذي يفضل به على من فاته وان كان غير مقدور للعباد بل ينفى عنه الكمال الذي وجب على غيره وان لم يكن في حقه لا واجباً ولا مستحبا لكن هذا لا يعرف في كلام الشارع ولم يعرف في كلامه الا ان نفى الايمان يقتضى الذم حيث كان فلا ينفى الا عمن له ذنب فتبين ان قوله أو مسلم توقف فى أداء الواجبات الباطنة والظاهرة كما قال جماهير الناس ثم طائفة يقولون قد يكون منافقا ليس معه شئ من الايمان وهم الذين يقولون الاعراب المذكورون منافقون ليس معهم من الايمان شئ وهذا هوالقول الذي نصره طائفة

كمحمد بن نصر والاكثرون يقولون بل هؤلاء لم يكونوا من المنافقين الذين لا يقبل منهم شئ من أعمالهم وان كان فيهم شعبة نفاق بل كان معهم تصديق يقبل معه منهم ما عملوه لله ولهذا جعلهم مسلمين ولهذا قال (ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين) كما قالوا مثل ذلك فى الزانى والسارق وغيرهما ممن نفى عنه الايمان مع ان معه التصديق وهذا أصح الاقوال الثلاثة فيهم وأبو طالب جعل من كان مذموما لترك واجب من المؤلفة قلوبهم الذين لم يعطوا شيئاً وجعل ذاك الشخص مؤمناً غيره أفضل منه وأما الاكثرون فيقولون اثبات الاسلام لهم دون الايمان كاثباته لذلك الشخص كان مسلما لا مؤمنا كلاهما مذموم لا لمجرد ان غيره أفضل منه وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا ولم يسلب من دونه الايمان وقال تعالى (لا يستوى منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى) فأثبت الايمان للفاضل والمفضول وهذا متفق عليه بين المسلمين وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله اجران وان اجتهد فأخطأ فله أجر وقال لسعد بن معاذ لما حكم فى بني قريظة لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبعة أرقعة وكان يقول لمن يرسله فى جيش أو سرية اذا حاصرت أهل حصن فسألوك ان تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله فانك لاتدرى ماحكم الله فيهم ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك وهذه الاحاديث الثلاثة في الصحيح وفى حديث سليمان عليه السلام أسألك حكما يوافق حكمك فهذه النصوص وغيرها تدل على ما اتفق عليه الصحابة والتابعون لهم باحسان ان أحد الشخصين قد يخصه الله باجتهاد يحصل له به من العلم مايعجز عنه غيره فيكون له أجران وذلك الآخر عاجز له أجر ولا أثم عليه وذلك العلم الذي خص به هذا والعمل به باطنا وظاهرا زيادة فى ايمانه وهو ايمان يجب عليه لانه قادر عليه وغيره عاجز عنه فلا يجب فهذا قد فعل بايمان واجب عليه وليس بواجب على من عجز عنه وهذا حال جميع الامة فيما تنازعت فيه من المسائل الخبرية والعملية اذا خص أحدهما بمعرفة الحق في نفس الامر مع اجتهاد الآخر وعجزه كلاهما محمود مثاب مؤمن وذاك خصه الله من الايمان الذى وجب عليه بما فضله به على هذا وذلك المخطئ لا يستحق ذما ولا عقابا وان كان ذاك لو فعل ما فعل ذم وعوقب كما خص الله أمة نبينا بشريعة فضلها به ولو تركنا مما أمرنا به فيها شيئاً لكان ذلك سبباً للذم والعقاب والانبياء قبلنا لايذمون بترك ذلك لكن محمد صلى الله عليه وسلم فضله الله على الانبياء وفضل أمته على الامم من غير ذم لاحد من الانبياء ولا لمن اتبعهم من الامم وأيضاً فاذا كان الانسان لا يجب عليه من الايمان الا ما يقدر عليه وهو اذا فعل ذلك كان مستحقاً لما وعد الله به من الجنة فلو كان مثل هذا يسمى مسلما ولا يسمي مؤمناً لوجب ان يكون من أهل الوعد بالجنة من يسمي مسلما لا مؤمناً كالاعراب وكالشخص الذي قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم أو مسلم وكسائر من نفى عنه الايمان مع انه مسلم كالزانى والشارب والسارق ومن لا يأمن جاره بوائقه ومن لايحب لاخيه من الخير مايحب لنفسه وغير هؤلاء وليس الامر كذلك فان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان لم يعلقه باسم الاسلام مع ايجاب الاسلام واخباره انه دينه الذى ارتضاه وانه لايقبل ديناً غيره ومع هذا فما

قال ان الجنة أعدت للمسلمين ولا قال وعد الله المسلمين بالجنة بل انما ذكر ذلك باسم الايمان كقوله (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار) فهو يعلقها باسم الايمان المطلق أو المقيد بالعمل الصالح كقوله (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الانهار) وقوله (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجرى من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل)وقوله (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون) وقوله (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) وقوله (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيما) وقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سيدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا) وفي الآية الاخرى (ومن أصدق من الله قيلا) وقال(فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لايحب الظالمين) وقال (وعدالله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم) وقال (فمن آمن واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً الا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) فالوعد بالجنة والرحمة فى الآخرة وبالسلامة من العذاب علق باسم الايمان المطلق والمقيد بالعمل الصالح ونحو ذلك وهذا كما تقدم ان المطلق يدخل فيه فعل ما أمر الله به ورسوله ولم يعلق باسم الاسلام فلو كان من أتى من الايمان بما يقدر عليه وعجز عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلماً لا مؤمنا لكان من أهل الجنة وكانت الجنة يستحقها من يسمى مسلماً وان لم يسم مؤمناً وليس الامر كذلك بل الجنة لم تعلق الا باسم الايمان .. وهذا أيضاً مما استدل به من قال انه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة اذ لو كان كذلك لكان وعد الجنة معلقاً باسم الاسلام كما علق باسم الايمان وكما علق باسم التقوى واسم البر في مثل قوله (ان المتقين في جنات ونهر) وقوله (ان الابرار لفى نعيم) وباسم أولياء الله كقوله (ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) فلما لم يجر اسم الاسلام هذا المجري علم ان مسماه ليس ملازما لمسمى الايمان كما يلازمه اسم البر والتقوي وأولياء الله وان اسم الاسلام يتناول من هو من أهل الوعيد وان كان الله يثيبه على طاعته مثل ان يكون في قلبه ايمان ونفاق يستحق به العذاب فهذا يعاقبه الله ولا يخلده في النار لان فى قلبه مثقال ذرة او أكثر من مثقال ذرة من ايمان .. وهكذا سائر أهل الكبائر ايمانهم ناقص واذا كان في قلب أحدهم شعبة نفاق عوقب بها اذا لم يعف الله عنه ولم يخلد فى النار فهؤلاء مسلمون وليسوا مؤمنين ومعهم ايمان لكن معهم أيضاً ما يخالف الايمان من النفاق فلم تكن تسميتهم مؤمنين بأولي من تسميتهم منافقين لا سيما ان كانوا للكفر أقرب منهم للايمان وهؤلاء يدخلون فى اسم الايمان في أحكام الدنيا كما يدخل المنافق المحض وأولي لان هؤلاء معهم ايمان ويدخلون فى خطاب الله بيا أيها الذين آمنوا لان

ذلك أمر لهم بما ينفعهم ونهي لهم عما يضرهم وهم محتاجون الى ذلك ثم الايمان الذى معهم ان اقتضى شمول لفظ الخطاب لهم فلا كلام والا فليس بأسوأ حالا من المنافق المحض وذلك المنافق يخاطب بهذه الاعمال وتنفعه فى الدنيا ويحشر بها مع المؤمنين يوم القيامة ويتميز بها عن سائر الملل يوم القيامة كما تميز عنهم بها فى الدنيا لكن وقت الحقيقة يضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الامانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور فاليوم لايؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأويكم النار هي مولاكم وبئس المصير وقد قال تعالي (ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا الا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما) فاذا عمل العبد صالحا لله فهذا هو الاسلام الذى هو دين الله ويكون معه من الايمان ما يحشر به مع المؤمن يوم القيامة ثم ان كان معه من الذنوب ما يعذب به عذب واخرج من النار اذا كان في قلبه مثقال حبة خردل من ايمان وان كان معه نفاق ولهذا قال تعالى في هؤلاء (فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيما) فلم يقل انهم مؤمنون بمجرد هذا اذ لم يذكر الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله بل هم معهم وانما ذكر العمل الصالح واخلاصه لله وقال فأولئك مع المؤمنين فيكون لهم حكمهم ٠٠ وقد بين تفاضل المؤمنين فى مواضع أخر وانه من أتي بالايمان الواجب استحق الثواب ومن كان فيه شعبة نفاق وأتي بالكبائر فذاك من أهل الوعيد وايمانه ينفعه الله به ويخرجه به من النار ولو انه مثقال حبة خردل لكن لا يستحق به الاسم المطلق المعلق به وعد الجنة بلا عذاب وتمام هذا ان الناس قد يكون فيهم من معه شعبة من شعب الايمان وشعبة من شعب الكفر أو النفاق ويسمى مسلماً كما نص عليه أحمد ٠٠ وتمام هذا ان الانسان قد يكون فيه شعبة من شعب الايمان وشعبة من شعب النفاق وقد يكون مسلما وفيه كفر دون الكفر الذى ينقل عن الاسلام بالكلية كما قال الصحابة ابن عباس وغيره كفر دون كفر وهذا قول عامة السلف وهو الذى نص عليه أحمد وغيره ممن قال في السارق والشارب ونحوهم ممن قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم انه ليس بمؤمن انه يقال لهم مسلمون لا مؤمنون واستدلوا بالقرآن والسنة على نفى اسم الايمان مع اثبات اسم الاسلام وبأن الرجل قد يكون مسلماً ومعه كفر لا ينقل عن الملة بل كفر دون كفر كما قال ابن عباس وأصحابه فى قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قالوا كفر لا ينقل عن الملة وكفر دون كفر وفسق دون فسق وظلم دون ظلم ٠ وهذا أيضاً مما استشهد به البخارى فى صحيحه فان كتاب الايمان الذى افتتح به الصحيح قرر مذهب أهل السنة والجماعة وضمنه الرد على المرجئة فانه كان من القائمين بنصر السنة والجماعة مذهب الصحابة والتابعين لهم باحسان ٠ وقد اتفق العلماء على ان اسم المسلمين فى الظاهر يجرى على المنافقين لأنهم استسلموا ظاهراً وأتوا بما أتوا به من الاعمال الظاهرة بالصلاة الظاهرة والزكاة الظاهرة والحج الظاهر والجهاد الظاهر كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يجرى عليهم أحكام الاسلام الظاهر واتفقوا على أنه من لم يكن معه شيء من الايمان فهو كما قال الله تعالى (ان

المنافقين في الدرك الاسفل من النار) وفيها قراءتان درك ودرك قال أبو الحسين بن فارس الجنة درجات والنار دركات قال الضحاك الدرج اذا كان بعضها فوق بعض والدرك اذا كان بعضها أسفل من بعض فصار المظهرون للاسلام بعضهم في أعلى درجة فى الجنة وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال فى الحديث الصحيح اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم سلوا الله الوسيلة فانها درجة فى الجنة لاتنبغى الا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة وقوله صلى الله عليه وسلم وأرجو أن أكون مثل قوله اني لارجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده ولا ريب انه أخشي الأمة لله وأعلمهم بحدوده وكذلك قوله اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة فهي نائلة ان شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً وقوله اني لارجو أن تكونوا نصف أهل الجنة وأمثال هذه النصوص وكان يستدل به أحمد وغيره على الاستثناء فى الايمان كما يذكره فى موضعه ..

والمقصود انه خير المؤمنين فى أعلى درجات الجنة والمنافقون فى الدرك الاسفل من النار وان كانوا فى الدنيا مسلمين ظاهراً تجرى عليهم أحكام الاسلام الظاهرة فمن كان فيه ايمان ونفاق يسمى مسلماً اذ ليس هو دون المنافق المحض واذا كان نفاقه أغلب لم يستحق اسم الايمان بل اسم المنافق أحق به فان ما فيه بياض وسواد وسواده أكثر هو باسم الاسود أحق منه باسم الابيض كما قال تعالى (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان) وأما اذا كان ايمانه أغلب ومعه نفاق يستحق به الوعيد لم يكن أيضاً من المؤمنين الموعودين بالجنة وهذا حجة لما ذكره محمد بن نصر عن أحمد ولم أره أنا فيما بلغنى من كلام أحمد ولا ذكره الخلال ونحوه .. قال محمد بن نصر وحكى غير هذا عن أحمد أنه قال من أتي هذه الاربعة الزنا والسرقة وشرب الخمر والنهبة التى يرفع الناس فيها أبصارهم اليه أو مثلهن أو فوقهن فهو مسلم ولا أسميه مؤمناً ومن أتي دون ذلك دون الكبائر نسميه مؤمناً ناقص الايمان فان صاحب هذا القول يقول لما نفى عنه النبي صلى الله عليه وسلم الايمان نفيته عنه كما نفاه عنه الرسول صلى الله عليه وسلم والرسول لم ينفه الا عن صاحب كبيرة والا فالمؤمن الذى يفعل الصغيرة هي مكفرة عنه بفعله للحسنات واجتنابه للكبائر لكنه ناقص الايمان عمن اجتنب الصغائر فما أتي بالايمان الواجب ولكن خلطه بسيئات كفرت عنه بغيرها ونقص بذلك درجته عمن لم يأت بذلك وأما الذين نفى عنهم الرسول الايمان فننفيه كما نفاه الرسول وأولئك وان كان معهم التصديق وأصل الايمان فقد تركوا منه ما استحقوا لأجله سلب الايمان وقد يجتمع فى العبد نفاق وايمان وكفر وايمان فالايمان المطلق عند هؤلاء ما كان صاحبه مستحقاً للوعد بالجنة . وطوائف أهل الاهواء من الخوارج والمعتزلة والجهمية والمرجئة كراميهم وغير كراميهم يقولون انه لا يجتمع فى العبد ايمان ونفاق ومنهم من يدعي الاجماع على ذلك وقد ذكر أبو الحسن فى بعض كتبه الاجماع على ذلك . ومن هنا غلطوا فيه وخالفوا فيه الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين لهم باحسان مع مخالفة صريح المعقول بل الخوارج والمعتزلة طردوا هذا الاصل الفاسد وقالوا لا يجتمع فى الشخص الواحد طاعة يستحق بها الثواب ومعصية يستحق بها العقاب ولا يكون الشخص الواحد محموداً

من وجه مذموماً من وجه ولا محبوبا مدعواً له من وجه مسخوطاً ملعونا من وجه ولا يتصور أن الشخص الواحد يدخل الجنة والنار جميعاً عندهم بل من دخل احداهما لم يدخل الاخرى عندهم ولهذا أنكروا خروج أحد من النار أو الشفاعة فى أحد من أهل النار وحكى عن غالية المرجئة أنهم وافقوهم على هذا الاصل لكن هؤلاء قالوا ان أهل الكبائر يدخلون الجنة ولا يدخلون النار مقابلة لأولئك • وأما أهل السنة والجماعة والصحابة والتابعون لهم باحسان وسائر طوائف المسلمين من أهل الحديث والفقهاء وأهل الكلام من مرجئة الفقهاء والكرامية والكلابية والاشعرية والشيعة مرجئهم وغير مرجئهم فيقولون ان الشخص الواحد قد يعذبه الله بالنار ثم يدخله الجنة كما نطقت بذلك الاحاديث الصحيحة وهذا الشخص الذي له سيئات عذب بها وله حسنات دخل بها الجنة وله معصية وطاعة باتفاق هؤلاء الطوائف لم يتنازعوا في حكمه لكن تنازعوا في اسمه فقالت المرجئة جهميتهم وغير جهميتهم هو مؤمن كامل الايمان وأهل السنة والجماعة على انه ناقص الايمان ولولا ذلك لما عذب كما انه ناقص البر والتقوي باتفاق المسلمين وهل يطلق عليه اسم مؤمن هذا فيه القولان والصحيح التفصيل فاذا سئل عن أحكام الدنيا كعتقه فى الكفارة قيل هو مؤمن وكذلك اذا سئل عن دخوله فى خطاب المؤمنين وأما اذا سئل عن حكمه في الآخرة قيل ليس هذا النوع من المؤمنين الموعودين بالجنة بل معه ايمان يمنعه الخلود فى النار ويدخل به الجنة بعد أن يعذب فى النار ان لم يغفر الله له ذنوبه ولهذا قال من قال هو مؤمن بايمانه فاسق بكبيرته أو مؤمن ناقص الايمان والذين لايسمونه مؤمناً من أهل السنة ومن المعتزلة يقولون اسم الفسوق ينافي اسم الايمان كقوله (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) وقوله (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم سباب المسلم فسوق وقتاله كفر وعلى هذا الاصل فبعض الناس يكون معه شعبة من شعب الكفر ومعه ايمان أيضا وعلى هذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في تسمية كثير من الذنوب كفراً مع ان صاحبها قد يكون معه أكثر من مثقال ذرة من ايمان فلا يخلد في النار كقوله سباب المسلم فسوق وقتاله كفر وقوله لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض وهذا مستفيض عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح من غير وجه فانه أمر فى حجة الوداع أن ينادي به في الناس فقد سمى من يضرب بعضهم رقاب بعض بلا حق كفارا ويسمي هذا الفعل كفراً ومع هذا فقد قال تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما الى قوله انما المؤمنون اخوة) فبين ان هؤلاء لم يخرجوا من الايمان بالكلية ولكن فيهم ماهو كفر وهي هذه الخصلة كما قال الصحابة كفر دون كفر وكذلك قوله من قال لاخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما فقد سماه أخاه حين القول وقد أخبر ان أحدهما باء بها فلو خرج أحدهما عن الاسلام بالكلية لم يكن أخاه بل فيه كفر وكذلك قوله فى الحديث الصحيح ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه الا كفر وفى حديث آخر كفر بالله من تبرء من نسب وان دق وكان من القرآن الذى نسخ لفظه لاترغبوا عن آبائكم فان كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم فان حق الوالدين مقرون بحق الله في مثل قوله (أن اشكر لى ولوالديك الى المصير)

وقوله (وقضى ربك أن لاتعبدوا الااياه وبالوالدين احساناً) فالوالد أصله الذى منه خلق والولد من كسبه كما أغنى عنه ماله وما كسب فالجحد لهما شعبة من شعب الكفر فانه جحد لما منه خلقه ربه فقد جحد خلق الرب اياه وقد كان فى لغة من قبلنا يسمى الرب أبا فكان فيه كفر بالله من هذا الوجه ولكن ليس هذا كمن جحد الخالق بالكلية وسنتكلم ان شاء الله على سائر الأحاديث والمقصود هنا ذكر أصل جامع تنبني عليه معرفة النصوص ورد ماتنازع فيه الناس الى الكتاب والسنة فان الناس كثر نزاعهم فى مواضع فى مسمى الايمان والاسلام لكثرة ذكرهما وكثرة كلام الناس فيهما والاسم كلما كثر التكلم فيه فتكلم به مطلقاً ومقيداً بقيد ومقيداً بقيد آخر في موضع كان هذا سبباً لاشتباه بعض معناه ثم كلما كثر سماعه كثر من يشتبه عليه ذلك ومن أسباب ذلك أن يسمع بعض الناس بعض موارده ولا يسمع بعضه ويكون ماسمعه مقيداً بقيد أوجبه اختصاصه بمعنى فيظن معناه فى سائر موارده كذلك فمن اتبع علمه حتي عرف مواقع الاستعمال عامة وعلم مأخذ الشبهة أعطي كل ذي حق حقه وعلم ان خير الكلام كلام الله وانه لا بيان أتم من بيانه وان ما أجمع عليه المسلمون من دينهم الذى يحتاجون اليه اضعاف اضعاف ماتنازعوا فيه فالمسلمون سنيهم وبدعيهم متفقون على وجوب الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومتفقون على وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ومتفقون على ان من أطاع الله ورسوله فانه يدخل الجنة ولا يعذب وعلى ان من لم يؤمن بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه فهو كافر وأمثال هذه الامور التي هي أصول الدين وقواعد الايمان التى اتفق عليها المنتسبون الى الاسلام والايمان فتنازعهم بعد هذا فى بعض أحكام الوعيد أو بعض معانى بعض الاسماء أمر خفيف بالنسبة الى مااتفقوا عليه مع ان المخالفين للحق البين من الكتاب والسنة هم عند جمهور الامة معروفون بالبدعة مشهود عليهم بالضلالة ليس لهم فى الامة لسان صدق ولا قبول عام كالخوارج والروافض والقدرية ونحوهم وانما يتنازع أهل العلم والسنة في أمور دقيقة تخفى على أكثر الناس ولكن يجب ردما تنازعوا فيه الى الله ورسوله والرد الى الله ورسوله في مسألة الاسلام والايمان يوجب ان كلا من الاسمين وان كان مسماه واجباً ولا يستحق أحد الجنة الا بان يكون مؤمناً مسلماً فالحق في ذلك مابينه النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل فجعل الدين وأهله ثلاث طبقات أولها الاسلام وأوسطها الايمان وأعلاها الاحسان ومن وصل الي العليا فقد وصل الى التى تليها فالمحسن مؤمن والمؤمن مسلم وأما المسلم فلا يجب أن يكون مؤمناً وهكذا جاء القرآن فجعل الامة على هذه الأصناف الثلاثة قال تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) فالمسلم الذي لم يقم بواجب الايمان هو الظالم لنفسه والمقتصد هو المؤمن المطلق الذي أدى الواجب وترك المحرم والسابق بالخيرات هو المحسن الذى عبد الله كأنه يراه وقد ذكر الله سبحانه تقسيم الناس فى المعاد الى هذه الثلاثة في سورة الواقعة والمطففين وهل أتى وذكر الكفار أيضاً وأما هنا فجعل التقسيم للمصطفين من عباده وقال أبو سليمان الخطابى ما أكثر مايغلط الناس فى هذه المسئلة فأما الزهرى فقال الاسلام الكلمة والايمان العمل واحتج بالآية وذهب غيره الى ان

الاسلام والايمان شيء واحد فاحتج بقوله (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) قال الخطابي وقد تكلم رجلان من أهل العلم وصار كل واحد منهما الى قول من هذين ورد الآخر منهما على المتقدم وصنف عليه كتابا يبلغ عدداً وراقه المائتين قال الخطابي والصحيح من ذلك ان يقيد الكافر في هذا ولا يطلق وذلك ان المسلم قد يكون مؤمناً في بعض الاحوال ولا يكون مؤمناً في بعضها والمؤمن مسلم في جميع الاحوال فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً واذا حملت الامر على هذا استقام لك تأويل الآيات واعتدل القول فيها ولم يختلف شيء منها قلت الرجلان اللذان أشار اليهما الخطابي أظن أحدهما وهو السابق محمد بن نصر فانه الذي علمته بسط الكلام في أن الاسلام والايمان شيء واحد من أهل السنة والحديث وما علمت لغيره قبله بسطاً في هذا والآخر الذى رد عليه أظنه (١) لكن لم أقف على رده والذى اختاره الخطابي هو قول من فرق بينهما كأبي جعفر وحماد بن زيد وعبد الرحمن بن مهدي وهو قول احمد بن حنبل وغيره ولا علمت أحداً من المتقدمين خالف هؤلاء فجعل نفس الاسلام نفس الايمان ولهذا كان عامة أهل السنة على هذا الذى قاله هؤلاء كما ذكره الخطابي وكذلك ذكر أبو القاسم التيمي الاصبهاني وابنه محمد شارح مسلم وغيرهما أن المختار عند أهل السنة أنه لايطلق على السارق والزاني اسم مؤمن كما دل عليه النص وقد ذكر الخطابي في شرح البخاري كلاما يقتضي تلازمهما مع افتراق اسميهما وذكره البغوى في شرح السنة فقال قد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الاسلام إسما لما ظهر من الاعمال وجعل الايمان اسما لما بطن من الاعتقاد وليس ذلك لان الأعمال ليست من الايمان أو التصديق بالقلب ليس من الاسلام بل ذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحد وجماعها الدين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم هذا جبرائيل جاءكم يعلمكم دينكم والتصديق والعمل يتناولهما اسم الاسلام والايمان جميعاً يدل عليه قوله تعالى (ان الدين عند الله الاسلام) وقوله تعالى (ورضيت لكم الاسلام ديناً) وقوله (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) فبين أن الدين الذي رضيه ويقبله من من عباده هو الاسلام ولا يكون الدين في محل الرضا والقبول الا بانضمام التصديق الى العمل .. قلت تفريق النبي صلي الله عليه وسلم في حديث جبرائيل وان اقتضى أن الأعلى وهو الاحسان يتضمن الايمان والايمان يتضمن الاسلام فلا يدل على العكس ولو قدر أنه دل على التلازم فهو صريح بأن مسمي هذا ليس مسمى هذا لكن التحقيق أن الدلالة تختلف بالتجريد والاقتران كما قد بيناه ومن فهم هذا انحلت عنه اشكالات كثيرة في كثير من المواضع حاد عنها طوائف مسئلة الايمان وغيرها وما ذكره من أن الدين لايكون في محل الرضا والقبول الا بانضمام التصديق الى العمل يدل على أنه لابد مع العمل من الايمان فهذا يدل على وجوب الايمان مطلقاً لكن لايدل على أن العمل الذي هو الدين ليس اسمه اسلاما واذا كان الايمان شرطاً في قبوله لم يلزم أن يكون ملازما له ولو كان ملازما له لم يلزم أن يكون جزء مسماه .. وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح قوله صلى الله عليه وسلم الاسلام أن تشهد أن لااله الا الله

(١) هكذا بياض بالاصل

الى آخره والايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله الى آخره قال هذا بيان لأصل الايمان وهو التصديق الباطن وبيان لأصل الاسلام وهو الاستسلام والانقياد الظاهر وحكم الاسلام في الظاهر يثبت بالشهادتين وانما أضاف اليهما الأربع لكونها أظهر شعائر الاسلام ومعظمها وبقيامه بها يتم استسلامه وتركه لها يشعر بحل قيد انقياده أو انحلاله ثم ان اسم الاسلام يتناول ما فسر به الاسلام فى هذا الحديث وسائر الطاعات لكونها ثمرات التصديق الباطن الذي هو أصل الايمان ومقومات ومتممات وحافظات له ولهذا فسر النبى صلى الله عليه وسلم الايمان فى حديث وفد عبد القيس بالشهادتين والصلاة والزكاة والصوم واعطاء الخمس من المغنم ولهذا لايقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة أو ترك فريضة لان اسم الشئ الكامل يقع على الكامل منه ولا يستعمل فى الناقص ظاهراً الا بقيد ولذلك جاز اطلاق نفيه عنه في قوله صلى الله عليه وسلم لا يزني الزانى حين يزنى وهو مؤمن واسم الاسلام يتناول أيضاً ما هو أصل الايمان وهو التصديق ويتناول أصل الطاعات فان ذلك كله استسلام قال فخرج مما ذكرناه وحققناه أن الاسلام والايمان يجتمعان ويفترقان وان كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً قال فهذا تحقيق واف بالتوفيق بين متفرقات النصوص الواردة في الايمان والاسلام التي طال ماغلط فيها الخائضون وما حققناه من ذلك موافق لمذاهب جماهير العلماء من أهل الحديث وغيرهم فيقال هذا الذي ذكره رحمه الله فيه من الموافقة ما قد بين من أقوال الائمة وما دل عليه الكتاب والسنة ما يظهر به أن الجمهور يقولون كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا وقوله ان الحديث ذكر فيه أصل الايمان وأصل الاسلام قد يورد عليه ان النبى صلى الله عليه وسلم أجاب عن الايمان والاسلام بما هو من جنس الجواب بالحد عن المحدود فيكون ما ذكره مطابقا لهما لا لاصلهما فقط فالايمان هو الايمان بما ذكره باطناً وظاهراً لكن ما ذكره من الايمان تضمن الاسلام كما ان الاحسان تضمن الايمان وقول القائل أصل الاستسلام هو الاسلام الظاهر فالاسلام هو الاستسلام لله والانقياد له ظاهراً وباطناً فهذا هو دين الاسلام الذي ارتضاه الله كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ومن أسلم بظاهره دون باطنه فهو منافق يقبل ظاهره فانه لم يؤمر أن يشق عن قلوب الناس وأيضاً فاذا كان الاسلام يتناول التصديق الباطن الذي هو أصل الايمان فيلزم أن يكون كل مسلم مؤمنا وهو خلاف مانقل عن الجمهور لكن لابد فى الاسلام من تصديق يحصل به أصل الايمان والا لم يثبت عليه فيكون حينئذ مسلما مؤمناً فلا بد ان يتبين المسلم الذي ليس بمؤمن ودخوله فى الاسلام والنبي صلى الله عليه وسلم قال هذا جبرائيل أتاكم يعلمكم دينكم وقوله الاسلام هو الاركان الخمسة لا يعنى به من أداها بلا اخلاص لله بل مع النفاق بل المراد من فعلها كما أمر بها باطناً وظاهراً وذكر الخمس انها هي الاسلام لانها هي العبادات المحضة التى تجب لله تعالي على كل عبد مطيق لها وما سواها إما واجب على الكفاية لمصلحة اذا حصلت سقط الوجوب وإما من حقوق الناس بعضهم على بعض وان كان فيها قربة ونحو ذلك وتلك تابعة لهذه كما قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده وأفضل الاسلام ان تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن

لم تعرف ونحو ذلك فهذه الخمس هي الاركان والمبانى كما فى الايمان .. وقول القائل الطاعات ثمرات التصديق الباطن يراد به شيئان يراد به انها لوازم له فمتي وجد الايمان الباطن وجدت وهذا مذهب السلف وأهل السنة ويراد به ان الايمان الباطن قد يكون سبباً وقد يكون الايمان الباطن تاما كاملا وهي لم توجد وهذا قول المرجئة من الجهمية وغيرهم وقد ذكرنا فيما تقدم انهم غلطوا في ثلاثة أوجه .. أحدها ظنهم ان الايمان الذى فى القلب تصديق بلا عمل للقلب كمحبة الله وخشيته .. والثاني ظنهم ان الايمان الذي فى القلب يكون تاما بدون العمل الظاهر وهذا يقول به جميع المرجئة .. والثالث قولهم كل من كفره الشارع فانما كان لانتفاء تصديق القلب بالرب تبارك وتعالى وكثير من المتأخرين لا يميزون بين مذاهب السلف وأقوال المرجئة والجهمية لاختلاط هذا بهذا فى كلام كثير منهم ممن هو في باطنه يري رأى الجهمية والمرجئة في الايمان وهو معظم للسلف والحديث فيظن انه يجمع بينهما أو يجمع بين كلام أمثاله وكلام السلف .. قال أبو عبد الله محمد بن نصر المروزى وقالت طائفة ثالثة وهم الجمهور الاعظم من أهل السنة والجماعة وأصحاب الحديث الايمان الذى دعا الله العباد اليه وافترضه عليهم هو الاسلام الذي جعله ديناً وارتضاه لعباده ودعاهم اليه وهو ضد الكفر الذي سخطه فقال (ولا يرضى لعباده الكفر) وقال (ورضيت لكم الاسلام ديناً) وقال (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام) وقال (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) فمدح الله الاسلام بمثل ما مدح به الايمان وجعله اسم ثناء وتزكية فاخبر ان من أسلم فهو على نور من ربه وهدي واخبر انه دينه الذى ارتضاه وما ارتضاه فقد أوجبه وامتدحه ألا تري ان أنبياء الله ورسله رغبوا فيه اليه وسألوه اياه فقال ابراهيم واسماعيل (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) وقال يوسف (توفنى مسلماً والحقني بالصالحين) وقال (ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون) وقال (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا) وقال في موضع آخر (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق) الى قوله (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) فحكم الله بان من أسلم فقد اهتدى ومن آمن فقد اهتدى فسوي بينهما قال وقد ذكرنا تمام الحجة فى ان الاسلام هو الايمان وانهما لا يفترقان ولا يتباينان في موضع غير هذا فكرهنا اعادته فى هذا الموضع كراهة التطويل والتكرير غير انا سنذكر من الحجة مالم نذكره فى غير هذا الموضع ونبين خطأ تأويلهم والحجج التى احتجوا بها من الكتاب والاخبار على التفرقة بين الاسلام والايمان .. قلت مقصود محمد بن نصر المروزى رحمه الله ان المسلم الممدوح هو المؤمن الممدوح وان المذموم ناقص الاسلام والايمان وان كل مؤمن فهو مسلم وكل مسلم فلا بد ان يكون معه ايمان وهذا صحيح وهو متفق عليه ومقصوده أيضاً ان من أطلق عليه الاسلام أطلق عليه الايمان وهذا فيه نزاع لفظى ومقصوده ان مسمي أحدهما هو مسمى الآخر وهذا لا يعرف عن أحد من السلف وان قيل هما متلازمان فالمتلازمان لا يجب ان يكون مسمي هذا هو مسمى هذا وهو لم ينقل عن أحد من الصحابة

والتابعين لهم باحسان ولا أئمة الاسلام المشهورين انه قال مسمى الاسلام هو مسمى الايمان كما نصره بل ولا عرفت أنا أحداً قال ذلك من السلف ولكن المشهور عن الجماعة من السلف والخلف ان المؤمن المستحق لوعد الله هو المسلم المستحق لوعد الله فكل مسلم مؤمن وكل مؤمن مسلم وهذا متفق على معناه بين السلف والخلف بل وبين فرق الامة كلهم يقولون ان المؤمن الذى وعد بالجنة لا بد ان يكون مسلماً والمسلم الذى وعد بالجنة لابد ان يكون مؤمناً وكل من يدخل الجنة بلاعذاب من الاولين والآخرين فهو مؤمن مسلم .. ثم ان أهل السنة يقولون الذين يخرجون من النار ويدخلون الجنة معهم بعض ذلك وانما النزاع فى اطلاق الاسم فالنقول متواترة عن السلف بان الايمان قول وعمل ولم ينقل عنهم شيء من ذلك فى الاسلام ولكن لما كان الجمهور الاعظم يقولون ان الاسلام هو الدين كله ليس هو الكلمة فقط خلاف ظاهر مانقل عن الزهرى فكانوا يقولون ان الصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرذلك من الافعال المأمور بها هي من الاسلام كما هي من الايمان ظن انهم يجعلونها شيئاً واحداً وليس كذلك فان الايمان مستلزم للاسلام باتفاقهم وليس اذا كان الاسلام داخلا فيه يلزم ان يكون هو اياه وأما الاسلام فليس معه دليل على انه يستلزم الايمان ولكن هل يستلزم الايمان الواجب أو كال الايمان فيه نزاع وليس معه دليل على انه مستلزم للايمان ولكن الانبياء الذين وصفهم الله بالاسلام كلهم كانوا مؤمنين وقد وصفهم الله بالايمان ولو لم يذكر ذلك عنهم فنحن نعلم قطعا ان الانبياء كلهم مؤمنون وكذلك السابقون الاولون كانوا مسلمين مؤمنين ولو قدر ان الاسلام يستلزم الايمان الواجب فغاية مايقال انهما متلازمان فكل مسلم مؤمن وكل مؤمن مسلم وهذا صحيح ان أريد ان كل مسلم يدخل الجنة معه الايمان الواجب وهو متفق عليه اذا أريد ان كل مسلم يثاب على عبادته فلا بد أن يكون معه أصل الايمان فما من مسلم الا وهو مؤمن وان لم يكن هو الايمان الذي نفاه النبي صلى الله عليه وسلم عمن لا يحب لاخيه مايحب لنفسه وعمن يفعل الكبائر وعن الاعراب وغيرهم اذا قيل ان الاسلام والايمان التام متلازمان لم يلزم أن يكون أحدهما هو الآخر كالروح والبدن فلا يوجد عندنا روح الا مع البدن ولا يوجد بدن حى الا مع الروح وليس أحدهما الآخر فالايمان كالروح فانه قائم بالروح ومتصل بالبدن والاسلام كالبدن ولا يكون البدن حيا الا مع الروح بمعنى انهما متلازمان لان مسمي أحدهما هو مسمى الآخر واسلام المنافقين كبدن الميت جسد بلا روح فما من بدن حي الا وفيه روح ولكن الارواح متنوعة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف وليس كل من صلى ببدنه يكون قلبه منورا بذكر الله والخشوع وفهم القرآن وان كانت صلاته يثاب عليها ويسقط عنه الفرض فى أحكام الدنيا فهكذا الاسلام الظاهر بمنزلة الصلاة الظاهرة والايمان بمنزلة مايكون فى القلب حين الصلاة من المعرفة بالله والخشوع وتدبر القرآن فكل من خشع قلبه خشعت جوارحه ولاينعكس ولهذا قيل اياكم وخشوع النفاق وهوأن يكون الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع فاذا صلح القلب صلح الجسد كله وليس اذا كان الجسد في عبادة يكون القلب قائما بحقائقها والناس فى الايمان والاسلام على ثلاث مراتب ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات فالمسلم

ظاهراً وباطناً اذا كان ظالماً لنفسه فلا بد أن يكون معه ايمان ولكن لم يأت بالواجب ولاينعكس وكذلك في الآخر وسيأتي ان شاء الله والآيات التي احتج بها محمد بن نصر تدل على وجوب الاسلام وانه دين الله وان الله يحبه ويرضاه وانه ليس له دين غيره وهذا كله حق لكن ليس في هذا مايدل على انه هو الايمان بل ولا يدل على ان بمجرد الاسلام يكون الرجل من أهل الجنة كما ذكره في حجة القول الاول وان الله وعد المؤمنين بالجنة في غير آية ولم يذكر هذا الوعد باسم الاسلام حينئذ فمدحه وايجابه ومحبة الله له تدل على دخوله في الايمان وانه بعض منه وهذا متفق عليه بين أهل السنة كلهم يقولون كل مؤمن مسلم وكل من أتى بالايمان الواجب فقد أتى بالاسلام الواجب لكن النزاع في العكس وهذا كما ان الصلاة يحبها الله ويأمر بها ويوجبها ويثني عليها وعلى أهلها في غير موضع ثم لم يدل ذلك على ان مسمي الصلاة مسمي الايمان بل الصلاة تدخل في الايمان فكل مؤمن مصل ولايلزم أن يكون كل من صلى وأتي الكبائر مؤمناً وجميع ماذكره من الحجة عن النبي صلي الله عليه وسلم فان فيها التفريق بين مسمى الايمان والاسلام اذا ذكرا جميعاً كما في حديث جبرائيل وغيره وفيها أيضاً ان اسم الايمان اذا أطلق دخل فيه الاسلام قال أبو عبد الله بن حامد في كتابه المصنف في أصول الدين قدذكرنا ان الايمان قول وعمل فأما الاسلام فكلام أحمد يحتمل روايتين أحدهما انه كالايمان والثانية انه قول بلا عمل وهو نصه في رواية اسماعيل بن سعيد قال والصحيح ان المذهب رواية واحدة انه قول وعمل ويحتمل قوله ان الاسلام قول يريد به انه لا يجب فيه مايجب في الايمان من العمل المشروط وفيه لان الصلاة ليست من شرطه اذ النص عنه انه لا يكفر بتركه الصلاة قال وقد قضينا ان الاسلام والايمان اسمان لمعنيين وذكرنا اختلاف الفقهاء وقد ذكر قبل ذلك ان الاسلام والايمان اسمان لمعنيين مختلفين وبه قال مالك وشريك وحماد بن زيد بالتفرقة بين الاسلام والايمان قال وقال أصحاب الشافعي وأصحاب أبي حنيفة انهما اسمان معناهما واحد قال ويفيد هذا ان الايمان قد تنتفي عنه تسميته مع بقاء الاسلام عليه وهو باتيان الكبائر التي ذكرت في الخبر فيخرج عن تسمية الايمان الا انه مسلم فاذا تاب من ذلك عاد الى ماكان عليه من الايمان ولا تنتفي عنه تسمية الايمان بارتكاب الصغائر من الذنوب بل الاسم باق عليه ثم ذكر أدلة ذلك ولكن ما ذكره فيه أدلة كثيرة على من يقول الاسلام مجرد الكلمة فان الادلة الكثيرة تدل على ان الاعمال من الاسلام بل النصوص كلها تدل على ذلك فمن قال ان الاعمال الظاهرة المأمور بها ليست من الاسلام فقوله باطل بخلاف التصديق الذي في القلب فان هذا ليس في النصوص مايدل على انه من الاسلام بل هو الايمان وانما الاسلام الدين كما فسره النبي صلى الله عليه وسلم بأن يسلم وجهه وقلبه لله فاخلاص الدين لله اسلام وهذا غير التصديق ذاك من جنس عمل القلب وهذا من جنس علم القلب وأحمد بن حنبل وان كان قدقال في هذا الموضع ان الاسلام هو الكلمة فقد قال في موضع آخر ان الاعمال من الاسلام وهو اتبع هنا الزهري رحمه الله فان كان مراد من قال ذلك انه بالكلمة يدخل في الاسلام ولم يأت بتمام الاسلام فهذا قريب وان كان مراده انه أتى بجميع الاسلام فهذا غلط قطعاً بل قد أنكر أحمد هذا الجواب وهو قول من قال يطلق عليه الاسلام

وان لم يعمل متابعة لحديث جبرائيل فكان ينبغى أن يذكر قول أحمد جميعه .. قال اسماعيل بن سعيد سألت أحمد عن الاسلام والايمان فقال الايمان قول وعمل والاسلام الاقرار وقال وسألت أحمد عمن قال فى الذى قال جبرائيل للنبي صلى الله عليه وسلم اذ سأله عن الاسلام فاذا فعلت ذلك فأنا مسلم فقال نعم فقال قائل وان لم يفعل الذي قال جبرائيل للنبى صلي الله عليه وسلم فهو مسلم أيضاً فقال هذا معاند للحديث فقد جعل أحمد من جعله مسلما اذا لم يأت بالخمس معانداً للحديث مع قوله ان الاسلام الاقرار فدل ذلك على ان ذاك أول الدخول فى الاسلام وانه لا يكون قائماً بالاسلام الواجب حتى يأتى بالخمس واطلاق الاسم مشروط بها فانه ذم من لم يتبع حديث جبرائيل . وأيضاً فهو في أكثر أجوبته يكفر من لم يأت بالصلاة بل وبغيرها من المبانى والكافر لا يكون مسلما باتفاق المسلمين فعلم أنه لم يرد أن الاسلام هو مجرد القول بلا عمل وان قدر أنه أراد ذلك فهذا يكون انه لا يكفر بترك شئ من المبانى الاربعة .. وأكثر الروايات عنه بخلاف ذلك والذين لا يكفرون من ترك هذه المبانى يجعلونها من الاسلام كالشافعي ومالك وأبى حنيفة وغيرهم فكيف لا يجعلها احمد من الاسلام وقوله فى دخولها في الاسلام أقوى من قول غيره وقد روى عنه أنه جعل حديث سعد معارضاً لحديث عمر ورجح حديث سعد .. قال الحسن بن علي سألت أحمد بن حنبل عن الايمان أو كذا والاسلام قال جاء حديث عمر هذا وحديث سعد أحب إلي كأنه فهم ان حديث عمر يدل علي أن الاعمال هي مسمى الاسلام فيكون مسماه أفضل وحديث سعد يدل على ان مسمى الايمان أفضل ولكن حديث عمر لم يذكر الاسلام الا الاعمال الظاهرة فقط وهذه لا تكون ايمانا الا مع الايمان الذي فى القلب بالله وملائكته وكتبه ورسله فيكون حينئذ بعض الايمان فيكون مسمى الايمان أفضل كما دل عليه حديث سعد فلا منافاة بين الحديثين .. وأما تفريق أحمد بين الاسلام والايمان فكان يقول تارة وتارة يحكي الخلاف ولا يجزم به وكان اذا فرق بينهما تارة يقول الاسلام الكلمة وتارة لا يقول ذلك وكذلك التكفير بترك المبانى كان تارة يكفر بها حتى يغضب وتارة لا يكفر بها .. قال الميموني قلت ياأبا عبد الله تفرق بين الاسلام والايمان قال نعم قلت بأى شئ تحتج قال عامة الاحاديث تدل على هذا ثم قال لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن وقال الله تعالى (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) قال وحماد بن زيد يفرق بين الاسلام والايمان قال وحدثنا أبو سلمة الخزاعي قال قال مالك وشريك وذكر قولهم وقول حماد بن زيد فرق بين الاسلام والايمان قال أحمد قال لى رجل لو لم يجئنا في الايمان الا هذا لكان حسناً . قلت لابي عبد الله فتذهب الي ظاهر الكتاب مع السنن قال نعم قلت فاذا كانت المرجئة يقولون ان الاسلام هو القول قال هم يصيرون هذا كله واحداً ويجعلونه مسلما ومؤمناً شيئاً واحداً على ايمان جبرائيل ومستكمل الايمان قلت فمن ههنا حجتنا عليهم قال نعم فقد ذكر عنه الفرق مطلقاً واحتجاجه بالنصوص وقال صالح بن أحمد سئل أبى عن الاسلام والايمان قال قال ابن أبى ذئب الاسلام القول والايمان العمل قيل له ما تقول أنت قال الاسلام غير الايمان وذكر حديث سعد وقول النبى صلي الله عليه وسلم فهو فى هذا الحديث لم يختر

قول من قال الاسلام القول بل أجاب بأن الاسلام غير الايمان كما دل عليه الحديث الصحيح مع القرآن وقال حنبل حدثنا أبو عبد الله بحديث بريدة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم اذا خرجوا الى المقابر أن قائلهم يقول السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وانا ان شاء الله بكم لا حقون الحديث قال وسمعت أبا عبد الله يقول فى هذا الحديث حجة على من قال الايمان قول فمن قال انا مؤمن قوله من المؤمنين والمسلمين فبين المؤمن من المسلم ورد على من قال انا مؤمن مستكمل الايمان وقوله وانا ان شاء الله بكم لاحقون وهو يعلم انه ميت يشيد قول من قال انا مؤمن ان شاء الله الاستثناء في هذا الموضع .. وقال أبو الحارث سألت أبا عبد الله قلت قوله لا يزنى الزانى حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن قال قد تأولوه فأما عطاء فقال يتنحي عنه الايمان وقال طاوس اذا فعل ذلك زال عنه الايمان .. وروى عن الحسن قال ان رجع راجعه الايمان وقد قيل يخرج من الايمان الي الاسلام ولا يخرج من الاسلام . وروي هذه المسألة صالح فان مسائل أبي الحارث يرويها صالح أيضاً وصالح سأل أباه عن هذه القصة قال فيها هكذا يروى عن أبي جعفر قال لايزني الزانى حين يزنى وهو مؤمن قال يخرج من الايمان الى الاسلام فالايمان مقصور فى الاسلام فاذا زنا خرج من الايمان الى الاسلام قال الزهرى يعنى لما روى حديث سعد أو مسلم فنري ان الاسلام الكلمة والايمان العمل قال أحمد وهو حديث متأول والله أعلم فقد ذكر أقوال التابعين ولم يرجح شيئاً وذلك والله أعلم لأن جميع ما قالوه حق وهو يوافق على ذلك كله كما قد ذكر فى مواضع أخر أنه يخرج من الايمان الي الاسلام ونحو ذلك وأحمد وأمثاله من السلف لا يريدون بلفظ التأويل صرف اللفظ عن ظاهره بل التأويل عندهم مثل التفسير وبيان ما يؤل اليه اللفظ كقول عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم وبحمدك يتأول القرآن والا فما ذكره التابعون لا يخالف ظاهر الحديث بل يوافقه وقول أحمد يتأوله أي يفسر معناه وان كان ذلك يوافق ظاهره لئلا يظن مبتدع انمعناه انه صار كافراً لا إيمان معه بحال كما تقوله الخوارج فان الحديث لا يدل على هذا والذي نفى عن هؤلاء الايمان كان يجعلهم مسلمين لا يجعلهم مؤمنين . قال المروزي قيل لأبي عبد الله تقول نحن المؤمنون فقال نقول نحن المسلمون قلت لأبى عبد الله نقول إنّا مؤمنون قال ولكن نقول إنّا مسلمون وهذا لان من أصله الاستثناءفى الايمان لانه لايعلم انه مؤدٍّ لجميع ماأمره الله به فهو مثل قوله أنا برأنا تقي أنا ولي الله كما يذكر في موضعه وهذا لا يمنع ترك الاستثناء اذا أراد اني مصدق فانه يجزم بما فى قلبه من التصديق ولا يجزم بانه ممتثل لكل ما أمر به وكما يجزم بانه يحب الله ورسوله فانه يبغض الكفر ونحو ذلك مما يعلم انه في قلبه وكذلك اذا أراد بانه مؤمن في الظاهر فلا يمنع أن يجزم بما هو معلوم له وانما يكره ما كرهه سائر الغالية من قول المرجئة أو يقولون الايمان شئ متماثل فى جميع أهله مثل كون كل انسان له رأس فيقول أحدهم أنا مؤمن حقاً وأنا مؤمن عند الله ونحو ذلك كما يقول الانسان لي رأس حقاً وأنا لي رأس فى علم الله حقاً فمن جزم به على هذا الوجه فقد

أخرج الاعمال الباطنة والظاهرة عنه وهذا منكر من القول وزور عند الصحابة والتابعين ومن اتبعهم من سائر المسلمين وللناس فى مسئلة الاستثناء كلام يذكر فى موضعه والمقصود هنا ان هنا قولين متطرفين قول من يقول الاسلام مجرد الكلمة والاعمال الظاهرة ليست داخلة فى مسمى الاسم وقول من يقول مسمي الاسلام والايمان واحد وكلاهما قول ضعيف مخالف لحديث جبرائيل وسائر أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وهذا لما نصر محمد بن نصر المروزي القول الثاني لم يكن معه حجة على صحته ولكن احتج بما يبطل به القول الاول فاحتج بقوله فى قصة الاعراب (بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين) قال فدل ذلك على ان الاسلام هو الايمان فيقال بل يدل على نقيض ذلك لان القوم لم يقولوا أسلمنا بل قالوا آمنا والله أمرهم أن يقولوا أسلمنا ثم ذكر تسميتهم بالاسلام فقال (بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين) فى قولكم آمنا ولو كان الاسلام هو الايمان لم يحتج أن يقول ان كنتم صادقين فانهم صادقون في قولهم أسلمنا مع انهم لم يقولوا ولكن الله قال (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علىّ إسلامكم بل الله يمن عليكم) أي يمنون عليك ما فعلوه من الاسلام فالله تعالى سمى فعلهم إسلاماً وليس في ذلك ما يدل على انهم سموه اسلاماً وانما قالوا آمنا ثم أخبر ان المنة تقع بالهداية الى الايمان فأما الاسلام الذي لا إيمان معه فكان الناس يفعلونه خوفاً من السيف فلا منّة لهم بفعله واذا لم يمن الله عليهم بالايمان كان ذلك كاسلام المنافقين فلا يقبله الله منهم فأما اذا كانوا صادقين فى قولهم آمنا فالله هو المان عليهم بهذا الايمان وما يدخل فيه من الاسلام وهو سبحانه نفى عنهم الايمان أولا وهنا علق منة الله به على صدقهم فدل على جواز صدقهم وقد قيل انهم صاروا صادقين بعد ذلك ويقال المعلق بشرط لا يستلزم وجود ذلك الشرط ويقال لأنه كان معهم ايمان ما لكن ما هو الايمان الذي وصفه ثانياً بل معهم شعبة من الايمان قال محمد بن نصر وقال الله تعالى (وما أُمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدّين الآية) وقال (ان الدّين عند الله الاسلام) فسمى اقام الصلاة وإيتاء الزكاة ديناً قيّماً وسمي الدّين إسلاماً فمن لم يؤد الزكاة فقد ترك من الدّين القيم الذي أخبر الله انه عنده الدّين وهو الاسلام بعضاً قال وقد جاء معيناً هذه الطائفة التى فرقت بين الاسلام والايمان على أن الايمان قول وعمل وان الصلاة والزكاة من الايمان وقد سماها الله ديناً وأخبر ان الدّين عنده الاسلام فقد سمى الله الاسلام بما سمى به الايمان وسمي الايمان بما سمي به الاسلام وبمثل ذلك جاءت الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم فمن زعم ان الاسلام هو الاقرار وان العمل ليس منه فقد خالف الكتاب والسنة ولا فرق بينه وبين المرجئة إذ زعمت ان الايمان اقرار بلا عمل فيقال أما قوله ان الله جعل الصلاة والزكاة من الدّين والدّين عنده هو الاسلام فهذا كلام حسن موافق لحديث جبرائيل ورده على من جعل العمل خارجاً من الاسلام كلام حسن وأما قوله ان الله سمى الايمان بما سمى به الاسلام وسمى الاسلام بما سمي به الايمان فليس كذلك فان الله انما قال (ان الدّين عند الله الاسلام) ولم يقل قط ان الدين عند الله الايمان ولكن هذا الدّين من الايمان وليس اذا كان منه يكون هو إيّاه فان الايمان أصله معرفة القلب وتصديقه وقوله

والعمل تابع لهذا العلم والتصديق ملازم له ولا يكون العبد مؤمناً إلا بهما وأما الاسلام فهو عمل محض مع قول والعلم والتصديق ليس جزء مسماه لكن يلزمه جنس التصديق فلا يكون عمل إلا بعلم لكن لا يستلزم الايمان المفصل الذى بينه الله ورسوله كما قال تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) وقوله (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون). وسائر النصوص التى تنفى الايمان عمن لم يتصف بما ذكره فان كثيراً من المسلمين مسلم باطناً وظاهراً ومعه تصديق مجمل ولم يتصف بهذا الايمان والله تعالى قال (ومن يبتغ غيرالاسلام ديناً فلن يقبل منه) وقال(ورضيت لكم الاسلام ديناً) ولم يقل ومن يبتغ غير الاسلام علماًومعرفة وتصديقاً وايمانا ولا قال رضيت لكم الايمان تصديقاً وعلماً فان الاسلام من جنس الدين والعمل والطاعة والانقياد والخضوع فمن ابتغى غيرالاسلام ديناً فلن يقبل منه والايمان طمأنينة ويقين أصله علم وتصديق ومعرفة والدين تابع له يقال آمنت بالله وأسلمت لله قال موسى (يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) فلو كان مسماهما واحداً كان هذا تكريراً وكذلك قوله (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) كما قال (والصادقين والصابرين والخاشعين) فالمؤمن متصف بهذا كله لكن هذه الاسماء لا تطابق الايمان فى العموم والخصوص وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت واليك أنبت وبك خاصمت واليك حاكمت كما ثبت فى الصحيحين انه كان يقول ذلك اذا قام من الليل وثبت في صحيح مسلم وغيره انه كان يقول في سجوده اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت وفي الركوع يقول لك ركعت ولك أسلمت وبك آمنت ولما بين النبي صلى الله عليه وسلم خاصة كل منهما قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم ومعلوم ان السلامة من ظلم الانسان غير كونه مأمونا على الدم والمال فان هذا أعلى والمأمون يسلم الناس من ظلمه وليس من سلموا من ظلمه يكون مأمونا عندهم .. قال محمد بن نصر فمن زعم ان الاسلام هو الاقرار وان العمل ليس منه فقد خالف الكتاب والسنة وهذا صحيح فان النصوص كلها تدل على ان الاعمال من الاسلام قال ولا فرق بينه وبين المرجئة اذ زعمت ان الايمان اقرار بلا عمل فيقال بل بينهما فرق وذلك ان هؤلاء الذين قالوا من أهل السنة كالزهرى ومن وافقه يقولون الاعمال داخلة في الايمان والاسلام عندهم جزء من الايمان والايمان عندهم أكمل وهذا موافق للكتاب والسنة ويقولون الناس يتفاضلون فى الايمان وهذا موافق للكتاب والسنة والمرجئة يقولون الايمان بعض الاسلام والاسلام أفضل ويقولون ايمان الناس متساو فايمان الصحابة وأفجر الناس سواء ويقولون لايكون مع أحد بعض الايمان دون بعض وهذا مخالف للكتاب والسنة .. وقد أجاب أحمد عن هذا السؤال كما قاله في احدى روايتيه أن الاسلام هو الكلمة قال الزهرى فانه تارة يوافق من قال ذلك وتارة لا يوافقه بل يذكر ما دل عليه الكتاب والسنة من أن الاسلام غير الايمان فلما أجاب بقول الزهري قال له الميمونى قلت يا أبا عبد الله تفرق

بين الاسلام والايمان قال نعم قلت بأي شئ نحتج قال عامة الأحاديث تدل على هذا ثم قال لايزنى الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن وقال الله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) قلت له فتذهب الى ظاهر الكتاب مع السنن قال نعم قلت فاذا كانت المرجئة تقول ان الاسلام هو القول قال هم يصيرون هذا كله واحداً ويجعلونه مسلماً ومؤمناً شيئاً واحداً على إيمان جبرائيل ومستكمل الايمان قلت فمن ههنا حجتنا عليهم قال نعم فقد أجاب احمد بأنهم يجعلون الفاسق مؤمناً مستكمل الايمان على ايمان جبرائيل ٠٠ وأما قوله يجعلونه مسلماً ومؤمناً شيئاً واحداً فهذا قول من يقول الدين والايمان شئ واحد فالاسلام هو الدين فيجعلون الاسلام والايمان شيئاً واحداً وهذا القول قول المرجئة فيما يذكره كثير من الائمة كالشافعى وأبي عبيد وغيرهما ومع هؤلاء يناظرون فالمعروف من كلام المرجئة الفرق بين لفظ الدين والايمان والفرق بين الاسلام والايمان ويقولون الاسلام بعضه ايمان وبعضه أعمال والأعمال منها فرض ونفل ولكن كلام السلف كان فيما يظهر لهم ويصل اليهم من كلام أهل البدع كما تجدهم في الجهمية اما يحكون عنهم أن الله في كل مكان وهذا قول طائفة منهم كالنجارية وهو قول عوامهم وعبادهم أما جمهور نظارهم من الجهمية والمعتزلة والضرارية وغيرهم فانما يقولون هو لا داخل العالم ولا خارجه ولا هو فوق العالم وكذلك كلامهم في القدرية يحكون عنهم انكار العلم والكتاب وهؤلاء هم القدرية الذين قال ابن عمر فيهم اذا لقيت أولئك فأخبرهم اني بريء منهم وانهم براء مني وهم الذين كانوا يقولون ان الله أمر العباد ونهاهم وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه ولا من يدخل الجنة ممن يدخل النار حتى فعلوا ذلك فعلمه بعد مافعلوه ولهذا قالوا الأمر أنف أى مستأنف يقال روض أنف اذا كانت وافرة لم ترع قبل ذلك يعنى أنه مستأنف العمل السعيد والشقى ويبتدأ ذلك من غير أن يكون قد تقدم بذلك علم ولا كتاب فلا يكون العمل على ما قد قدر فيحتذى به حذو القدر بل هو أمر مستأنف مبتدأ والواحد من الناس اذا أراد أن يعمل عملا قدر فى نفسه ما يريد عمله ثم عمله كما قدر فى نفسه وربما (١) أظهر ما قدره فى الخارج بصورته ويسمي هذا التقدير الذى فى النفس خلقاً ومنه قول الشاعر

ولانت تفري ما خلقت وبعض الناس يخلق ثم لا يفرى

يقول اذا قدرت أمراً أمضيته وأنفذته بخلاف غيرك فانه عاجز عن امضاء ما يقدره وقال تعالى (انا كل شئ خلقناه بقدر) وهو سبحانه يعلم قبل أن يخلق الاشياء كلما سيكون وهو يخلق بمشيئته فهو يعلمه ويريده وعلمه وارادته قائم بنفسه وقد يتكلم به ويخبر به كما فى قوله (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وقال (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمي) وقال تعالي (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون) وقال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون) وهو سبحانه كتب

(١) هكذا بياض بالاصل

ما يقدره فيما يكتبه فيه كما قال (ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك في كتاب ان ذلك على الله يسير) قال ابن عباس إن الله خالق الخلق وعلم ما هم عاملون ثم قال لعلمه كن كتابا فكان كتاباً ثم أنزل تصديق ذلك في قوله (ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض ان ذلك في كتاب ان ذلك على الله يسير) وقال تعالى (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير)وقال (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون) وقال (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) وقال للملائكة (اني جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قل اني أعلم مالا تعلمون) فالملائكة قد علمت ما يفعل بنو آدم من الفساد وسفك الدماء فكيف لايعلمه الله سواء علموه باعلام الله فيكون هو أعلم بما علمهم إياه كما قاله أكثر المفسرين أو قالوه بالقياس على من كان قبلهم كما قاله طائفة منهم أو بغير ذلك والله أعلم بما سيكون من مخلوقاته الذي لا علم الا ما علمهم وما أوحاه الى أنبيائه وغيرهم مما سيكون مما هو أعلم به منهم فانهم لا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء .. وأيضاً فانه قال للملائكة اني جاعل قبل أن يأمرهم بالسجود لآدم وقبل أن يمتنع ابليس وقبل أن ينهى آدم عن أكله من الشجرة وقبل أن يأكل منها ويكون أكله سبب اهباطه الى الأرض فقد علم الله سبحانه أنه سيستخلفه مع أمره له ولابليس بما يعلم أنهما يخالفانه فيه ويكون الخلاف سبب أمره لهما بالاهباط والاستخلاف في الأرض .. وهذا يبين أنه علم ما سيكون منهما من مخالفة الامر فان ابليس امتنع من السجود لآدم وأبغضه فصار عدوه فوسوس له حتى يأكل من الشجرة فيذنب آدم أيضاً فانه قد تألى أنه ليغوينهم أجمعين وقد سأل الانظار الى يوم يبعثون فهو حريص على اغواء آدم وذريته بكل ما أمكنه لكن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه واجتباه ربه وهداه بنبوته فصار لبنى آدم سبيل الى نجاتهم وسعادتهم مما يوقعهم الشيطان فيه بالاغواء وهو التوبة قال تعالى [ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات)وقدر الله قد أحاط بهذا كله قبل أن يكون وابليس أصر على الذنب واحتج بالقدر وسأل الانظار ليهلك غيره وآدم تاب وأناب وقال هو وزوجته (ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) فتاب الله عليه فاجتباه وهداه وأنزله الى الأرض ليعمل فيها بطاعته فيرفع الله بذلك درجته ويكون دخوله الجنة بعد هذا أكمل مما كان فمن أذنب من أولاد آدم فاقتدى بأبيه آدم في التوبة كان سعيداً واذا تاب وآمن وعمل صالحاً بدل الله سيئاته حسنات وكان بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة كسائر أولياء الله المتقين ومن اتبع منهم ابليس فأصر على الذنب واحتج بالقدر وأراد أن يغوى غيره كان من الذين قال فيهم (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) .. والمقصود هنا ذكر القدر وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة وكان عرشه على الماء وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الله ولم يكن

شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والارض وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه انه أخبر ان الله قد علم أهل الجنة من أهل النار وما يعمله العباد قبل أن يعملوه وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ان الله يبعث ملكا بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح فيه فيكتب أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد وهذه الاحاديث تأتي ان شاء الله في مواضعها فهذا القدر هو الذي أنكره القدرية الذين كانوا في أواخر زمن الصحابة وقد روى ان أول من ابتدعه بالعراق رجل من أهل البصرة يقال له سيسويه من أبناء المجوس وتلقاه عنه معبد الجهني ويقال أول ماحدث في الحجاز لما احترقت الكعبة فقال رجل احترقت بقدر الله تعالى فقال آخر لم يقدر الله هذا ولم يكن على عهد الخلفاء الراشدين أحد ينكر القدر فلما ابتدع هؤلاء التكذيب بالقدر رده عليهم من بقي من الصحابة كعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وواثلة بن الاسقع وكان أكثره بالبصرة والشام وقليل منه بالحجاز فأكثر كلام السلف في ذم هؤلاء القدرية ولهذا قال وكيع بن الجراح القدرية يقولون الأمر مستقبل وان الله لم يقدر الكتابة والأعمال والمرجئة يقولون القول يجزى من العمل والجهمية يقولون المعرفة تجزي من القول والعمل قال وكيع وهو كله كفر رواه ابن (١) ولكن لما اشتهر الكلام في القدر ودخل فيه كثير من أهل النظر والعبادة صار جمهور القدرية يقرون بتقدم العلم وانما ينكرون عموم المشيئة والخلق وعن عمرو بن عبيد في انكار الكتاب المتقدم روايتان وقول أولئك كفرهم عليه مالك والشافعي وأحمد وغيرهم وأما هؤلاء فهم مبتدعون ضالون لكنهم ليسوا بمنزلة أولئك وفي هؤلاء خلق كثير من العلماء والعباد كتب عنهم العلم وأخرج البخاري ومسلم لجماعة منهم لكن من كان داعية اليه لم يخرجوا له وهذا مذهب فقهاء أهل الحديث كأحمد وغيره ان من كان داعية الي بدعة فانه يستحق العقوبة لدفع ضرره عن الناس وان كان في الباطن مجتهداً وأقل عقوبته أن يهجر فلا يكون له مرتبة في الدين لا يؤخذ عنه العلم ولا يستقضى ولا تقبل شهادته ونحو ذلك ومذهب مالك قريب من هذا ولهذا لم يخرج أهل الصحيح لمن كان داعية ولكن رووا هم وسائر أهل العلم عن كثير ممن كان يرى في الباطن رأى القدرية والمرجئة والخوارج والشيعة وقال أحمد لو تركنا الرواية عن القدرية لتركنا أكثر أهل البصرة وهذا لان مسئلة خلق أفعال العباد وارادة الكائنات مسئلة مشكلة وكما ان القدرية من المعتزلة وغيرهم أخطؤا فيها فقد أخطأ فيها كثير ممن رد عليهم أو أكثرهم فانهم سلكوا في الرد عليهم مسلك جهم بن صفوان وأتباعه فنفوا حكمة الله في خلقه وأمره ونفوا رحمته بعباده ونفوا ماجعله من الأسباب خلقاً وأمراً وجحدوا من الحقائق الموجودة في مخلوقاته وشرائعه ماصار ذلك سبباً لنفور أكثر العقلاء الذين فهموا قولهم عما يظنونه السنة إذ كانوا يزعمون ان قول أهل السنة في القدر هو القول الذي ابتدعه جهم وهذا لبسطه موضع آخر وانما المقصود هنا ان السلف في ردهم على المرجئة والجهمية والقدرية وغيرهم يردون من أقوالهم ما يبلغهم عنهم وما سمعوه من بعضهم وقد يكون ذلك قول طائفة منهم وقد

(١) هكذا بياض بالاصل

يكون نقلا مغيراً فلهذا ردوا على المرجئة الذين يجعلون الدين والايمان واحداً ويقولون هو القول وأيضاً فلم يكن حدث فى زمنهم من المرجئة من يقول الايمان هو مجرد القول بلا تصديق ولا معرفة فى القلب فان هذا انما أحدثه ابن كرام وهذا هو الذي انفرد به ابن كرام وأما سائر ما قاله فأقوال قيلت قبله ولهذا لم يذكر الأشعري ولا غيره ممن يحكي مقالات الناس عنه قولا انفرد به الا هذا وأما سائر أقواله فيحكونها عن ناس قبلهم ولا يذكرونه ولم يكن ابن كرام فى زمن أحمد بن حنبل وغيره من الأئمة فلهذا يحكون اجماع الناس على خلاف هذا القول كما ذكر ذلك أبو عبد الله أحمد بن حنبل وأبو ثور وغيرهما وكان قول المرجئة قبله ان الايمان قول باللسان وتصديق بالقلب وقول جهم انه تصديق القلب فلما قال ابن كرام انه مجرد قول اللسان صارت أقوال المرجئة ثلاثة لكن أحمد كان أعلم بمقالات الناس من غيره فكان يعرف قول الجهمية في الايمان وأما أبو ثور فلم يكن يعرفه ولا يعرف الا مرجئة الفقهاء فلهذا حكي الاجماع على خلاف قول الجهمية والكرامية قال أبو ثور في رده على المرجئة كما روى ذلك أبو القاسم الطبرى اللالكائى وغيره عن ادريس بن عبد الكريم قال سأل رجل من أهل خراسان أبا ثور عن الايمان وما هو أيزيد وينقص وقول هو أو قول وعمل أو تصديق وعمل فأجابه أبو ثور بهذا فقال سألت رحمك الله وعفا عنا وعنك عن الايمان ما هو يزيد وينقص وقول هو أو قول وعمل أو تصديق وعمل وأخبرك بقول الطوائف واختلافهم اعلم يرحمنا الله وإياك ان الايمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح وذلك انه ليس بين أهل العلم خلاف فى رجل لو قال أشهد أن الله عز وجل واحد وان ماجاءت به الرسل حق وأقر بجميع الشرائع ثم قال ما عقد قلبي على شئ من هذا ولا أصدق به انه ليس بمسلم ولو قال المسيح هو الله وجحد أمر الاسلام ثم قال لم يعقد قلبي على شئ من ذلك انه كافر باظهار ذلك وليس بمؤمن فلما لم يكن بالاقرار اذا لم يكن معه التصديق مؤمناً ولا بالتصديق اذا لم يكن معه الاقرار مؤمناً حتى يكون مصدقاً بقلبه مقراً بلسانه فاذا كان تصديقاً بالقلب وإقراراً باللسان كان عندهم مؤمناً وعند بعضهم لا يكون مؤمناً حتى يكون مع التصديق عمل فيكون بهذه الأشياء اذا اجتمعت مؤمناً فلما نفوا أن يكون الايمان بشئ واحد وقالوا يكون بشيئين فى قول بعضهم وثلاثة أشياء في قول غيرهم لم يكن مؤمناً الا بما أجمعوا عليه من هذه الثلاثة الأشياء وذلك انه اذا جاء بهذه الثلاثة الأشياء فكلهم يشهد انه مؤمن فقلنا بما أجمعوا عليه من التصديق بالقلب والاقرار باللسان والعمل بالجوارح فأما الطائفة التي ذهبت الى ان العمل ليس من الايمان فيقال لهم ماذا أراد الله من العباد اذ قال لهم أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة الاقرار بذلك أو الاقرار والعمل فان قالت ان الله أراد الاقرار ولم يرد العمل فقد كفرت عند أهل العلم من قال ان الله لم يرد من العباد أن يصلوا ولا يؤتوا الزكاة وان قالت أراد منهم الاقرار والعمل قيل فاذا كان أراد منهم الأمرين جميعاً لم زعمتم انه يكون مؤمناً باحدهما دون الآخر وقد أرادهما جميعاً أرأيتم لو أن رجلا قال اعمل جميع ما أمر به الله ولا أقر به أيكون مؤمناً فان قالوا لا قيل لهم فان قال أقر بجميع ما أمر الله به ولا أعمل به أيكون مؤمناً فان قالوا نعم قيل ما الفرق فقد

زعمتم ان الله أراد الأمرين جميعاً فان جاز أن يكون بأحدهما مؤمناً اذا ترك الآخر جاز أن يكون بالآخر اذا عمل به ولم يقر مؤمناً لا فرق بين ذلك فان احتج فقال لو أن رجلا أسلم فأقر بجميع ماجاء به النبي صلى الله عليه وسلم أيكون مؤمناً بهذا الاقرار قبل أن يجيء وقت عمل قيل له انما يطلق له الاسم بتصديقه ان العمل عليه بقوله أن يعمله فى وقته اذا جاء وليس عليه فى هذا الوقت الاقرار بجميع ما يكون به مؤمناً ولو قال أقر ولا أعمل لم يطلق عليه اسم الايمان قلت يعنى الامام أبو ثور رحمه الله انه لا يكون مؤمناً الا اذا التزم بالعمل مع الاقرار والا فلو أقر ولم يلتزم العمل لم يكن مؤمناً وهذا الاحتجاج الذى ذكره أبو ثور هو دليل على وجوب الأمرين الاقرار والعمل وهو يدل على أن كلا منهما من الدين وانه لا يكون مطيعاً لله ولا مستحقاً للثواب ولا ممدوحاً عند الله ورسوله الا بالأمرين جميعاً وهو حجة على من يجعل الأعمال خارجة عن الدين والايمان جميعاً وأما من يقول انها من الدين ويقول ان الفاسق مؤمن حيث أخذ ببعض الدين وهو الايمان عندهم وترك بعضه فهذا يحتج عليه بشئ آخر لكن أبو ثور وغيره من علماء السنة عامة احتجاجهم مع هذا الصنف وأحمد كان أوسع علماً بالأقوال والحجج من أبي ثور ولهذا انما حكى الاجماع على خلاف قول الكرامية ثم انه نوزع في النطق على عادته ولم يجزم بنفي الخلاف لكن قال لا أحسب أحداً يقول هذا وهذا فى رسالته الى أبى عبدالرحيم الجوزجاني ذكرها الخلال فى كتاب السنة وهو أجمع كتاب يذكر فيه أقوال أحمد فى مسائل الأصول الدينية وان كان له أقوال زائدة على ما فيه كما ان كتابه فى العلم أجمع كتاب يذكر فيه أقوال أحمد في الأصول الفقهية قال المروزى رأيت أبا عبد الرحيم الجوزجانى عند أبى عبد الله وقد كان ذكره أبو عبد الله فقال كان أبوه مرجئاً أو قال صاحب رأى وأما أبو عبد الرحيم فأثنى عليه وقد كان كتب الى أبي عبد الله من خراسان يسأله عن الايمان وذكر الرسالة من طريقين عن أبى عبد الرحيم وجواب أحمد بسم الله الرحمن الرحيم أحسن الله الينا واليك فى الأمور كلها وسلمنا واياك من كل شر برحمته أتانى كتابك تذكر فيه ما تذكر من احتجاج من احتج من المرجئة واعلم رحمك الله ان الخصومة فى الدين ليس من طريق أهل السنة وان تأويل من تأول القرآن بلا سنة تدل على معنى ما أراد الله منه أو أثر عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرف ذلك بما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه فهم شاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم وشهدوا تنزيله وما قصه الله له فى القرآن وما عنى به وما أراد به أخاص هو أم عام فأما من تأوله على ظاهره بلا دلالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من الصحابة فهذا تأويل أهل البدع لان الآية قد تكون خاصة ويكون حكمها حكما عاماً ويكون ظاهرها على العموم وانما قصدت لشئ بعينه ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو المعبر عن كتاب الله وما أراد وأصحابه أعلم بذلك منا لمشاهدتهم الأمر وما أريد بذلك فقد تكون الآية خاصة أي معناها مثل قوله تعالى ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ﴾ وظاهرها على العموم أي من وقع عليه اسم ولد فله ما فرض الله فجاءت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يرث مسلم كافراً وروى عن النبي

صلى الله عليه وسلم وليس بالثبت الا انه عن أصحابه انهم لم يورثوا قاتلا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المعبر عن الكتاب ان الآية انما قصدت للمسلم لا للكافر ومن حملها على ظاهرها لزمه أن يورث من وقع عليه اسم الولد كافراً كان أو قاتلا وكذلك أحكام الوارث من الأبوين وغير ذلك مع آى كثير يطول بها الكتاب وانما استعملت الأمة السنة مع النبي صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه الا من دفع ذلك من أهل البدع والخوارج وما يشبههم فقد رأيت الى ما خرجوا قلت لفظ المجمل والمطلق والعام كان في اصطلاح الائمة كالشافعى وأحمد وأبى عبيد واسحاق وغيرهم سواء لايريدون بالمجمل مالايفهم منه معنى كما فسره به بعض المتأخرين وأخطأ فى ذلك بل المجمل مالا يكفي وحده فى العمل به وان كان ظاهره حقاً كما في قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فهذه الآية ظاهرها ومعناها مفهوم ليست مما لا يفهم المراد به بل نفس مادلت عليه لا يكفى وحده فى العمل فان المأمور به صدقة تكون مطهرة مزكية لهم وهذا انما يعرف ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا قال أحمد يحذر المتكلم فى الفقه هذين الأصلين المجمل والقياس وقال أكثر مايخطئ الناس من جهة التأويل والقياس يريد بذلك أن لا يحكم بما يدل عليه العام والمطلق قبل النظر فيما يخصه ويقيده ولا يعمل بالقياس قبل النظر في دلالة النصوص هل تدفعه فان أكثر خطأ الناس تمسكهم بما يظنونه من دلالة اللفظ والقياس فالأمور الظنية لا يعمل بها حتى يبحث عن المعارض بحيث يطمئن القلب اليه وإلا أخطأ من لم يفعل ذلك وهذا هو الواقع فى المتمسكين بالظواهر والأقيسة ولهذا جعل الاحتجاج بالظواهر مع الاعراض عن تفسير النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه طريق أهل البدع وله فى ذلك مصنف كبير وكذلك التمسك بالأقيسة مع الاعراض عن النصوص والآثار طريق أهل البدع ولهذا كان كل قول ابتدعه هؤلاء وهؤلاء قولا فاسداً وانما الصواب من أقوالهم ما وافقوا فيه السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان وقوله تعالى (يوصيكم الله فى أولادكم) سماه عاماً وهو مطلق فى الأحوال يعمها على طريق البدل كما يعم قوله (فتحرير رقبة) جميع الرقاب لا يعمها كما يعم لفظ الولد الأولاد ومن أخذ بهذا لم يأخذ بما دل عليه ظاهر لفظ القرآن بل أخذ بما ظهر له مما سكت عنه القرآن فكان الظهور لسكوت القرآن عنه لا لدلالة القرآن على أنه ظاهر فكانوا متمسكين بظاهر من القول لابظاهر القول وعمدتهم عدم العلم بالنصوص التى فيها علم بما قيد والا تكمل مابينه القرآن وأظهره فهوحق بخلاف مايظهر للانسان لمعنى آخر غير نفس القرآن يسمي ظاهر القرآن كاستدلالات أهل البدع من المرجئة والجهمية والخوارج والشيعة .. قال أحمد وأما من زعم ان الايمان الاقرار فما تقول فى المعرفة هل يحتاج الى المعرفة مع الاقرار وهل يحتاج أن يكون مصدقا بما عرف فان زعم انه يحتاج الى المعرفة مع الاقرار فقد زعم انه من شيئين وان زعم انه يحتاج ان يكون مقراً ومصدقا بما عرف فهو من ثلاثة أشياء وان جحد وقال لا يحتاج الى المعرفة والتصديق فقد قال قولا عظيما ولا أحسب أحداً يدفع المعرفة والتصديق وكذلك العمل مع هذه الاشياء .. قلت أحمد وأبو ثور وغيرهما من الائمة كانوا قد عرفوا أصل قول المرجئة وهو ان الايمان لا يذهب بعضه ويبقى

بعضه فلا يكون الا شيئاً واحداً فلا يكون ذا عدد اثنين أو ثلاثة فانه اذا كان له عدد أمكن ذهاب بعضه وبقاء بعضه بل لا يكون الا شيئاً واحداً ولهذا قالت الجهمية انه شيء واحد في القلب وقالت الكرامية انه شيء واحد على اللسان كل ذلك فرارا من تبعض الايمان وتعدده فلهذا صاروا يناظرونهم بما يدل على انه ليس شيئاً واحدا كما قلتم فأبوثور احتج بما اجتمع عليه فقهاء المرجئة من انه تصديق وعمل ولم يكن بلغه قول متكلميهم وجهميتهم أو لم يعد خلافهم خلافا وأحمد ذكر انه لابد من المعرفة والتصديق مع الاقرار وقال ان من جحد المعرفة والتصديق فقد قال قولا عظيما فان فساد هذا القول معلوم من دين الاسلام ولهذا لم يذهب اليه أحد قبل الكرامية مع ان الكرامية لاتنكر وجوب المعرفة والتصديق ولكن تقول لا يدخل في اسم الايمان حذرا من تبعضه وتعدده لانهم رأوا انه لا يمكن أن يذهب بعضه ويبقى بعضه بل ذلك يقتضى أن يجتمع فى القلب ايمان وكفر واعتقدوا الاجماع على نفى ذلك كما ذكر هذا الاجماع الاشعرى وغيره وهذه الشبهة التى أوقعتهم مع علم كثير منهم وعبادته وحسن اسلامه وايمانه ولهذا دخل فى ارجاء الفقهاء جماعة هم عند الامة أهل علم ودين ولهذا لم يكفر أحد من السلف أحدا من مرجئة الفقهاء بل جعلوا هذا من بدع الاقوال والافعال لا من بدع العقائد فان كثيراً من النزاع فيها لفظي لكن اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب فليس لاحد أن يقول بخلاف قول الله ورسوله لا سيما وقد صار ذلك ذريعة الى بدع أهل الكلام من أهل الارجاء وغيرهم الي ظهور الفسق فصار ذلك الخطأ اليسير فى اللفظ سبباً لخطأ عظيم فى العقائد والاعمال فلهذا عظم القول فى ذم الارجاء حتى قال ابراهيم النخعي لفتنتهم يعنى المرجئة أخوف على هذه الامة من فتنة الازارقة وقال الزهرى ما ابتدعت فى الاسلام بدعة أضر على أهله من الارجاء وقال الاوزاعى كان يحيي بن أبي كثير وقتادة يقولان ليس شيء من الاهواء أخوف عندهم من الارجاء وقال شريك القاضى وذكر المرجئة فقال هم أخبث قوم حسبك بالرافضة خبثاً ولكن المرجئة يكذبون على الله وقال سفيان الثورى تركت المرجئة الاسلام أرق من ثوب سابري وقال قتادة انما حدث الارجاء بعد فتنة فرقة ابن الاشعث وسئل ميمون بن مهران عن كلام المرجئة فقال أنا أكبر من ذلك وقال سعيد بن جبير لذر الهمداني ألا تستحي من رأى أنت أكبر منه وقال أيوب السختياني أنا أكبر من دين المرجئة ان أول من تكلم فى الارجاء رجل من أهل المدينة من بنى هاشم يقال له الحسن وقال زاذان أتينا الحسن بن محمد فقلنا ما هذا الكتاب الذى وضعت وكان هو الذى أخرج كتاب المرجئة فقال لى يا أباعمر لوددت اني كنت مت قبل أن أخرج هذا الكتاب أو أضع هذا الكتاب فان الخطأ في اسم الايمان ليس كالخطأ في اسم الحدث ولا كالخطأ فى غيره من الاسماء اذ كانت أحكام الدنيا والآخرة متعلقة باسم الايمان والاسلام والكفر والنفاق وأحمد رضى الله عنه فرق بين المعرفة التى في القلب وبين التصديق الذى فى القلب فان تصديق اللسان هو الاقرار وقد ذكر ثلاثة أشياء وهذا يحتمل شيئين يحتمل أن يفرق بين تصديق القلب ومعرفته وهذا قول ابن كلاب والقلانسي والاشعرى وأصحابه يفرقون بين

معرفة القلب وبين تصديق القلب فان تصديق القلب قوله وقول القلب عندهم ليس هو العلم بل نوعا آخر ولهذا قال أحمد هل يحتاج الي المعرفة مع الاقرار وهل يحتاج الى أن يكون مصدقا بما عرف فان زعم أنه يحتاج الى المعرفة مع الاقرار فقد زعم انه من شيئين وان زعم أنه يحتاج أن يكون مقراً ومصدقا بما عرف فهو من ثلاثة أشياء فان جحد وقال لا يحتاج الى المعرفة والتصديق فقد أتي عظيما ولا أحسب أمراً يدفع المعرفة والتصديق والذين قالوا الايمان هو الاقرار فالاقرار باللسان يتضمن التصديق باللسان والمرجئة لم تختلف ان الاقرار باللسان فيه التصديق فعلم انه أراد تصديق القلب ومعرفته مع الاقرار باللسان الا أن يقال أراد تصديق القلب واللسان جميعاً مع المعرفة والاقرار ومراده بالاقرار الالتزام لا التصديق كما قال تعالي ﴿ واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين ﴾ فالميثاق المأخوذ على أنهم يؤمنون به وينصرونه وقد أمروا بهذا وليس هذا الاقرار تصديقاً فان الله تعالي لم يخبرهم بخبر بل أوجب عليهم اذا جاءهم ذلك الرسول أن يؤمنوا به وينصروه فصدقوا بهذا الاقرار والتزموه فهذا هو اقرارهم والانسان قد يقر للرسول بمعنى انه يلتزم ما يأمر به مع غير معرفة ومن غير تصديق له بأنه رسول الله لكن لم يقل أحد من المرجئة ان هذا الاقرار يكون ايماناً بل لا بد عندهم من الاقرار الخبري وهو انه يقر له بانه رسول الله كما يقر المقر بما يقر به من الحقوق ولفظ الاقرار يتناول الالتزام والتصديق ولا بد منها وقد يراد بالاقرار مجرد التصديق بدون التزام الطاعة والمرجئة تارة يجعلون هذا هو الايمان وتارة يجعلون الايمان التصديق والالتزام معا هذا هو الاقرار الذى يقوله فقهاء المرجئة انه ايمان والا لو قال أنا أطيعه ولا أصدق أنه رسول الله أو أصدقه ولا التزم طاعته لم يكن مسلماً ولا مؤمناً عندهم واحمد قال لابد مع هذا الاقرار أن يكون مصدقا وأن يكون عارفاً وأن يكون مصدقاً بما عرف وفي رواية أخرى مصدقا بما أقر وهذا يقتضي أنه لا بد من تصديق باطن ويحتمل أن يكون لفظ التصديق عنده يتضمن القول والعمل جميعاً كما قد ذكرنا شواهده انه يقال صدق بالقول والعمل فيكون تصديق القلب عنده يتضمن انه مع معرفة قلبه أنه رسول الله قد خضع له وانقاد فصدقه بقول قلبه وعمل قلبه محبة وتعظيما والا مجرد معرفة قلبه أنه رسول الله مع الاعراض عن الانقياد له ولما جاء به اما حسداً واما كبراً واما لمحبة دينه الذي يخالفه واما لغير ذلك فلا يكون ايماناً ولا بد فى الايمان من علم القلب وعمله فأراد احمد بالتصديق انه مع المعرفة به صار القلب مصدقاً له تابعاً له محباً له معظما له فان هذا لا بد منه ومن دفع هذا عن أن يكون من الايمان فهو من جلس من دفع المعرفة من أن تكون من الايمان وهذا أشبه بأن يحمل عليه كلام احمد لان وجوب انقياد القلب مع معرفته ظاهر ثابت بدلائل الكتاب والسنة واجماع الأمة بل ذلك معلوم بالاضطرار من دين الاسلام ومن نازع من الجهمية فى أن انقياد القلب من الايمان فهو كمن

نازع من الكرامية فى أن معرفة القلب من الايمان فكان حمل كلام احمد على هذا هو المناسب لكلامه فى هذا المقام .. وأيضاً فان الفرق بين معرفة القلب وبين مجرد تصديق القلب الخالى عن الانقياد الذي يجعل قول القلب أمر دقيق وأكثر العقلاء ينكرونه وبتقدير صحته لا يجب على كل أحد أن يوجب شيئين لا يتصور الفرق بينهما وأكثر الناس لا يتصورون الفرق بين معرفة القلب وتصديقه ويقولون انما قاله ابن كلاب والاشعرى من الفرق كلام باطل لاحقيقة له وكثير من أصحابه اعترف بعدم الفرق وعمدتهم من الحجة انما هو خبر الكاذب قالوا ففى قلبه خبر بخلاف علمه فدل على الفرق فقال لهم الناس ذاك بتقدير خبر وعلم ليس هو علماً حقيقياً ولا خبراً حقيقياً ولما أثبتوه من قول القلب المخالف للعلم والارادة انما يعود الى تقدير علوم وارادات لا الى جنس آخر يخالفها .. ولهذا قالوا ان الانسان لايمكنه أن يقوم بقلبه خبر بخلاف علمه وانما يمكنه أن يقول ذلك بلسانه وأما ان يقوم بقلبه خبر بخلاف ما يعلمه فهذا غير ممكن وهذا مما استدلوا به على أن الرب تعالى لا يتصور قيام الكذب بذاته لانه بكل شئ عليم ويمتنع قيام معني يضاد العلم بذات العالم والخبر النفسانى الكاذب يضاد العلم فيقال لهم الخبر النفسانى لو كان خلافاً للعلم لجاز وجود العلم مع ضده كما يقولون مثل ذلك فى مواضع كثيرة وهي من أقوي الحجج التى يحتج بها القاضى ابو بكر وموافقوه فى مسئلة العقل وغيرها كالقاضي أبى يعلى وأبى محمد بن اللبان وأبى علىّ بن شاذان وأبي الطيب وأبى الوليد الباجي وأبي الخطاب وابن عقيل وغيرهم فيقولون العقل نوع من العلم فانه ليس بضد له فان لم يكن نوعاً منه كان خلافاً له ولو كان خلافاً لجاز وجوده مع ضد العقل وهذه الحجة وان كانت ضعيفة كما ضعفه الجمهور وأبو المعالي الجوينى ممن ضعفها فان ما كان مستلزماً لغيره لم يكن ضدًّا له اذ قد اجتمعا وليس هو من نوعه بل هو خلاف له على هذا الاصطلاح الذى يقسمون فيه كل اثنين الى أن يكونا مثلين أو خلافين أو ضدين فالملزوم كالارادة مع العلم أو كالعلم مع الحياة ونحو ذلك ليس ضدًّا ولا مثلا بل هو خلاف ومع هذا فلا يجوز وجوده مع ضد اللازم فان ضد اللازم ينافيه ووجود الملزوم بدون اللازم محال كوجود الارادة بدون العلم والعلم بدون الحياة فهذان خلافان عندهم ولا يجوز وجود أحدهما مع ضد الآخر كذلك العلم هو مستلزم للعقل فكل عالم عاقل والعقل شرط في العلم فليس مثلا له ولا ضدًّا ولا نوعاً منه ومع هذا لايجوز وجوده مع ضد العقل لكن هذه الحجة يقال لهم في العلم مع كلام النفس الذى هو الخبر فانه ليس ضدًّا ولا مثلا بل خلافاً فيجوز وجود العلم مع ضد الخبر الصادق وهو الكاذب فبطل تلك الحجة على امتناع الكذب النفسانى من العالم وبسط هذا له موضع آخر والمقصود هنا ان الانسان اذا رجع الي نفسه عسر عليه التفريق بين علمه بان الرسول صادق وبين تصديق قلبه تصديقاً مجرداً عن انقياد وغيره من أعمال القلب بانه صادق ثم احتج الامام أحمد على ان الأعمال من الايمان بحجج كثيرة فقال وقد سأل وفد عبد القيس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال شهادة أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول

الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا خمساً من المغنم فجعل ذلك كله من الايمان قال وقال النبي صلى الله عليه وسلم الحياء شعبة من الايمان وقال أكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقاً وقال ان البذاذة من الايمان وقال الايمان بضع وسبعون شعبة فأدناها اماطة الأذى عن الطريق وأرفعها قول لااله الا الله مع أشياء كثيرة منها أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان وما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في صفة المنافق ثلاث من كن فيه فهو منافق مع حجج كثيرة وما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في تارك الصلاة وعن أصحابه من بعده ثم ما وصف الله تعالى في كتابه من زيادة الايمان في غير موضع مثل قوله (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم) وقال (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايماناً) وقال (واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً) وقال تعالى (فمنكم من يقول أيكم زادته هذه ايماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً وهم يستبشرون) وقال (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) وقال تعالى (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وقال تعالى (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين) وقال (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) قال أحمد ويلزمه أن يقول هو مؤمن باقراره وان أقر بالزكاة في الجملة ولم يجد في كل مائتي درهم خمسة انه مؤمن فيلزمه أن يقول اذا أقر ثم شد الزنار في وسطه وصلى للصليب وأتى الكنائس والبيع وعمل الكبائر كلها الا انه في ذلك مقر بالله فيلزمه أن يكون عنده مؤمناً وهذه الأشياء من أشنع مايلزمهم قلت هذا الذى ذكره الامام أحمد من أحسن ما احتج الناس به عليهم جمع في ذلك جملا يقول غيره بعضها وهذا الالزام لا محيد لهم عنه ولهذا لما عرف متكلمهم مثل جهم ومن وافقه انه لازم التزموه وقالوا لو فعل من الأفعال الظاهرة لم يكن بذلك كافراً في الباطن لكن يكون دليلا على الكفر في أحكام الدنيا فاذا احتج عليهم بنصوص تقتضى انه يكون كافراً في الآخرة قالوا فهذه النصوص تدل على انه في الباطن ليس معه من معرفة الله شئ فانها عندهم شئ واحد فخالفوا صريح المعقول وصريح الشرع وهذا القول مع فساده عقلا وشرعاً ومع كونه عند التحقيق لا يثبت ايماناً فانهم جعلوا الايمان شيئاً واحداً لا حقيقة له كما قالت الجهمية ومن وافقهم مثل ذلك في وحدة الرب انه ذات بلا صفات وقالوا بان القرآن مخلوق وان الله لا يرى في الآخرة وما يقوله من وحدة الكلام وغيره من الصفات فقولهم في الرب وصفاته وكلامه والايمان به يرجع الى تعطيل محض وهذا قد وقع فيه طوائف كثيرة من المتأخرين المنتسبين الى السنة والفقه والحديث المتبعين للأئمة الأربعة المتعصبين للجهمية والمعتزلة بل وللمرجئة أيضاً لكن لعدم معرفتهم بالحقائق التي نشأت منها البدع يجمعون بين الضدين ولكن من رحمة الله بعباده المسلمين ان الأئمة الذين لهم في الأمة لسان صدق الأئمة الأربعة وغيرهم كمالك والثورى والأوزاعي والليث بن سعد وكالشافعي وأحمد واسحق وأبى عبيد وأبى حنيفة وأبي يوسف ومحمد كانوا ينكرون على أهل الكلام من الجهمية قولهم في القرآن

والايمان وصفات الرب وكانوا متفقين على ما كان عليه السلف من ان الله يرى فى الآخرة وان القرآن كلام الله غير مخلوق وان الايمان لابد فيه من تصديق القلب واللسان فلو شتم الله ورسوله كان كافراً باطناً وظاهراً عندهم كلهم ومن كان موافقاً لقول جهم في الايمان بسبب انتصار أبي الحسن لقوله في الايمان يبقى تارة يقول بقول السلف والائمة وتارة يقول بقول المتكلمين الموافقين لجهم حتى في مسئلة سب الله ورسوله رأيت طائفة من الحنبليين والشافعيين والمالكيين اذا تكلموا بكلام الائمة قالوا ان هذا كفر باطناً وظاهراً واذا تكلموا بكلام أولئك قالوا هذا كفر فى الظاهر وهو فى الباطن يجوز أن يكون مؤمناً تام الايمان فان الايمان عندهم لا يتبعض ولهذا لما عرف القاضي عياض هذا من قول بعض أصحابه أنكره ونصر قول مالك وأهل السنة وأحسن في ذلك وقد ذكرت بعض مايتعلق بهذا فى كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول وكذلك تجدهم فى مسائل الايمان يذكرون أقوال الائمة والسلف ويبحثون بحثاً يناسب قول الجهمية لان البحث أخذوه من كتب أهل الكلام الذين نصروا قول جهم في مسائل الايمان والرازي لما صنف مناقب الشافعي ذكر قوله فى الايمان وقول الشافعي قول الصحابة والتابعين وقد ذكر الشافعي انه اجماع من الصحابة والتابعين ومن لقيه استشكل قول الشافعي جدًّا لانه كان قد انعقد فى نفسه شبهة أهل البدع فى الايمان من الخوارج والمعتزلة والجهمية والكرامية وسائر المرجئة وهو ان الشيء المركب اذا زال بعض أجزائه لزم زواله كله لكن هو لم يذكر الا ظاهر شبههم والجواب عما ذكروه هو سهل فانه يسلم له ان الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت لكن لايلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء والشافعي مع الصحابة والتابعين وسائر السلف يقولون ان الذنب يقدح في كمال الايمان ولهذا نفى الشارع الايمان عن هؤلاء فذلك المجموع الذي هو الايمان لم يبق مجموعاً مع الذنوب لكن يقولون بقي بعضه اما أصله واما أكثره واما غير ذلك فيعود الكلام الى انه يذهب بعضه ويبقى بعضه ولهذا كانت المرجئة تنفر من لفظ النقص أعظم من نفورها من لفظ الزيادة لانه اذا نقص لزم ذهابه كله عندهم ان كان متبعضاً متعدداً عند من يقول بذلك وهم الخوارج والمعتزلة وأما الجهمية فهو واحد عندهم لايقبل التعدد فيثبتون واحداً لاحقيقة له كما قالوا مثل ذلك في وحدانية الرب ووحدانية صفاته عند من أثبتها منهم ومن العجب ان الأصل الذي أوقعهم فى هذا اعتقادهم انه لايجتمع فى الانسان بعض الايمان وبعض الكفر أو ماهو ايمان وما هو كفر واعتقدوا ان هذا متفق عليه بين المسلمين كما ذكر ذلك أبو الحسن وغيره فلأجل اعتقادهم هذا الاجماع وقعوا فيما هو مخالف للاجماع الحقيقى اجماع السلف الذى ذكره غير واحد من الائمة بل وصرح غير واحد منهم بكفر من قال بقول جهم فى الايمان ولهذا نظائر متعددة يقول الانسان قولا مخالفاً للنص والاجماع القديم حقيقة ويكون معتقداً انه متمسك بالنص والاجماع وهذا اذا كان مبلغ علمه واجتهاده فالله يثيبه على ما أطاع الله فيه من اجتهاده ويغفر له ما عجز عن معرفته من الصواب الباطن وهم لما توهموا ان الايمان الواجب على جميع الناس نوع واحد صار بعضهم يظن ان ذلك النوع من حيث هو لا يقبل التفاضل فقال لي مرة بعضهم الايمان من حيث

هو ايمان لا يقبل الزيادة والنقصان فقلت له قولك من حيث هو كمن يقول الانسان من حيث هو انسان والحيوان من حيث هو حيوان والوجود من حيث هو وجود والسواد من حيث هو سواد وأمثال ذلك لا يقبل الزيادة والنقصان فيثبت لهذه المسميات وجوداً مطلقاً مجرداً عن جميع القيود والصفات وهذا لاحقيقة له في الخارج وانما هو شيء يقدره الانسان في ذهنه كما يقدر موجوداً لا قديماً ولا حادثاً ولا قائماً بنفسه ولا بغيره ويقدر انساناً لا موجوداً ولا معدوماً ويقول الماهية من حيث هي هي لا توصف بوجود ولا عدم والماهية من حيث هي هي شيء يقدره الذهن وذلك موجود في الذهن لا في الخارج وأما تقدير شيء لا يكون في الذهن ولا في الخارج ممتنع وهذا التقدير لا يكون الا في الذهن كسائر تقدير الأُمور الممتنعة مثل تقدير صدور العالم عن صانعين ونحو ذلك فان هذه المقدرات في الذهن فهكذا تقدير ايمان لا يتصف به مؤمن بل هو مجرد عن كل قيد وتقدير انسان لا يكون موجوداً ولا معدوما بل ما ثم ايمان الا مع المؤمنين ولا ثم انسانية الا ما اتصف بها الانسان فكل انسان له انسانية تخصه وكل مؤمن له ايمان يخصه فانسانية زيد تشبه انسانية عمرو ليست هي هي واذا اشتركوا في نوع الانسانية فمعنى ذلك انهما يشتبهان فيما يوجد في الخارج ويشتركان في أمر كلي مطلق يكون في الذهن ٠ وكذلك اذا قيل ايمان زيد مثل ايمان عمرو فايمان كل واحد يخصه فلو قدر ان الايمان يتماثل لكان لكل مؤمن ايمان يخصه وذلك الايمان مختص معين ليس هو الايمان من حيث هو هو بل هو ايمان معين وذلك الايمان يقبل الزيادة والذين ينفون التفاضل في هذه الامور يتصورون في أنفسهم ايمانا مطلقاً أو انساناً مطلقاً أو وجوداً مطلقاً مجرداً عن جميع الصفات المعينة له ثم يظنون ان هذا هو الايمان الموجود في الناس وذلك لا يقبل التفاضل ولا يقبل في نفسه التعدد اذ هو تصور معين قائم في نفس متصوره ٠ ولهذا يظن كثير من هؤلاء ان الامور المشتركة في شيء واحد هي واحدة بالشخص والعين حتى انتهى الامر بطائفة من علمائهم علماً وعبادة الى ان جعلوا الوجود كذلك فتصوروا أن الموجودات مشتركة في مسمى الوجود وتصوروا هذا في أنفسهم فظنوه في الخارج كما هو في أنفسهم ثم ظنوا أنه الله فجعلوا الرب هو هذا الوجود الذى لا يوجد قط الا في نفس متصوره ولا يكون في الخارج وهكذا كثير من الفلاسفة تصوروا أعداداً مجردة وحقائق مجردة ويسمونها المثل الافلاطونية وزمانا مجرداً عن الحركة والمتحرك وبعداً مجرداً عن الاجسام وصفاتها ثم ظنوا وجود ذلك في الخارج وهؤلاء كلهم اشتبه عليهم ما في الاذهان بما في الاعيان وهؤلاء قد يجعلون الواحد اثنين والاثنين واحداً فتارة يجيئون الى الامور المتعددة المتفاضلة في الخارج فيجعلونها واحدة أو متماثلة وتارة يجيئون الي ما في الخارج من الحيوان والمكان والزمان فيجعلون الواحد اثنين والمتفلسفة والجهمية وقعوا في هذا وهذا فجاؤا الى صفات الرب التى هي انه عالم وقادر فجعلوا هذه الصفة هي عين الاخري وجعلوا الصفة هي الموصوفة ٠ وهكذا القائلون بان الايمان شيء واحد وانه متماثل في بنى آدم غلطوا في كونه واحدا وفى كونه متماثلا كما غلطوا في أمثال ذلك من مسائل التوحيد والصفات والقرآن ونحو ذلك فكان غلط جهم وأتباعه في الايمان كغلطهم في الرب الذي يؤمن به المؤمنون وفي كلامه

وصفاته سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيراً وكذلك السواد والبياض يقبل الاشتداد والضعف بل عامة الصفات التى يتصف بها الموصوف تقبل التفاضل ولهذا كان العقل يقبل التفاضل والايجاب والتحريم يقبل التفاضل فيكون ايجاب أقوى من ايجاب وتحريم أقوى من تحريم وكذلك المعرفة التى فى القلوب تقبل التفاضل على الصحيح عند أهل السنة وفي هذا كله نزاع فطائفة من المنتسبين الى السنة تنكر التفاضل فى هذا كله كما يختار ذلك القاضى أبو بكر وابن عقيل وغيرهما .. وقد حكى عن احمد فى التفاضل فى المعرفة روايتان وانكار التفاضل في هذه الصفات هى من جلس أصل قول المرجئة ولكن يقوله من يخالف المرجئة وهؤلاء يقولون التفاضل انما هو في الاعمال وأما الايمان الذي هو فى القلوب فلا يتفاضل وليس الامر كما قالوه بل جميع ذلك يتفاضل وقد يقولون ان أعمال القلوب تتفاضل بخلاف معارف القلب وليس الامر كذلك بل ايمان القلوب يتفاضل من جهة ما وجب على هذا ومن جهة ما وجب على هذا فلا يستوون فى الوجوب وأمة محمد وان وجب عليهم جميعهم الايمان بعد استقرار الشرع فوجوب الايمان بالشئ المعين موقوف على أن يبلغ العبد ان كان خبراً وعلى أن يحتاج الى العمل به ان كان أمراً وعلى العلم ان كان علماً والا فلا يجب على كل مسلم أن يعرف كل خبر وكل أمر فى الكتاب والسنة ويعرف معناه ويعلمه فان هذا لا يقدر عليه أحد فالوجوب مما يتنوع الناس فيه ثم قدرهم في اداء الواجب متفاوتة ثم نفس المعرفة تختلف بالاجمال والتفصيل والقوة والضعف ودوام الحضور ومع الغفلة فليست المفصلة المستحضرة الثابتة التي يثبت الله صاحبها بالقول الثابت كالمجملة التي غفل عنها واذا حصل له ما يريبه فيها وذكرها فى قلبه ثم رغب الى الله فى كشف الريب ثم أحوال القلوب وأعمالها مثل محبة الله ورسوله وخشية الله والتوكل عليه والصبر على حكمه والشكر له والانابة اليه واخلاص العمل له مما يتفاضل الناس فيها تفاضلا لا يعرف قدره الا الله عز وجل ومن أنكر تفاضلهم في هذا فهو اما جاهل لم يتصوره واما معاند .. قال الامام احمد فان زعموا أنهم لا يقبلون زيادة الايمان من أجل أنهم لا يدرون ما زيادته وانها غير محدودة فما يقولون فى أنبياء الله وكتبه ورسله هل يقرون بهم في الجملة ويزعمون انه من الايمان فاذا قالوا نعم قيل لهم هل تجدونهم وتعرفون عددهم أليس انما يصيرون فى ذلك الى الاقرار بهم فى الجملة ثم يكفون عن عددهم فكذلك زيادة الايمان وبين أحمد أن كونهم لم يعرفوا منتهى زيادته لا يمنعهم من الاقرار بها فى الجملة كما أنهم يؤمنون بالانبياء والكتب وهم لا يعرفون عدد الكتب والرسل وهذا الذي ذكره أحمد وذكره محمد بن نصر وغيرهما يبين انهم لم يعلموا عدد الكتب والرسل وان حديث أبي ذر في ذلك لم يثبت عندهم وأما قول من سوى بين الاسلام والايمان وقال ان الله سمى الايمان بما سمي به الاسلام وسمي الاسلام بما سمى به الايمان فليس كذلك فان الله ورسوله قد فسر الايمان بانه الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبين أيضاً أن العمل بما أمر يدخل فى الايمان ولم يسم الله الايمان بملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت اسلاما بل انما سمى الاسلام الاستسلام له بقلبه وقصده واخلاص الدين والعمل بما أمر به كالصلاة والزكاة خالصاً لوجهه فهذا هو

الذي سماه الله اسلاما وجعله ديناً وقال (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) ولم يدخل فيما خص به الايمان وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله بل ولا اعمال القلوب مثل حب الله ورسله ونحو ذلك فان هذه جعلها من الايمان والمسلم المؤمن يتصف بها وليس اذا اتصف بها المسلم المؤمن يلزم أن تكون من الاسلام بل هي من الايمان والاسلام فرض والايمان فرض والاسلام داخل فيه فمن أتى بالايمان الذى أمر به فلا بد أن يكون قد أتي بالاسلام المتناول لجميع الاعمال الواجبة ومن أتى بما سمي اسلاما لم يلزم أن يكون قد أتى بالايمان الا بدليل منفصل كما علم ان من أثنى الله عليه بالاسلام من الانبياء وأتباعهم الى الحواريين كلهم كانوا مؤمنين كما كانوا مسلمين كما قال الحواريون (آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) وقال (واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) ولهذا أمرنا الله بهذا وبهذا في خطاب واحد كما قال (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الي ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسي وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) وقال في الآية الأخري (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) وهذا يقتضي أن كل من دان بغير دين الاسلام فعمله مردود وهو خاسر فى الآخرة فيقتضى وجوب دين الاسلام وبطلان ماسواه لا يقتضى أن مسمي الدين هو مسمي الايمان بل أمرنا أن نقول آمنا بالله وأمرنا أن نقول ونحن له مسلمون فأمرنا بأثنين فكيف نجعلهما واحداً واذا جعلوا الاسلام والايمان شيئاً واحداً فاما أن يقولوا اللفظ مترادف فيكون هذا تكريراً محضاً ثم مدلول هذا اللفظ غير مدلول هذا اللفظ واما أن يقولوا بل أحد اللفظين يدل على صفة غير الصفة الأخرى كما فى أسماء الله وأسماء كتابه لكن هذا لا يقتضى الأمر بهما جميعاً ولكن يقتضى أن يذكر تارة بهذا الوصف وتارة بهذا الوصف فلا يقول قائل قد فرض الله عليك الصلوات الخمس والصلاة المكتوبة وهذا هو هذا والعطف بالصفات يكون اذا قصد بيان الصفات لما فيها من المدح أو الذم كقوله (سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى) لا يقال صل لربك الاعلى وربك الذى خلق فسوي وقال محمد بن نصر المروزي رحمه الله فقد بين الله فى كتابه وسنة رسوله ان الاسلام والايمان لايفترقان فمن صدق بالله فقد آمن به ومن آمن بالله فقد خضع له وقد أسلم له ومن صام وصلى وقام بفرائض الله وانتهي عما نهي الله عنه فقد استكمل الايمان والاسلام المفترض عليه ومن ترك من ذلك شيئاً فلن يزول عنه اسم الايمان ولا الاسلام الا أنه أنقص من غيره في الاسلام والايمان من غير نقصان من الاقرار بأن الله حق وما قال حق لا باطل وصدق لا كذب ولكن ينقص الايمان الذي هو تعظيم لله وخضوع للهيبة والجلال والطاعة للمصدق به وهو الله فمن ذلك يكون النقصان لامن اقرارهم بان الله حق وما قال صدق فيقال ماذكره يدل على ان من أتى بالايمان الواجب فقد أتي بالاسلام ولكن حق هذا ليس فيه مايدل على ان من أتى بالاسلام الواجب فقد أتى بالايمان فقوله من آمن بالله فقد خضع له وقد استسلم له حق لكن اى شيء

في هذا يدل على ان من أسلم لله وخضع له فقد آمن به وبملائكته وبكتبه ورسله والبعث بعد الموت وقوله ان الله ورسوله قد بين ان الاسلام والايمان لايفترقان ان أراد ان الله أوجبهما جميعا ونهى عن التفريق بينهما فهذا حق وان أراد ان الله جعل مسمى هذا مسمى هذا فنصوص الكتاب والسنة تخالف ذلك وما ذكر قط نصاً واحداً يدل على اتفاق المسميين وكذلك قوله من فعل ما أمر به وانتهى عما نهي عنه فقد استكمل الايمان والاسلام فهذا صحيح اذا فعل ما أمر به باطناً وظاهراً ويكون قد استكمل الايمان والاسلام الواجب عليه ولا يلزم أن يكون إيمانه وإسلامه مساوياً للايمان والاسلام الذي فعله أولو العزم من الرسل كالخليل وابراهيم ومحمد خاتم النبيين عليهما الصلاة والسلام بل كان معه من الايمان والاسلام مالايقدر عليه غيره ولم يؤمر به وقوله من ترك من ذلك شيئاً فلن يزول عنه اسم الاسلام والايمان الا انه انقص من غيره في ذلك فيقال ان أريد بذلك انه بقي معه شيء من الاسلام والايمان فهذا حق كما دلت عليه النصوص خلافاً للخوارج والمعتزلة وان أراد انه يطلق عليه بلا تقييد مؤمن ومسلم فى سياق الثناء والوعد بالجنة فهذا خلاف الكتاب والسنة ولو كان كذلك لدخلوا فى قوله (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار) وأمثال ذلك مما وعدوا فيه بالجنة بلاعذاب .. وأيضا فصاحب الشرع قد نفى عنهم الاسم فى غير موضع بل قال قتل المؤمن كفر وقال لاترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض واذا احتج بقوله (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) ونحو ذلك قيل هؤلاء انما سموا به مع التقييد بأنهم فعلوا هذه الامور ليذكر مايؤمرون به هم وما يؤمر به غيرهم وكذلك قوله لايكون النقصان من اقرارهم بان الله حق وما قاله صدق فيقال بل النقصان يكون في الايمان الذى في القلوب من معرفتهم ومن عملهم فلا تكون معرفتهم وتصديقهم بالله وأسمائه وصفاته وماقاله من أمر ونهى ووعد ووعيد كمعرفة غيرهم وتصديقه لامن جهة الاجمال والتفصيل ولا من جهة القوة والضعف ولا من جهة الذكر والغفلة وهذه الامور كلها داخلة في الايمان بالله وما ارسل به رسوله وكيف يكون الايمان بالله وأسمائه وصفاته متماثلا في القلوب أم كيف يكون الايمان بانه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وانه غفور رحيم عزيز حكيم شديد العقاب ليس هومن الايمان به فلا يكن مسلما من يقول ان الايمان بذلك ليس من الايمان به ولا يدعي تماثل الناس فيه وأما ماذكره من ان الاسلام ينقص كما ينقص الايمان فهذا أيضاً حق كما دلت عليه الاحاديث الصحيحة فان من نقص من الصلاة والزكاة أو الصوم أو الحج شيئا فقد نقص من اسلامه بحسب ذلك ومن قال ان الاسلام هو الكلمة فقط وأراد بذلك انه لايزيد ولا ينقص فقوله خطأ ورد الذين جعلوا الاسلام والايمان سواء انما يتوجه على هؤلاء فان قولهم فى الاسلام يشبه قول المرجئة فى الايمان .. ولهذا صار الناس في الايمان والاسلام على ثلاثة أقوال فالمرجئة يقولون الاسلام أفضل فانه يدخل فيه الايمان وآخرون يقولون الايمان والاسلام سواء وهم المعتزلة والخوارج وطائفة من أهل الحديث والسنة وحكاه محمد بن نصر عن جمهورهم وليس كذلك والقول الثالث ان الايمان أكمل وأفضل وهذا هو الذى دل عليه الكتاب والسنة فى غير موضع وهو

المأثور عن الصحابة والتابعين لهم باحسان ثم هؤلاء منهم من يقول الاسلام مجرد القول والاعمال ليست من الاسلام والصحيح ان الاسلام هو الاعمال الظاهرة كلها واحمد انما منع الاستثناء فيه على قول الزهري هو الكلمة هكذا نقل الأثرم والميموني وغيرهما عنه وأما على جوابه الآخر الذي لم يختر فيه قول من قال الاسلام الكلمة فيستثني في الاسلام كما يستثنى في الايمان فان الانسان لايجزم بأنه قد فعل كل ما أمر به من الاسلام واذا قال النبي صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده وبنى الاسلام على خمس فجزمه بأنه فعل الخمس بلا نقص كما أمر كجزمه بايمانه فقد قال تعالى(ادخلوا في السلم كافة) أى الاسلام كافة أى فى جميع شرائع الاسلام وتعليل احمد وغيره من السلف ماذكروه فى اسم الايمان يجىء فى اسم الاسلام فاذا أريد بالاسلام الكلمة فلا استثناء فيه كما نص عليه احمد وغيره واذا أريد به فعل الواجبات الظاهرة كلها فالاستثناء فيه كالاستثناء فى الايمان ولما كان كل من أتي بالشهادتين صار مسلما متميزاً عن اليهود والنصاري تجرى عليه أحكام الاسلام التى تجرى على المسلمين كان هذا مما يجزم به بلا استثناء فيه فلهذا قال الزهرى الاسلام الكلمة وعلى ذلك وافقه احمد وغيره وحين وافقه لم يرد ان الاسلام الواجب هو الكلمة وحدها فان الزهري اجل من ان يخفى عليه ذلك ولهذا احمد لم يجب بهذا فى جوابه الثانى خوفاً من ان يظن ان الاسلام ليس هو الا الكلمة وهذا ماقال الأثرم لاحمد فاذا قال أنا مسلم فلا يستثني قال نعم لايستثنى اذا قال أنا مسلم قال فقلت له أقول هذا مسلم وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده وأنا أعلم أنه لايسلم الناس منه فذكر حديث معمرعن الزهرى قال فنرى أن الاسلام الكلمة والايمان العمل فبين أحمد أن الاسلام اذا كان الكلمة فلا استثناء فيها فحيث كان هو المفهوم من لفظ الاسلام فلا استثناء فيه ولو أريد بالايمان هذا كما يراد ذلك في مثل قوله فتحرير رقبة مؤمنة فانما أريد من أظهر الاسلام فان الايمان الذي علقت به أحكام الدنيا هو الايمان الظاهر وهو الاسلام فالمسمي واحد فى الاحكام الظاهرة ولهذا لما ذكر الأثرم لاحمد احتجاج المرجئة بقول النبي صلى الله عليه وسلم اعتقها فانها مؤمنة أجابه بأن المراد حكمها فى الدنيا حكم المؤمنة لم يرد أنها مؤمنة عند الله تستحق دخول الجنة بلا نار اذا لقيته بمجرد هذا الاقرار وهذا هو المؤمن المطلق فى كتاب الله وهو الموعود بالجنة بلا نار اذا مات على ايمانه ولهذا كان ابن مسعود وغيره من السلف يلزمون من شهد لنفسه بالايمان أن يشهد لها بالجنة يعنون اذا مات على ذلك فانه قد عرف أن الجنة لايدخلها الا من مات مؤمناً فاذا قال الانسان أنا مؤمن قطعاً وأنا مؤمن عند الله قيل له فاقطع بأنك تدخل الجنة بلاعذاب اذا مت على هذا الحال فان الله أخبر أن المؤمنين فى الجنة وأنكر احمد بن حنبل حديث ابن عميرة ان عبد الله رجع عن الاستثناء فان ابن مسعود لما قيل له ان قوما يقولون انا مؤمنون فقال أفلا سألتموهم أفى الجنة هم وفى رواية أفلا قالوا نحن أهل الجنة وفي رواية قيل له ان هذا يزعم أنه مؤمن قال فاسألوه أفى الجنة هو أو في النار فسألوه فقال الله أعلم فقال له عبد الله فهلا وكلت الأولى كما وكلت الثانية من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال انا عالم فهو جاهل ومن قال هو فى الجنة فهو فى النار يروي عن عمر بن

الخطاب من وجوه مرسلا من حديث قتادة ونعيم بن أبي هند وغيرهما . والسؤال الذي تورده المرجئة على ابن مسعود ويقولون ان يزيد بن عميرة أورده عليه حتي رجع جعل هذا ان الانسان يعلم حاله الآن وما يدرى ماذا يموت عليه وهذا السؤال صار طائفة كثيرة يقولون المؤمن هو من سبق في علم الله انه يختم له بالايمان والكافر من سبق في علم الله انه كافر وانه لا اعتبار بما كان قبل ذلك وعلى هذا يجعلون الاستثناء وهذا أحد قولى الناس من أصحاب أحمد وغيرهم وهو قول أبي الحسن وأصحابه لكن أحمد وغيره من السلف لم يكن هذا مقصودهم وانما مقصودهم ان الايمان المطلق يتضمن فعل المأمورات فقوله أنا مؤمن كقوله أنا ولى الله وأنا مؤمن تقى وأنا من الابرار ونحو ذلك وابن مسعود رضى الله عنه لم يكن يخفى عليه أن الجنة لا تكون الا لمن مات مؤمناً وان الانسان لا يعلم على ماذا يموت فان ابن مسعود أجل قدراً من هذا وانما أراد سلوه هل هو فى الجنة ان مات على هذه الحال كأنه قال سلوه أيكون من أهل الجنة على هذه الحال فلما قال الله ورسوله أعلم قال أفلا وكلت الأولي كما وكلت الثانية يقول هذا التوقف يدل على أنك لا تشهد لنفسك بفعل الواجبات وترك المحرمات فانه من شهد لنفسه بذلك شهد لنفسه انه من أهل الجنة ان مات على ذلك ولهذا صار الذين لا يرون الاستثناء لأجل الحال الحاضر بل للموافاة لا يقطعون بان الله لا يقبل توبة تائب كما لا يقطعون بان الله تعالى يعاقب مذنباً فانهم لو قطعوا بقبول توبته لزمهم أن يقطعوا له بالجنة وهم لا يقطعون لأحد من أهل القبلة لا بجنة ولا نار الا من قطع له النص واذا قيل الجنة هي لمن أتي بالتوبة النصوح من جميع السيئات قالوا ولو مات على هذه التوبة لم نقطع له بالجنة وهم لا يستثنون فى الاحوال بل يجزمون بأن المؤمن تام الايمان ولكن عندهم الايمان عند الله هو ما يوافي به فمن قطعوا له بأنه مات مؤمناً لاذنب له قطعوا له بالجنة فلهذا لايقطعون بقبول التوبة لئلا يلزمهم أن يقطعوا بالجنة وأما أئمة السلف فانما لم يقطعوا بالجنة لأنهم لا يقطعون بانه فعل المأمور وترك المحظور ولا انه أتي بالتوبة النصوح والا فهم يقطعون بأن من تاب توبة نصوحا قبل الله توبته . وجماع الامة ان الاسم الواحد ينفى ويثبت بحسب الاحكام المتعلقة به فلا يجب اذا أثبت أو نفى في حكم أن يكون كذلك فى سائر الاحكام وهذا في كلام العرب وسائر الامم لأن المعنى مفهوم مثال ذلك المنافقين قد يجعلون من المؤمنين فى موضع وفي موضع آخر يقال ما هم منهم قال الله تعالى (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا أشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً) فهنالك جعل هؤلاء المنافقين الخائفين من العدو الناكلين عن الجهاد الناهين لغيرهم الذامين للمؤمنين منهم وقال فى آية أخرى (ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون) وهؤلاء ذنبهم أخف فانهم لم يؤذوا المؤمنين لا بنهى ولا سلق بألسنة حداد ولكن حلفوا بالله انهم من المؤمنين في الباطن بقلوبهم والا فقد علم المؤمنون انهم منهم فى الظاهر فكذبهم

الله وقال وما هم منكم وهناك قال قد يعلم الله المعوقين منكم فالخطاب لمن كان فى الظاهر مسلماً مؤمناً بان منكم من هو بهذه الصفة وليس مؤمناً بل أحبط الله عمله فهو منكم فى الظاهر لا الباطن ٠٠ ولهذا لما استؤذن النبي صلى الله عليه وسلم فى قتل بعض المنافقين قال لا يتحدث الناس ان محمداً يقتل أصحابه فانهم من أصحابه في الظاهر عند من لا يعرف حقائق الأمور وأصحابه الذين هم أصحابه ليس فيهم نفاق كالذين علموا سنته الناس وبلغوها اليهم وقاتلوا المرتدين بعد موته والذين بايعوه تحت الشجرة وأهل بدر وغيرهم بل الذين كانوا منافقين غمار من الناس ٠٠ وكذلك الانساب مثل كون الانسان أبا الآخر أو أخاه يثبت في بعض الاحكام دون بعض فانه قد ثبت في الصحيحين انه لما اختصم الي النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة بن الاسود فى ابن وليدة زمعة وكان عتبة بن أبي وقاص قد فجر بها فى الجاهلية وولدت منه ولدا فقال عتبة لاخيه سعد اذ قدمت مكة فانظر ابن وليدة زمعة فانه ابنى فاختصم فيه هو وعبد بن زمعة الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال سعد يارسول الله ابن أخي عتبة عهد الى أخي عتبة فيه اذا قدمت مكة انظر الى ابن وليدة زمعة فانه ابنى ألا ترى يارسول الله شبهه بعتبة فقال عبد يارسول الله أخي وابن وليدة أبى ولد على فراش أبي فرأي النبى صلي الله عليه وسلم شبهاً بيناً بعتبة فقال هولك ياعبد بن زمعة الولد للفراش وللعاهر الحجر واحتجبي منه يا سودة لما رأى من شبهه البين بعتبة فقد جعله النبي صلى الله عليه وسلم ابن زمعة لانه وُلد على فراشه وجعله أخاً لولده بقوله فهو لك ياعبد ابن زمعة وقد صارت سودة أخته يرثها وترثه لانه ابن أبيها زمعة وُلد على فراشه ومع هذا فأمرها النبى صلى الله عليه وسلم أن تحتجب منه لما رأى من شبهه البيّن بعتبة فانه قام فيه دليلان متعارضان الفراش والشبه والنسب فى الظاهر لصاحب الفراش أقوى ولانها أمر ظاهر مباح والفجور أمر باطن لا يعلم ويجب ستره لا إظهاره كما قال للعاهر الحجر كما يقال بفيك الكثكث وبفيك الأثلب أى عليك أن تسكت عن اظهار الفجور فان الله يبغض ذلك ولما كان احتجابها منه ممكناً من غير ضرر أمرها بالاحتجاب لما ظهر من الدلالة على انه ليس أخاها في الباطن فتبين ان الاسم الواحد ينفي في حكم ويثبت فى حكم فهو أخ فى الميراث وليس بأخ فى الحرمية وكذلك ولد الزنا عند بعض العلماء وابن الملاعنة عند الجميع الا من شذ ليس بولد فى الميراث ونحوه وهو ولد فى تحريم النكاح والحرمية ٠٠ ولفظ النكاح وغيره في الأمر يتناول الكامل وهو العقد والوطء كما في قوله (وأنكحوا ماطاب لكم من النساء) وقوله (حتى تنكح زوجاً غيره) وفى النهى يعم الناقص والكامل فينهي عن العقد مفرداً وان لم يكن وطء كقوله (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) وهذا لان الآمر مقصوده تحصيل المصلحة وتحصيل المصلحة انما يكون بالدخول كما لو قال اشتر لي طعاماً فالمقصود مايحصل الا بالشراء والقبض والناهي مقصوده دفع المفسدة فيدفع كل جزء منه لان وجوده مفسدة وكذلك النسب والميراث معلق بالكامل منه والتحريم معلق بأدني سبب حتى الرضاع ٠٠ وكذلك كل ما يكون له مبتدأ وكمال ينفى تارة باعتبار انتفاء كماله ويثبت تارة باعتبار ثبوت مبدأه فلفظ الرجال يعم الذكور وان كانوا صغاراً في مثل قوله (وان

كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) ولا يعم الصغار فى مثل قوله (إلاّ المستضعفين من الرّجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) فان باب الهجرة والجهاد عمل يعمله القادرون عليه فلو اقتصر على ذكر المستضعفين من الرجال لظن ان الولدان غير داخلين لانهم ليسوا من أهله وهم ضعفاء فذكرهم بالاسم الخاص ليبيّن عذرهم فى ترك الهجرة ووجوب الجهاد وكذلك الايمان له مبدأ وكال وظاهر وباطن فاذا علقت به الأحكام الدنيوية من الحقوق والحدود كحقن الدم والمال والمواريث والعقوبات الدنيوية علقت بظاهره لا يمكن غير ذلك إذ تعليق ذلك بالباطن متعذر وان قدر أحياناً فهو متعسر علماً وقدرة فلا يعلم ذلك علماً يثبت به فى الظاهر ولا يمكن عقوبة من يعلم ذلك منه في الباطن وبهذين المثلين كان النبي صلى الله عليه وسلم يمتنع من عقوبة المنافقين فان فيهم من لم يكن يعرفهم كما أخبر الله بذلك والذين كان يعرفهم لو عاقب بعضهم لغضب له قومه ولقال الناس ان محمداً يقتل أصحابه فكان يحصل بسبب ذلك نفور عن الاسلام اذ لم يكن الذنب ظاهراً يشترك الناس في معرفته ولما هم بعقوبة من يتخلف عن الصلاة منعه من في البيوت من النساء والذرية وأما مبدأه يتعلق به خطاب الأمر والنهي فاذا قال الله (يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة) ونحو ذلك فهو أمر في الظاهر لكل من أظهره وهو خطاب في الباطن لكل من عرف من نفسه انه مصدق للرسول وان كان عاصياً وان كان لم يقم بالواجبات الباطنة والظاهرة وذلك انه ان كان لفظ الذين آمنوا يتناولهم فلا كلام وان كان لم يتناولهم فذلك لذنوبهم فلا تكون ذنوبهم مانعة من أمرهم بالحسنات التي ان فعلوها كانت سبب رحمتهم وان تركوها كان أمرهم بها وعقوبتهم عليها عقوبة على ترك الايمان والكافر يجب عليه أيضاً لكن لا يصح منه حتى يؤمن وكذلك المنافق المحض لا يصح منه فى الباطن حتى يؤمن وأما من كان معه أول الايمان فهذا يصح منه لان معه اقرار فى الباطن بوجوب ماأوجبه الرسول وتحريم ما حرمه وهذا سبب الصحة وأما كماله فيتعلق به خطاب الوعد بالجنة والنصرة والسلامة من النار فان هذا الوعد انما هو لمن فعل المأمور وترك المحظور ومن فعل بعضاً وترك بعضاً فيثاب على ما فعله ويعاقب على ماتركه فلا يدخل هذا فى اسم المؤمن المستحق للحمد والثناء دون الذم والعقاب ومن نفى عنه الرسول الايمان فنفي الايمان فى هذا الحكم لانه ذكر ذلك على سبيل الوعيد والوعيد انما يكون بنفي ما يقتضى الثواب ويدفع العقاب ولهذا ما فى الكتاب والسنة من نفى الايمان عن أصحاب الذنوب فانما هو فى خطاب الوعيد والذم لا في خطاب الأمر والنهي ولا أحكام الدنيا واسم الاسلام والايمان والاحسان هي أسماء ممدوحة مرغوب فيها لحسن العاقبة لأهلها فبين النبي صلى الله عليه وسلم ان العاقبة الحسنة لمن اتصف بها على الوجه الذي بينه ولهذا كان من نفى عنهم الايمان أو الايمان والاسلام جميعاً ولم يجعلهم كفاراً انما نفى ذلك فى أحكام الآخرة وهو الثواب لم ينفه فى أحكام الدنيا لكن المعتزلة ظنت انه اذا انتفى الاسم انتفت جميع أجزائه فلم يجعلوا معهم شيئاً من الايمان والاسلام فجعلوهم مخلدين في النار وهذا خلاف الكتاب والسنة واجماع السلف ولو لم يكن معهم شئ من الايمان والاسلام لم يثبت في حقهم

شيء من أحكام المؤمنين والمسلمين لكن كانوا كالمنافقين وقد ثبت بالكتاب والسنة والاجماع التفريق بين المنافق الذي يكذب الرسول في الباطن وبين المؤمن المذنب فالمعتزلة سووا بين أهل الذنوب وبين المنافقين في أحكام الدنيا والآخرة في نفي الاسلام والايمان عنهم بل قد يثبتونه للمنافق ظاهراً وينفونه عن المذنب باطناً وظاهراً فان قيل فاذا كان كل مؤمن مسلما وليس كل مسلم مؤمنا الايمان الكامل كما دل عليه حديث جبريل وغيره من الاحاديث مع القرآن وكما ذكر ذلك عمن ذكر عنه من السلف لان الاسلام الطاعات الظاهرة وهو الاستسلام والانقياد لان الاسلام في الاصل هو الاستسلام والانقياد وهذا هو الانقياد والطاعة والايمان فيه معنى التصديق والطمأنينة وهذا قدر زائد فما تقولون فيمن فعل ما أمر الله وترك مانهي الله عنه مخلصا لله تعالى باطنا وظاهرا أليس هذا مسلما باطنا وظاهرا وهو من أهل الجنة واذا كان كذلك فالجنة لايدخلها الا نفس مؤمنة فهذا يجب ان يكون مؤمنا قلنا قد ذكرنا غير مرة انه لابد أن يكون معه الايمان الذي وجب عليه اذ لو لم يؤد الواجب لكان معرضاً للوعيد لكن قد يكون من الايمان مالا يجب عليه اما لكونه لم يخاطب به أو لكونه كان عاجزاً عنه وهذا أولى لان الايمان الموصوف فى حديث جبريل والاسلام لم يكونا واجبين في أول الاسلام بل ولا واجبا على من تقدم قبلنا من الامم اتباع الانبياء أهل الجنة مع أنهم مؤمنون مسلمون ومع أن الاسلام دين الله الذى لا يقبل دينا غيره وهو دين الله في الاولين والآخرين لأن الاسلام عبادة الله وحده لا شريك له بما أمر فقد تنوع أوامره فى الشريعة الواحدة فضلا عن الشرائع فيصير فى الاسلام بعض الايمان بما يخرج عنه فى وقت آخر كالصلاة الى الصخرة كان من الاسلام حين كان الله أمر به ثم خرج من الاسلام لما نهى الله عنه ومعلوم ان الخمس المذكورة فى حديث جبريل لم تجب في أول الامر بل الصيام والحج وفرائض الزكاة انما وجبت بالمدينة والصلاة الخمس انما وجبت ليلة المعراج وكثير من الاحاديث ليس فيها ذكر الحج لتأخر وجوبه الى سنة تسع أو عشر على أصح القولين ولما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم كان من اتبعه وآمن بما جاء به مؤمناً مسلماً واذا مات كان من أهل الجنة ثم انه بعد هذا زاد الايمان والاسلام حتى قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) وكذلك الايمان فان هذا الايمان المفصل الذى ذكره فى حديث جبريل لم يكن مأموراً به في أول الامر لما أنزل الله سورة العلق والمدثر بل انما جاء هذا فى السور المدنية كالبقرة والنساء واذا كان كذلك لم يلزم أن يكون هذا الايمان المفصل واجباً على ما تقدم قبلنا واذا كان كذلك فقد يكون الرجل مسلماً يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ومعه الايمان الذي فرض عليه وهو من أهل الجنة وليس معه هذا الايمان المذكور فى حديث جبريل لكن هذا يقدل معه ما أمر به من الايمان والاسلام وقد يكون مسلماً يعبد الله كما أمره ولا يعبد غيره ويخافه ويرجوه ولكن لم يخلص الى قلبه أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواه ولا أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب اليه من جميع أهله وماله وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه وأن يخاف الله لايخاف غيره وأن لايتوكل الا على الله وهذه كلها من الايمان الواجب وليست من لوازم الاسلام فان الاسلام هو الاستسلام وهو

يتضمن الخضوع لله وحده والانقياد له والعبودية لله وحده وهذا ق. يتضمن خوفه ورجاءه وأما طمأنينة القلب بمحبته وحده وأن يكون أحب اليه مما سواهما وبالتوكل عليه وحده وبان يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه فهذه من حقائق الايمان التي تختص به فمن لم يتصف بها لم يكن من المؤمنين حقاً وان كان مسلماً وكذلك وجل قلبه اذا ذكر الله وكذلك زيادة الايمان اذا تليت عليه آياته .. فان قيل ففوات هذا الايمان من الذنوب أم لا قيل اذا لم يبلغ الانسان الخطاب الموجب لذلك لا يكون تركه من الذنوب اذا كان قادراً على ذلك وكثير من الناس أو أكثرهم ليس عندهم هذه التفاصيل التى تدخل فى الايمان مع أنهم قائمون بالطاعة الواجبة في الاسلام واذا وقعت منهم ذنوب تابوا واستغفروا منها وحقائق الايمان التى فى القلوب لا يعرفون وجوبها بل ولا انها من الايمان بل كثير ممن يعرفها منهم يظن أنها من النوافل المستحبة ان صدق بوجودها فالاسلام يتناول من أظهر الاسلام وليس معه شئ من الايمان وهو المنافق المحض ويتناول من أظهر الاسلام مع التصديق المجمل فى الباطن ولكن لم يفعل الواجب كله لا من هذا ولا هذا وهم الفساق يكون في أحدهم شعبة نفاق ويتناول من أتى بالاسلام الواجب وما يلزمه من الايمان ولم يأت بتمام الايمان الواجب وهؤلاء ليسوا فساقا تاركون فريضة ظاهرة ولا مرتكبون محرما ظاهراً لكن تركوا من حقائق الايمان الواجبة علماً وعملا بالقلب يتبعه بعض الجوارح ما كانوا به مذمومين وهذا هو النفاق الذى كان يخافه السلف على نفوسهم فان صاحبه قد يكون فيه شعبة نفاق وبعد هذا ما ميز الله به المقربين على الابرار أصحاب اليمين من ايمان وتوابعه وذلك قد يكون من باب المستحبات وقد يكون أيضاً مما فضل به المؤمن ايمان واسلام مما وجب عليه ولم يجب على غيره ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان وفى الحديث الآخر ليس وراء ذلك من الايمان مثقال حبة خردل فان مراده انه لم يبق بعد هذا الانكار ما يدخل في الايمان حتى يفعله المؤمن بل الانكار بالقلب آخر حدود الايمان ليس مراده ان من لم ينكر ذلك لم يكن معه من الايمان حبة خردل ولهذا قال ليس وراء ذلك فجعل المؤمنين ثلاث طبقات وكل منهم فعل الايمان الذى يجب عليه لكن الاول لما كان أقدرهم كان الذى يجب عليه أكمل مما يجب على الثاني وكان ما يجب على الثانى أكمل مما يجب على الآخر وعلم بذلك ان الناس يتفاضلون فى الايمان الواجب عليهم بحسب استطاعتهم مع بلوغ الخطاب اليهم كلهم

﴿ فصل ﴾ وأما الاستثناء فى الايمان بقول الرجل أنا مؤمن ان شاء الله فالناس فيه على ثلاثة أقوال منهم من يوجبه ومنهم من يحرمه ومنهم من يجوز الامرين باعتبارين وهذا أصح الاقوال فالذين يحرمونه هم المرجئة والجهمية ونحوهم ممن يجعل الايمان شيئاً واحداً يعلمه الانسان من نفسه كالتصديق بالرب ونحو ذلك مما فى قلبه فيقول أحدهم أنا أعلم انى مؤمن كما أعلم اني تكلمت بالشهادتين وكما أعلم اني قرأت الفاتحة وكما أعلم اني أحب رسول الله وانى أبغض اليهود والنصارى فقولى أنا مؤمن كقولي أنا مسلم وكقولى تكلمت بالشهادتين وقرأت الفاتحة وكقولى أنا أبغض اليهود والنصارى ونحو ذلك من

الامور الحاضرة التي أنا أعلمها وأقطع بها وكما انه لا يجوز أن يقال أنا قرأت الفاتحة ان شاء الله كذلك لا يقول أنا مؤمن ان شاء الله لكن اذا كان يشك في ذلك فيقول فعلته ان شاء الله قالوا فمن استثنى في ايمانه فهو شاك فيه وسموهم الشكاكة .. والذين أوجبوا الاستثناء لهم مأخذان أحدهما ان الايمان هو مامات عليه الانسان والانسان انما يكون عند الله مؤمناً وكافراً باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله انه يكون عليه وما قبل ذلك لا عبرة به قالوا والايمان الذي يتعقبه الكفر فيموت صاحبه كافراً ليس بايمان كالصلاة التي يفسدها صاحبها قبل الكمال وكالصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب وصاحب هذا هو عند الله كافر لعلمه بما يموت عليه وكذلك قالوا في الكفر وهذا المأخذ مأخذ كثير من المتأخرين من الكلابية وغيرهم ممن يريد أن ينصر ما اشتهر عن أهل السنة والحديث من قولهم أنا مؤمن ان شاء الله ويريد مع ذلك ان الايمان لا يتفاضل ولا يشك الانسان في الموجود منه وانما يشك في المستقبل وانضم الى ذلك انهم يقولون محبة الله ورضاه وسخطه وبغضه قديم ثم هل ذلك هو الارادة أم صفات أخر لهم في ذلك قولان وأكثر قدمائهم يقولون ان الرضا والسخط والغضب ونحو ذلك صفات ليست هي الارادة كما ان السمع والبصر ليس هو العلم وكذلك الولاية والعداوة هذه كلها صفات قديمة أزلية عند أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب ومن اتبعه من المتكلمين ومن اتباع المذاهب من الحنبلية والشافعية والمالكية وغيرهم قالوا والله يحب في أزله من كان كافراً اذا علم انه يموت مؤمناً فالصحابة مازالوا محبوبين لله وان كانوا قد عبدوا الاصنام مدة من الدهر وابليس ما زال الله يبغضه وان كان لم يكفر بعد وهذا على أحد القولين لهم فالرضا والسخط يرجع الى الارادة والارادة تطابق العلم فالمعنى ما زال الله يريد أن يثيب هؤلاء بعد ايمانهم ويعاقب ابليس بعد كفره وهذا معنى صحيح فان الله يريد أن يخلق كلما علم أن سيخلقه وعلى قول من يثبتها صفات أخر يقول هو أيضا حبه تابع لمن يريد أن يثيبه فكل من أراد اثابته فهو يحبه وكل من أراد عقوبته فانه يبغضه وهذا تابع للعلم وهؤلاء عندهم لا يرضى عن أحد بعد أن كان ساخطاً عليه ولا يفرح بتوبة عبد بعد أن تاب عليه بل ما زال يفرح بتوبته والفرح عندهم اما الارادة واما الرضا والمعنى ما زال يريد اثابته أو يرضى عما يريد اثابته وكذلك لا يغضب عندهم يوم القيامة دون ماقبله بل غضبه قديم اما بمعنى الارادة واما بمعنى آخر فهؤلاء يقولون اذا علم ان الانسان يموت كافرا لم يزل مريداً لعقوبته فذاك الايمان الذي كان معه باطل لا فائدة فيه بل وجوده كعدمه فليس هذا بمؤمن أصلا واذا علم انه يموت مؤمناً لم يزل مريدا لاثابته وذاك الكفر الذي فعله وجوده كعدمه فلم يكن هذا كافرا عندهم أصلا فهؤلاء يستثنون في الايمان بناء على هذا المأخذ وكذلك بعض محققيهم يستثنون في الكفر مثل أبي منصور الماتريدي فان ما ذكروه مطرد فيهما ولكن جماهير الائمة على انه لا يستثنى في الكفر والاستثناء فيه بدعة لم يعرف عن أحد من السلف ولكن هو لازم لهم .. والذين فرقوا من هؤلاء قالوا نستثنى في الايمان رغبة الى الله في أن يثبتنا عليه الى الموت والكفر لا يرغب فيه أحد لكن يقال اذا كان قولك مؤمن كقولك في الجنة فأنت تقول عن الكافر هو كافر ولا تقول هو في النار الا معلقاً بموته على الكفر فدل على انه كافر في الحال

قطعاً وان جاز أن يصير مؤمناً كذلك المؤمن وسواء أخبر عن نفسه أو عن غيره فلو قيل عن يهودي أو نصراني هذا كافر قال ان شاء الله اذا لم يعلم انه يموت كافرا وعند هؤلاء لا يعلم أحد أحدا مؤمناً الا اذا علم انه يموت عليه وهذا القول قاله كثير من أهل الكلام أصحاب ابن كلاب ووافقهم على ذلك كثير من أتباع الائمة لكن ليس هذا قول أحد من السلف لا الائمة الاربعة ولا غيرهم ولا كان أحد من السلف الذين يستثنون في الايمان يعللون بهذا لا أحمد ولا من قبله وما أخذ هذا القول طرده طائفة ممن كانوا في الاصل يستثنون في الايمان اتباعاً للسلف وكانوا قد أخذوا الاستثناء عن السلف وكان أهل الشام شديدين على المرجئة وكان محمد بن يوسف الفريابي صاحب الثوري مرابطاً بعسقلان لما كانت معمورة وكانت من خيار ثغور المسلمين ولهذا كان فيها فضائل لفضيلة الرباط في سبيل الله وكانوا يستثنون في الايمان اتباعاً للسلف واستثنوا أيضاً في الأعمال الصالحة كقول الرجل صليت ان شاء الله ونحو ذلك بمعنى القبول لما في ذلك من الآثار عن السلف ثم صار كثير من هؤلاء بأخرة يستثنون في كل شيء فيقول هذا ثوبي ان شاء الله وهذا حبل ان شاء الله فاذا قيل لأحدهم هذا لا شك فيه قال نعم لا شك فيه لكن اذا شاء الله أن يغيره غيره فيريدون بقولهم ان شاء الله جواز تغييره في المستقبل وان كان في الحال لاشك فيه كأن الحقيقة عندهم التي لا يستثنى فيها مالم تتبدل كما يقوله أولئك في الايمان ان الايمان ماعلم الله انه لايتبدل حتى يموت صاحبه عليه لكن هذا القول قاله قوم من أهل العلم والدين باجتهاد ونظر وهؤلاء الذين يستثنون في كل شيء تلقوا ذلك عن بعض اتباع شيخهم وشيخهم الذي ينتسبون اليه يقال أبو عمرو عثمان بن مرزوق لم يكن ممن يرى هذا الاستثناء بل كان في الاستثناء على طريقة من كان قبله ولكن أحدث ذلك بعض أصحابه بعده وكان شيخهم منتسباً الى الامام أحمد وهو من اتباع عبد الوهاب بن الشيخ أبي الفرج وأبو الفرج من تلامذة القاضي أبي يعلي وهؤلاء كلهم وان كانوا منتسبين الى الامام أحمد فهم يوافقون ابن كلاب على أصله الذي كان أحمد ينكره على الكلابية وأمر بهجر الحارث المحاسبي من أجله كما وافقه على أصله طائفة من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة كأبي المعالي الجويني وأبي الوليد الباجي وأبي منصور الماتريدي وغيرهم وقول هؤلاء في مسائل متعددة من مسائل الصفات وما يتعلق بها كمسألة القرآن هل هو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته أم القرآن لازم لذاته وقولهم في الاستثناء مبني على ذلك الأصل وكذلك بناه الأشعري واتباعه عليه لان هؤلاء كلهم كلابية يقولون ان الله لم يتكلم بمشيئته وقدرته ولا يرضى ولا يغضب على أحد بعد ايمانه وكفره ولا يفرح بتوبة التائب بعد توبته ولهذا وافقوا السلف على ان القرآن كلام الله غير مخلوق ثم قالوا انه قديم لم يتكلم به بمشيئته وقدرته ثم اختلفوا بعد هذا في القديم أهو معنى واحد أم حروف قديمة مع تعاقبها كما بسطت أقوالهم وأقوال غيرهم في مواضع أخر .. وهذه الطائفة المتأخرة تنكر أن يقال قطعاً في شيء من الأشياء مع غلوهم في الاستثناء حتى صار هذا اللفظ منكراً عندهم وان قطعوا بالمعنى فيجزمون بان محمداً رسول الله وان الله ربهم ولا يقولون قطعاً وقد اجتمع بي طائفة منهم فأنكرت عليهم ذلك وامتنعت من فعل مطلوبهم حتى يقولوا قطعاً وأحضروا لي كتاباً فيه

أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه نهى أن يقول الرجل قطعاً وهي أحاديث موضوعة مختلقة قد افتراها بعض المتأخرين .. والمقصود هنا ان الاستثناء فى الايمان لما علل مثل تلك العلة طرد أقوام تلك العلة في الأشياء التى لا يجوز الاستثناء فيها باجماع المسلمين بناء على ان الاشياء الموجودة الآن اذا كانت فى علم الله تتبدل أحوالها فيستثني في صفاتها الموجودة فى الحال ويقول هـذا صغير ان شاء الله لان الله قد يجعله كبيراً ويقول هذا مجنون ان شاء الله لان الله قد يجعله عاقلا ويقول للمرتد هذا كافر ان شاء الله لامكان أن يتوب وهؤلاء الذين استثنوا في الايمان بناء على هذا المأخذ ظنوا هذا قول السلف وهؤلاء وأمثالهم من أهل الكلام ينصرون ما ظهر من دين الاسلام كما ينصر ذلك المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين فينصرون اثبات الصانع والنبوة والمعاد ونحو ذلك وينصرون مع ذلك ماظهر من مذاهب أهل السـنة والجماعة كما ينصر ذلك الكلابية والكرامية والأشعرية ونحوهم فينصرون ان القرآن كلام الله غير مخلوق وان الله يرى فى الآخرة وان أهل القبلة لا يكفرون بالذنب ولا يخلدون في النار وان النبي صلى الله عليه وسلم له شفاعة في أهل الكبائر وان فتنة القبر حق وعذاب القبر حق وحوض نبينا صـلى الله عليه وسلم فى الآخرة حق وأمثال ذلك من الاقوال التي شاع انها من أصول أهل السنة والجماعة كما ينصرون خلافة الخلفاء الاربعة وفضيلة أبي بكر وعمر ونحو ذلك .. وكثير من أهل الكلام فى كثير مما ينصره لا يكون عارفاً بحقيقة دين الاسلام فى ذلك ولا ما جاءت به السنة ولا ما كان عليه السلف فينصر ما ظهر من قولهم بغير المأخذ التى كانت مأخذهم في الحقيقة بل بمأخذ آخر قد تلقاها عن غيرهم من أهل البدع فيقع في كلام هؤلاء من التناقض والاضطراب والخطأ ما ذم به السـلف مثل هذا الكلام وأهله فان كلامهم فى ذم مثل هذا الكلام كثير والكلام المذموم هو المخالف للكتاب والسـنة وكل ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل وكذب فهو مخالف للشرع والعقل وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا فهؤلاء لما اشتهر عندهم عن أهل السنة انهم يستثنون فى الايمان ورأوا ان هـذا لا يمكن الا اذا جعل الايمان هو مايموت العبد عليه وهو ما يوافى به العبد ربه ظنوا ان الايمان عند السلف هو هذا فصاروا يحكون هذا عن السلف وهذا القول لم يقل به أحد من السلف ولكن هؤلاء حكوه عنهم بحسب ظنهم لما رأوا ان قولهم لا يتوجه الا على هذا الاصل وهم يدعون ان مانصروه من أصل جهم فى الايمان هو قول المحققين والنظار من أصحاب الحديث ومثل هذا يوجد في الايمان كثيراً فى مذاهب السلف التى خالفها بعض النظار وأظهر حجته في ذلك ولم يعرف حقيقة قول السلف فيقول من عرف حجة هؤلاء دون السلف أو من يعظمهم لما يراه من تميزهم عليه هـذا قول المحققين وقال المحققون ويكون ذلك من الاقوال الباطلة المخالفة للعقل مع الشرع وهذا كثيراً مايوجد فى كلام بعض المبتدعين وبعض الملحدين ومن آتاه الله علماً وايماناً علم انه لا يكون عند المتأخرين من التحقيق الا ما هو دون تحقيق السلف لا فى العلم ولا فى العمل ومن كان له خـبرة بالنظريات والعقليات وبالعمليات عـلم ان مذهب الصحابة دائماً أرجح من قول من بعدهم وانه لا يبتدع أحد قولا فى الاسلام الا كان خطأ وكان الصواب قد سـبق اليه من قبله قال أبو

القاسم الانصاري فيما حكاه عن أبي اسحق الاسفرائيني لما ذكر قول أبي الحسن وأصحابه في الايمان وصحح انه تصديق القلب قال ومن أصحابنا من قال بالموافاة وشرط في الايمان الحقيقي ان يوافي ربه به ويختم عليه ومنهم من لم يجعل ذلك شرطاً فيه في الحال قال الانصاري لما ذكر ان معظم أئمة السلف كانوا يقولون الايمان معرفة بالقلب واقرار باللسان وعمل بالجوارح قال الاكثرون من هؤلاء على القول بالموافاة ومن قال بالموافاة فانما يقوله فيمن لم يرد الخبر بأنه من أهل الجنة وأما من ورد الخبر بأنه من أهل الجنة فانه يقطع على ايمانه كالعشرة من الصحابة ثم قال والذي اختاره المحققون ان الايمان هو التصديق وقد ذكرنا اختلاف أقوالهم في الموافاة وان ذلك هل هو شرط في صحة الايمان وحقيقته في الحال وكونه معتداً عند الله به وفي حكمه فمن قال ان ذلك شرط فيه يستثنون في الاطلاق في الحال لا انهم يشكون في حقيقة التوحيد والمعرفة لكنهم يقولون لا يدري أي الايمان الذي نحن مؤمنون به في الحال هل هو معتد به عند الله على معنى انا ننتفع به في العاقبة ونجتني من ثماره فاذا قيل لهم أمؤمنون أنتم حقاً أو تقولون ان شاء الله أو تقولون نرجو فيقولون نحن مؤمنون ان شاء الله يعنون بهذا الاستثناء تفويض الامر في العاقبة الى الله سبحانه وتعالى وانما يكون الايمان ايمانا معتدا به في حكم الله اذا كان ذلك علم الفوز وآية النجاة واذا كان صاحبه والعياذ بالله في حكم الله من الاشقياء يكون ايمانه الذي يحصل به في الحال عارية قال ولا فرق عند الصائرين الى هذا المذهب بين أن يقول أنا مؤمن من أهل الجنة قطعا وبين أن يقول أنا مؤمن حقاً قلت هذا انما يجيء على قول من يجعل الايمان متنا ولا لاداء الواجبات وترك المحرمات فمن مات على هذا كان من أهل الجنة وأما على قول الجهمية والمرجئة وهو القول الذي نصره هؤلاء الذين نصروا قول جهم فانه يموت على الايمان قطعاً ويكون كامل الايمان عندهم وهو مع هذا عندهم من أهل الكبائر الذين يدخلون النار فلا يلزم اذا وافى بالايمان أن يكون من أهل الجنة وهذا اللازم لقولهم يدل على فساده لان الله وعد المؤمنين بالجنة وكذلك قالوا لا سيما والله سبحانه يقول (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات) الآية قال فهؤلاء يعني القائلين بالموافاة جعلوا الثبات على هذا التصديق والايمان الذي وصفناه الى العاقبة والوفاء به في المآل شرطا في الايمان شرعا لا لغة ولا عقلا قال وهذا مذهب سلف أصحاب الحديث والأكثرين قال وهو اختيار الامام أبي بكر بن فورك وكان الامام محمد بن اسحق ابن خزيمة يغلو فيه وكان يقول من قال أنا مؤمن حقاً فهو مبتدع وأما مذهب سلف أصحاب الحديث كابن مسعود وأصحابه والثوري وابن عيينة وأكثر علماء الكوفة ويحيى بن سعيد القطان فيما يرويه عن علماء أهل البصرة وأحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة فكانوا يستثنون في الايمان وهذا متواتر عنهم لكن ليس في هؤلاء من قال أنا أستثني لاجل الموافاة وان الايمان انما هو اسم لما يوافي به العبد ربه بل صرح أئمة هؤلاء بأن الاستثناء انما هو لان الايمان يتضمن فعل الواجبات فلا يشهدون لانفسهم بذلك كما لا يشهدون لها بالبرّ والتقوى فان ذلك مما لا يعلمونه وهو تزكية لانفسهم بلا علم كما سنذكر أقوالهم ان شاء الله في ذلك وأما الموافاة فما علمت أحدا من السلف علل بها الاستثناء ولكن كثير من المتأخرين

يعلل بها من أصحاب الحديث من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم كما يعلل بها نظارهم كأبي الحسن الأشعري وأكثر أصحابه لكن ليس هذا قول سلف أصحاب الحديث ثم قال فان قال قائل اذا قلتم ان الايمان المأمور به فى الشريعة هو ماوصفتموه بشرائط وليس ذلك متلقى من اللغة فكيف يستقيم قولكم ان الايمان لغوى قلنا الايمان هو التصديق لغة وشرعا غير ان الشرع ضم الى التصديق أوصافا وشرائط مجموعها يصير مجزيا مقبولا كما قلنا فى الصلاة والصوم والحج ونحوها والصلاة في اللغة هو الدعاء غير أن الشرع ضم اليها شرائط فيقال هذا يناقض ما ذكروه فى مسمي الايمان فانهم لما زعموا انه فى اللغة التصديق والشرع لم يغيره أوردوا على أنفسهم فان قيل أليس الصلاة والحج والزكاة معدولة عن اللغة مستعملة في غير مذهب أهلها قلنا قد اختلف العلماء فى ذلك والصحيح انها مقررة على استعمال أهل اللغة ومبقاة على مقتضياتها وليست منقولة الا انها زيد فيها أمور فلو سلمنا للخصم كون هذه الالفاظ منقولة أو محمولة على وجه من المجاز بدليل مقطوع به فعليه اقامة الدليل على وجود ذلك في الايمان فانه لا يجب ازالة ظواهر القرآن بسبب ازالة ظاهر منها فيقال أنتم فى الاستثناء جعلتم الشرع زاد فيه وجعلتموه كالصلاة والزكاة مع انه لا يمكن أحدا أن يذكر من الشرع دليلا على ان الايمان لا يسمي به الا الموافاة به وبتقدير ذلك فمعلوم ان دلالة الشرع على ضم الاعمال اليه أكثر وأشهر فكيف لم تدخل الاعمال في مسماه شرعا وقوله لا بد من دليل مقطوع به عنه جوابان أحدهما النقض بالموافاة فانه لا يقطع فيه الثانى لا نسلم بل نحن نقطع بأن حب الله ورسوله ونحو ذلك داخل فى مسمى الايمان فى كلام الله ورسوله أعظم مما نقطع ببعض أفعال الصلاة والصوم والحج كمسائل النزاع ثم أبو الحسن وابن فورك وغيرهما من القائلين بالموافاة وهم لا يجعلون الشرع ضم اليه شيئا بل عندهم كل من سلبه الشرع اسم الايمان فقد فقد من قلبه التصديق قال ومن أصحابنا من لم يجعل الموافاة على الايمان شرطا فى كونه ايمانا حقيقياً في الحال وان جعل ذلك شرطا فى استحقاق الثواب عليه وهذا مذهب المعتزلة والكرامية وهو اختيار أبي اسحق الاسفرائيني وكلام القاضى يدل عليه قال وهو اختيار شيخنا أبى المعالى فانه قال الايمان ثابت في الحال قطعاً لاشك فيه ولكن الايمان الذي هو علم الفوز وآية النجاة ايمان الموافاة فاعتني السلف به وقرنوه بالاستثناء ولم يقصدوا الشك في الايمان الناجز قال ومن صار الى هذا يقول الايمان صفة يشتق منها اسم المؤمن وهو المعرفة والتصديق كما أن العالم يشتق من العلم فاذا عرفت ذلك من نفسى قطعت به كما قطعت بأنى عالم وعارف ومصدق فان ورد فى المستقبل مايزيله خرج اذ ذاك عن استحقاق هذا الوصف ولا يقال تبينا انه لم يكن ايمانا مأمورا به بل كان ايمانا مجزيا فتغير وبطل وليس كذلك قوله أنا من أهل الجنة فان ذلك مغيب عنه وهو مرجو قال ومن صار الى القول الاول يتمسك بأشياء منها أن يقال الايمان عبادة العمر وهو كطاعة واحدة فيتوقف صحة أولها على سلامة آخره كما يقول في الصلاة والصيام والحج قالوا ولا شك انه لا يسمي في الحال ولياً ولا سعيدا ولا مرضياً عند الله وكذلك الكافر لا يسمى في الحال عدو الله ولا شقياً إلا على معنى انه تجرى عليه أحكام الاعداء في

الحال لاظهاره من نفسه علامتهم قلت هذا الذى قالوه انه لاشك فيه هو قول ابن كلاب والاشعري وأصحابه ومن وافقهم من أصحاب أحمد ومالك والشافعى وغيرهم وأما أكثر الناس فيقولون بل هو اذا كان كافرا فهو عدو الله ثم اذا آمن واتقى صار ولياً لله قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم) الى قوله (عسي الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منه مودة والله قدير والله غفور رحيم) وكذلك كان فان هؤلاء أهل مكة الذين كانوا يعادون الله ورسوله قبل الفتح آمن أكثرهم وصاروا من أولياء الله ورسوله وابن كلاب وأتباعه بنوا ذلك على ان الولاية صفة قديمة لذات الله هى الارادة والمحبة والرضا ونحو ذلك فمعناها ارادة ثابتة بعد الموت وهذا المعنى تابع لعلم الله فمن علم انه يموت مؤمنا لم يزل ولياً لله لانه لم يزل الله مريدا لادخاله الجنة وكذلك العداوة وأما الجمهور فيقولون الولاية والعداوة وان تضمنت محبة الله ورضاه وبغضه وسخطه فهو سبحانه يرضي عن الانسان ويحبه بعد أن يؤمن ويعمل صالحاً وانما يسخط عليه ويغضب بعد أن يكفر كما قال تعالي (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه) فأخبر أن الاعمال أسخطته وكذلك قال (فلما آسفونا انتقمنا منهم) قال المفسرون أغضبونا وكذلك قال الله تعالي (وان تشكروا يرضه لكم) وفي الحديث الصحيح الذى في البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى من عادى لى ولياً فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب الى عبدى بمثل اداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها في يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبي يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه وما ترددت عن شئ أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه فأخبر أنه لا يزال يتقرب اليه بالنوافل حتى يحبه ثم قال فاذا أحببته كنت كذا كنت كذا وهذا بين فى أن حبه لعبده بعد أن يأتي بمحابه والقرآن قد دل على مثل ذلك قال تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) فقوله يحببكم جواب الامر في قوله فاتبعوني وهو بمنزلة الجزاء مع الشرط ولهذا جزم وهذا ثواب عملهم وهو اتباع الرسول فأثابهم على ذلك بأن أحبهم وجزاء الشرط وثواب العمل ومسبب السبب لا يكون الا بعده لا قبله وهذا كقوله تعالى (ادعونى أستجب لكم) وقوله تعالي (يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم) وقوله تعالي (اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم) ومثل هذا كثير وكذلك قوله (فأتموا اليهم عهدهم الي مدتهم ان الله يحب المتقين) وقوله (لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) وكانوا قد سألوه لو علمنا أى العمل أحب الى الله لعملناه وقوله (ان الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم اذ تدعون الى الايمان فتكفرون) فهذا يدل على ان حبه ومقته جزاء لعملهم وانه يحبهم اذا اتقوا وقاتلوا ولهذا رغبهم فى العمل بذلك كما يرغبهم بسائر مايعدهم به وجزاء العمل

بعد العمل وكذلك قوله (اذ تدعون الى الايمان فتكفرون) فانه سبحانه يمقتهم اذ يدعون الى الايمان فيكفرون ومثل هذا قوله (لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) فقوله لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك بين أنه رضى عنهم هذا الوقت فان حرف اذ ظرف لما مضي من الزمان فعلم انه ذاك الوقت رضى عنهم بسبب ذلك العمل وأثابهم عليه والمسبب لا يكون قبل سببه والموقت بوقت لم يكن قبل وقته واذا كان راضياً عنهم من جهة فهذا الرضى الخاص الحاصل بالبيعة لم يكن الا حينئذ كما ثبت فى الصحيح انه يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة هل رضيتم فيقولون يا ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم ما هو أفضل من ذلك فيقولون يا ربنا وأي شئ أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً وهذا يدل على أنه فى ذلك الوقت حصل لهم هذا الرضوان الذى لا يتعقبه سخط أبدا ودل على أن غيره من الرضوان قد يتعقبه سخط وفي الصحيحين فى حديث الشفاعة يقول كل من الرسل ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وفى الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه انه قال لله أشد فرحا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه يطلبها فلم يجدها فاضطجع ينتظر الموت فلما استيقظ اذا دابته عليها طعامه وشرابه وفي رواية كيف تجدون فرحه بها قالوا عظيما يارسول الله قال لله أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته وكذلك ضحكه الي رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة وضحكه الي الذى يدخل الجنة آخر الناس ويقول أتسخر بي وأنت رب العالمين فيقول لا ولكنى على ما أشاء قادر وكل هذا فى الصحيح وفى دعاء القنوت تولنى فيمن توليت والقديم لا يتصور طلبه وقد قال تعالي (إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين وقال (والله ولي المتقين) فهذا التولى لهم جزاء صلاحهم وتقواهم ومسبب عنه فلا يكون متقدما عليه وان كان انما صاروا صالحين ومتقين بمشيئته وقدرته وفضله واحسانه لكن تعلق بكونهم متقين وصالحين فدل على ان هذا التولى هو بعد ذلك مثل كونه مع المتقين والصالحين بنصره وتأييده ليس ذلك قبل كونهم متقين وصالحين وهكذا الرحمة قال صلى الله عليه وسلم الراحمون يرحمهم الرحمن بفضل رحمته ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء قال الترمذي حديث صحيح وكذلك قوله (ان تشكروا يرضه لكم) علق الرضاء به تعليق الجزاء بالشرط والمسبب بالسبب والجزاء انما يكون بعد الشرط وكذلك قوله (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين) يدل على انه يشاء ذلك فيما بعد وكذلك قوله (انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فاذا ظرف لما يستقبل من الزمان فدل على انه اذا أراد كونه قال له كن فيكون وكذلك قوله (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) فبين فيه انه سيري ذلك في المستقبل اذا عملوه ٠٠ والمأخذ الثاني فى الاستثناء ان الايمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله وترك المحرمات كلها فاذا قال الرجل أنا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه بأنه من الابرار المتقين القائمين بفعل جميع ما أمروا به وترك ما نهوا عنه فيكون من أولياء الله وهذا من تزكية الانسان

لنفسه وشهادته لنفسه بما لا يعلم ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغي له أن يشهد لنفسه بالجنة ان مات على هذه الحال ولا أحد يشهد لنفسه بالجنة فشهادته لنفسه بالايمان شهادته لنفسه بالجنة اذامات على هذه الحال وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون وان جوزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر كما سنذكره ان شاء الله تعالى ٠ قال الخلال في كتاب السنة حدثنا سليمان بن الاشعث يعنى أباداود السجستانى قال سمعت أبا عبد الله احمد بن حنبل قال له رجل قيل لي أمؤمن أنت قلت نعم هل علي في ذلك شيء هل الناس الا مؤمن وكافر فغضب أحمد وقال هذا كلام الارجاء قال الله تعالى (وآخرون مرجون لأمر الله) من هؤلاء ثم قال احمد أليس الايمان قولا وعملا قال له الرجل بلى قال فجئنا بالقول قال نعم قال فجئنا بالعمل قال لا قال فكيف تعيب أن يقول ان شاء الله ويستثنى ٠ قال أبو داود أخبرنى أحمد بن أبي شريح ان أحمد بن حنبل كتب اليه فى هذه المسألة ان الايمان قول وعمل فجئنا بالقول ولم نجيء بالعمل فنحن نستثنى في العمل ذكر الخلال هذا الجواب من رواية الفضل بن زياد وقال زاد الفضل سمعت أبا عبد الله يقول كان سليمان بن حرب يحمل هذا على التقبل يقول نحن نعمل ولا ندرى يتقبل منا أم لا قلت والقبول متعلق بفعله كما أمر فكل من اتقى الله فى عمله ففعله كما أمر فقد تقبل منه لكن هو لا يجزم بالقبول لعدم جزمه بكمال الفعل كما قال تعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) قالت عائشة يارسول الله أهو الرجل يزنى ويسرق ويشرب الخمر ويخاف فقال لا يابنت الصديق بل هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه وروى الخلال عن أبي طالب قال سمعت أبا عبد الله يقول لا نجد بداً من الاستثناء لانهم اذا قالوا مؤمن فقد جاء بالقول فانما الاستثناء بالعمل لا بالقول وعن اسحق بن ابراهيم قال سمعت أبا عبد الله يقول اذهب الى حديث ابن مسعود فى الاستثناء في الايمان ان الايمان قول وعمل والعمل الفعل فقد جئنا بالقول ونخشى أن نكون فرطنا في العمل فيعجبني أن يستثنى في الايمان يقول أنا مؤمن ان شاء الله قال وسمعت أبا عبد الله وسئل عن قول النبى صلى الله عليه وسلم وانا ان شاء الله بكم لاحقون الاستثناء ههنا على أى شيء يقع قال على البقاع لا يدري أيدفن فى موضع الذى سلم عليه أم فى غيره وعن الميمونى انه سأل أبا عبد الله عن قوله ورأيه فى مؤمن ان شاء الله قال أقول مؤمن ان شاء الله ومؤمن أرجو لانه لا يدري كيف البراءة للأعمال على ما افترض عليه أم لا ومثل هذا كثير في كلام أحمد وأمثاله وهذا مطابق لما تقدم من ان المؤمن المطلق هو القائم بالواجبات المستحق للجنة اذا مات على ذلك وان المفرط بترك المأمور أو فعل المحظور لا يطلق عليه انه مؤمن وان المؤمن المطلق هو البر التقى ولى الله فاذا قال أنا مؤمن قطعاً كان كقوله أنا بر تقى ولى الله قطعاً وقد كان أحمد وغيره من السلف مع هذا يكرهون سؤال الرجل لغيره أمؤمن أنت ويكرهون الجواب لان هذه بدعة أحدثها المرجئة ليحتجوا بها لقولهم فان الرجل يعلم من نفسه انه ليس بكافر بل يجد قلبه مصدقاً بما جاء به الرسول فيقول أنا مؤمن فيثبت ان الايمان هو التصديق لانك تجزم بانك مؤمن ولا تجزم بانك فعلت كل ما أمرت به فلما علم السلف مقصدهم صاروا يكرهون الجواب أو يفصلون في الجواب وهذا لان لفظ الايمان فيه اطلاق

وتقييد فكانوا يجيبون بالايمان المقيد الذى لا يستلزم انه شاهد فيه لنفسه بالكمال ولهذا كان الصحيح انه يجوز أن يقال أنا مؤمن بلا استثناء اذا أراد ذلك لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبين انه لم يرد الايمان المطلق الكامل ولهذا كان أحمد يكره أن يجيب على المطلق بلا استثناء يقدمه وقال المروزى قيل لأبى عبد الله نقول نحن المؤمنون فقال نقول نحن المسلمون وقال أيضاً قلت لأبي عبد الله نقول إنا مؤمنون قال ولكن نقول إنا مسلمون ومع هذا فلم ينكر على من ترك الاستثناء اذا لم يكن قصده قصد المرجئة ان الايمان مجرد القول بل تركه لما يعلم ان فى قلبه ايماناً وان كان لا يجزم بكمال ايمانه قال الخلال أخبرنى أحمد بن أصرم المزني ان أبا عبد الله قيل له اذا سألنى الرجل فقال أمؤمن أنت قال سؤالك اياي بدعة لا يشك في ايمانه أو قال لا نشك فى ايماننا قال المزنى وحفظي ان أبا عبد الله قال أقول كما قال طاوس آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله وقال الخلال أخبرني حرب بن اسمعيل وأبو داود قال أبو داود سمعت أحمد قال سمعت سفيان يعنى ابن عيينة يقول اذا سئل أمؤمن أنت لم يجب ويقول سؤالك اياى بدعة ولا أشك فى ايمانى وقال ان قال ان شاء الله ليس يكره ولا يداخل الشك فقد أخبر عن أحمد قال لا نشك في ايماننا وان السائل لا يشك فى ايمان المسؤل وهذا أبلغ وهو انما يجزم بانه مقر مصدق بما جاء به الرسول لا يجزم بانه قائم بالواجبات فعلم ان أحمد وغيره من السلف كانوا يجزمون ولا يشكون فى وجود ما في القلب من الايمان في هذه الحال ويجعلون الاستثناء عائداً الى الايمان المطلق المتضمن فعل المأمور ويحتجون أيضاً بجواز الاستثناء فيما لا يشك فيه وهذا مأخذ ثان وان كنا لا نشك في ما فى قلوبنا من الايمان فالاستثناء فيما يعلم وجوده قد جاءت به السنة لما فيه من الحكمة وعن محمد بن الحسن بن هارون قال سألت أبا عبد الله عن الاستثناء في الايمان فقال نعم الاستثناء على غير معنى شك مخافة واحتياطاً للعمل وقد استثنى ابن مسعود وغيره وهو مذهب الثوري قال الله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) وقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه انى لأرجو أن أكون أتقاكم لله وقال فى الميت وعليه يبعث ان شاء الله فقد بين أحمد انه يستثنى مخافة واحتياطاً للعمل فانه يخاف أن لا يكون قد كمل المأمور به فيحتاط بالاستثناء وقال على غير معنى شك يعنى من غير شك مما يعلمه الانسان من نفسه والا فهو يشك فى تكميل العمل الذى خاف أن لا يكون كمله فيخاف من نقصه ولا يشك فى أصله قال الخلال وأخبرنى محمد بن أبي هارون ان حبيش بن سندى حدثهم فى هذه المسئلة قال أبو عبد الله قول النبي صلى الله عليه وسلم حين وقف على المقابر فقال وانا ان شاء الله بكم لاحقون وقد نعيت اليه نفسه وعلم انه صائر الى الموت وفى قصة صاحب القبر عليه حييت وعليه مت وعليه تبعث ان شاء الله وفى قول النبي صلى الله عليه وسلم اني اختبأت دعوتي وهي نائلة ان شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً وفى مسئلة الرجل النبي صلى الله عليه وسلم أحدنا يصبح جنباً يصوم فقال اني أفعل ذلك ثم أصوم فقال انك لست مثلنا أنت قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال والله اني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وهذا كثير وأشباهه على اليقين قال ودخل عليه شيخ فسأله عن الايمان فقال له قول وعمل يزيد وينقص فقال له أقول مؤمن ان شاء الله

قال نعم فقال له انهم يقولون لي إنك شاك قال بئس ما قالوا ثم خرج فقال ردوه فقال أليس يقولون الايمان قول وعمل يزيد وينقص قال نعم قال هؤلاء يستثنون قال له كيف يا أبا عبد الله قال قل لهم زعمتم ان الايمان قول وعمل فالقول قد أتيتم به والعمل لم تأتوا به فهذا الاستثناء لهذا العمل قيل له يستثنى فى الايمان قال نعم أقول أنا مؤمن ان شاء الله استثني على اليقين لا على الشك ثم قال قال الله (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين) فقد أخبر الله تعالى انهم داخلون المسجد الحرام فقد بين أحمد فى كلامه انه يستثنى مع تيقنه بما هو الآن موجود فيه يقوله بلسانه وقلبه لا يشك في ذلك ويستثنى لكون العمل من الايمان وهو لا يتيقن انه أكمله بل يشك فى ذلك فنفى الشك وأثبت اليقين فيما يتيقنه من نفسه وأثبت الشك فيما لا يعلم وجوده وبين ان الاستثناء مستحب لهذا الثانى الذى لا يعلم هل أتى به أم لا وهو جائز أيضاً لما يتيقنه فلو استثنى لنفس الموجود فى قلبه جاز كقول النبي صلى الله عليه وسلم والله إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وهذا أمر موجود في الحال ليس بمستقبل وهو كونه أخشانا فانه لا يرجو أن يصير أخشانا لله بل هو يرجو أن يكون حين هذا القول أخشانا لله كما يرجو المؤمن اذا عمل عملاً أن يكون الله تقبله منه ويخاف أن لا يكون تقبله منه كما قال تعالى (والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون) وقال النبي صلى الله عليه وسلم هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه والقبول هو أمر حاضر أو ماض وهو يرجوه ويخافه وذلك ان ماله عاقبة مستقبلة محمودة أو مذمومة والانسان يجوز وجوده وعدمه يقال انه يرجوه وانه يخافه فتعلق الرجاء والخوف بالحاضر والماضي لان عاقبته المطلوبة والمكروهة مستقبلة فهو يرجو أن يكون الله يقبل عمله فيثيبه عليه فيرحمه فى المستقبل ويخاف أن لا يكون يقبله فيحرم ثوابه كما يخاف أن يكون الله قد سخط عليه في معصيته فيعاقبه عليها واذا كان الانسان يسعى فيما يطلبه كتاجر أو بريد أرسله فى حاجته يقضيها فى بعض الأوقات فاذا مضى ذلك الوقت يقول أرجو أن يكون فلان قد قضى ذلك الأمر وقضاؤه ماض لكن ما يحصل لهذا من الفرح والسرور وغير ذلك من مقاصده مستقبل ويقول الانسان في الوقت الذى جرت عادة الحاج بدخولهم الى مكة أرجو أن يكونوا دخلوا ويقول في سرية بعثت الى الكفار نرجو أن يكون الله قد نصر المؤمنين وغنمهم ويقال في نيل مصر عند وقت ارتفاعه نرجو أن يكون قد صعد النيل كما يقول الحاضر في مصر مثل هذا الوقت نرجو أن يكون النيل هذا العام نيلا مرتفعاً ويقال لمن له أرض يجب أن تمطر اذا مطرت بعض النواحي أرجو أن يكون المطر عاماً وأرجو أن يكون قد مطرت الأرض الفلانية وذلك لان المرجو هو ما يفرح بوجوده ويسره وهذا يتعلق بالعلم والعلم بذلك مستقبل فاذا علم ان المسلمين انتصروا والحاج قد دخلوا أو المطر قد نزل فرح بذلك وحصل به مقاصد أخر له واذا كان الأمر بخلاف ذلك لم يحصل ذلك المحبوب المطلوب فيقول أرجو وأخاف لان المحبوب والمكروه متعلق بالعلم بذلك وهو مستقبل وكذلك المطلوب بالايمان من السعادة والنجاة هو أمر مستقبل فيستثنى في الحاضر بذلك لان المطلوب به مستقبل ثم كل مطلوب مستقبل تعلق بمشيئة الله وان جزم بوجوده لانه

لا يكون مستقبل الا بمشيئة الله فقولنا يكون هـذا ان شاء الله حق فانه لا يكون الا ان شاء الله والشك واللفظ ليس فيه الا التعليق وليس من ضرورة التعليق الشك بل هـذا بحسب علم المتكلم فتارة يكون شاكا وتارة لا يكون شاكا فلما كان الشك يصحبها كثيراً لعدم علم الانسان بالعواقب ظن الظان ان الشك داخل فى معناها وليس كذلك فقوله (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) لا يتصور فيـه شك من الله بل ولا من رسوله المخاطب والمؤمنين ولهذا قال ثعلب هذا استثناء من الله وقد علمه والخلق يستثنون فيما لا يعلمون وقال أبو عبيدة وابن قتيبة ان ان بمعنى اذ أي اذ شاء الله ومقصودهم بهـذا تحقيق الفعل بان كما يتحقق مع اذ والا فاذ ظرف توقيت وان حرف تعليق فان قيل فالعرب تقول اذا احمر البسر فأتنى ولا تقول ان احمر البسر قيل لان المقصود هنا توقيت الاتيان بحين احمراره فأتوا بالظرف المحقق ولفظ إن لا يدل على توقيت بل هي تعليق محض تقتضى ارتباط الفعل الثانى بالأول ونظير مانحن فيـه أن يقولوا البسر يحمر ويطيب ان شاء الله وهذا حق فهذا نظير ذلك فان قيل فطائفة من الناس فروا من هـذا المعنى وجعلوا الاستثناء لأمر مشكوك فيه فقال الزجاج لتدخلن المسجد الحرام أى أمركم الله به وقيل الاستثناء يعود الى الامن والخوف أي لتدخلنه آمنين فأما الدخول فلا شك فيه وقيل لتدخلن جميعكم أو بعضكم لانه علم ان بعضهم يموت فالاستثناء لانهم لم يدخلوا جميعهم قيل كل هذه الاقوال وقع أصحابها فيما فروا منه مع خروجهم عن مدلول القرآن فحرفوه تحريفاً لم ينتفعوا به فان قول من قال أى أمركم الله به هو سبحانه قد علم هل يأمرهم أو لا يأمرهم فعلمه بانه سيأمرهم بدخوله كعلمه بان سـيدخلوا فعلقوا الاستثناء بما لم يدل عليه اللفظ وعلم الله متعلق بالمظهر والمضمر جميعاً وكذلك أمنهم وخوفهم هو يعلم انهم يدخلون آمنين أو خائفين وقد أخبر انهم يدخلون آمنين مع علمه بانهم يدخلون آمنين فكلاهما لم يكن فيه شك عند الله بل ولا عند رسوله وقول من قال جميعهم أو بعضهم يقال المعلق بالمشيئة دخول من أريد باللفظ فان كان أراد الجميع فالجميع لابد أن يدخلوه وان أريد الأكثر كان دخولهم هو المعلق بالمشيئة وما لم يرد لايجوز أن يعلق بان وانما علق بان ما سيكون وكان هذا وعداً مجزوماً به ولهذا لما قال عمر للنبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به قال بلى أقلت لك انك تأتيه هذا العام قال لا قال فانك آتيه ومطوّف به فان قيل لم لم يعلق غير هذا من مواعيد القرآن قيل لان هذه الآية نزلت بعد مرجع النبى صلى الله عليه وسـلم من الحديبية وكانوا قد اعتمروا ذلك العام واجتهدوا فى الدخول فصدهم المشركون فرجعوا وبهـم من الألم مالا يعلمه الا الله فكانوا منتظرين لتحقيق هذا الوعد ذلك العام اذ كان النبي صلى الله عليه وسـلم وعدهم وعداً مطلقاً وقد روى انه رأى في المنام قائلاً يقول (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) فأصبح يحدث الناس برؤياه وأمرهم بالخروج الى العمرة فلم تحصل لهم العمرة ذلك العام فنزلت هذه الآية ووعده لهم بما وعدهم به الرسول من الامر الذى كانوا يظنون حصوله ذلك العام وكان قول ان شاء الله هنا تحقيقاً لدخوله وان الله يحقق ذلك لكم كما يقول الرجل فيما عزم على أن يفعله لا محالة والله لأفعلن كذا ان شاء الله لا يقولها لشك فى ارادته

وعزمه بل تحقيقاً لعزمه وارادته فانه يخاف اذا لم يقل ان شاء الله أن ينقض عزمه ولا يحصل ماطلبه كما في الصحيحين ان سليمان عليه السلام قال والله لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل منهن تأتي بفارس يقاتل فى سبيل الله فقال له صاحبه قل ان شاء الله فلم يقل فلم تحمل منهن الا امرأة جاءت بشق رجل قال النبي صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لو قال ان شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون فهو اذا قال ان شاء الله لم يكن لشك فى طلبه وارادته بل لتحقيق الله ذلك له اذ الأمور لا تحصل الا بمشيئة الله فاذا تألى العبد عليه من غير تعليق بمشيئته لم يحصل مراده فانه من تألى على الله يكذبه ولهذا يروي لا أتممت لمقدر أمراً وقيل لبعضهم بما ذا عرفت ربك قال بفسخ العزائم ونقض الهمم وقد قال تعالى (ولا تقولنّ لشىء اني فاعل ذلك غداً الاّ أن يشاء الله) فان قوله لأفعلن فيه معني الطلب والخبر وطلبه جازم وأما كون مطلوبه يقع فهذا يكون ان شاءه وطلبه للفعل يجب أن يكون من الله بحوله وقوته ففى الطلب عليه أن يطلب من الله وفي الخبر لايخبر الا بما علمه الله فاذا جزم بلا تعليق كان كالمتألى على الله فيكذبه الله فالمسلم فى الأمر الذى هو عازم عليه ومريد له وطالب له طلباً لا تردد فيه يقول ان شاء الله لتحقيق مطلوبه وحصول ما أقسم عليه لكونه لا يكون الا بمشيئة الله لا للتردد في ارادته والرب تعالى مريد لإنجاز ما وعدهم به ارادة جازمة لا مثنوية فيها وما شاء فعل فانه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ليس كالعبد الذى يريد ما لا يكون ويكون ما لا يريد فقوله سبحانه ان شاء الله تحقق ان ماوعدتكم به يكون لا محالة بمشيئتي وارادتى فان ماشئت كان وما لم أشأ لم يكن فكان الاستثناء هنا لقصد التحقيق لكونهم لم يحصل لهم مطلوبهم الذي وعدوا به ذلك العام وأما سائر ما وعدوا به فلم يكن كذلك ولهذا تنازع الفقهاء فيمن أراد باستثنائه فى اليمين هذا المعنى هل يكون مستثنياً به أم تلزمه الكفارة اذا حنث بخلاف من ترددت ارادته فانه يكون مستثنياً بلا نزاع والصحيح انه يكون فى الجميع مستثنياً لعموم المشيئة ولان الرجل وان كانت ارادته للمحلوق به جازمة فقد علقه بمشيئة الله فهو يجزم بارادته له لا يجزم بحصول مراده ولا هو أيضاً مريد له بتقدير أن لا يكون فان هذا تمييز لا ارادة فهو انما التزمه اذا شاء الله فاذا لم يشأه لم يلتزمه بيمينه ولا حلف انه يكون وان كانت ارادته له جازمة فليس كما أريد التزم باليمين فلا كفارة عليه وقد تبين بما ذكرناه ان قول القائل ان شاء الله يكون مع كمال ارادته فى حصول المطلوب وهو يقولها لتحقيق المطلوب لاستعانته بالله فى ذلك لا لشك في الارادة هذا فيما يحلف عليه ويريده كقوله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام) فانه خبر عما أراد الله كونه وهو عالم بان سيكون وقد علقه بقوله ان شاء الله فكذلك مايخبر به الانسان عن مستقبل أمره مما هو جازم بارادته وجازم بوقوعه فيقول فيه ان شاء الله لتحقيق وقوعه لا للشك لا في ارادته ولا فى العلم بوقوعه ولهذا يذكر الاستثناء عند كمال الرغبة فى المعلق وقوّة ارادة الانسان له فتبقى خواطر الخوف تعارض الرجاء فيقول ان شاء الله لتحقيق رجاه مع علمه بان سيكون كما يسأل الله ويدعوه الأمر الذى قد علم انه يكون كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر قد أخبرهم بمصارع المشركين ثم هو بعد هذا يدخل الى العريش

يستغيث ربه ويقول اللهم أنجز لي ما وعدتني لان العلم بما يقدره لا ينافى أن يكون قدره بأسباب والدعاء من أعظم أسبابه كذلك رجاء رحمة الله وخوف عذابه من أعظم الأسباب فى النجاة من عذابه وحصول رحمته والاستثناء بالمشيئة يحصل في الخبر المحض وفي الخبر الذى معه طلب فالأول اذا حلف على جملة خبرية لايقصد بهحضاً ولا منعاً بل تصديقاً أو تكذيباً كقوله والله ليكونن كذا ان شاء الله أو لايكون كذا والمستثنى قد يكون عالماً بان هذا يكون أو لايكون كما في قوله لتدخلن فان هذا جواب غير محذوف والثاني ما فيه معنى الطلب كقوله والله لأفعلن كذا أو لا أفعله ان شاء الله فالصيغة صيغة خبر ضمنها الطلب ولم يقل والله اني لمريد هذا ولا عازم عليه بل قال والله ليكونن فاذا لم يكن فقد حنث لوقوع الأمر بخلاف ما حلف عليه لحنث فاذا قال ان شاء الله فانما حلف عليه بتقدير ان يشاء الله لا مطلقاً ولهذا ذهب كثير من الفقهاء الى انه متى لم يوجد المحلوف عليه حنث أو متى وجد المحلوف عليه انه لا يفعله حنث سواء كان ناسياً أو مخطئاً أو جاهلا فانهم لحظوا ان هذا فى معنى الخبر فاذا وجد بخلاف مخبره فقد حنث وقال الآخرون بل هذا مقصوده الحض والمنع كالأمر والنهي ومتي نهي الانسان عن شئ ففعله ناسياً أو مخطئاً لم يكن مخالفاً فكذلك هذا قال الأولون فقد يكون في معنى التصديق والتكذيب كقوله والله ليقعن المطر أو لا يقع وهذا خبر محض ليس فيه حض ولا منع ولو حلف على اعتقاده فكان الأمر بخلاف ماحلف عليه حنث وبهذا يظهر الفرق بين الحلف على الماضى والحلف على المستقبل فان اليمين على الماضى غير منعقدة فاذا أخطأ فيها لم يلزمه كفارة كالغموس بخلاف المستقبل وليس عليه أن يستثنى في المستقبل اذا كان فعله قال تعالى (زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) فأمره أن يقسم على ما سيكون وكذلك قوله (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم) كما أمره أن يقسم على الحاضر فى قوله (ويستنبؤنك أحق هو قل أى وربى انه لحق (وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم والذي نفسى بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً عدلاً واماماً مقسطاً وقال والذي نفسى بيده لاتذهب الدنيا حتي يأتى على الناس يوم لايدرى القاتل فيما قتل ولا المقتول فيما قتل وقال هلك كسرى أو ليهلكن كسرى ثم لا يكون كسرى بعده واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسى بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله وكلاهما فى الصحيح فأقسم صلوات الله وسلامه عليه على المستقبل فى مواضع كثيرة بلا استثناء والله سبحانه وتعالى أعلم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ فهرس كتاب الايمان ﴾

صحيفه

(تم الفهرس)



